المصطفى فنيتير

عيسى بن عمر

قائد عبدة 1879-1914

تقديم : ابراهيم بوطالب

2005

المصطفى فنيتير

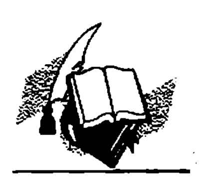
عيسى بن عمر

قائد عبدة 1879-1914

تقديم : ابراهيم بوطالب

منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر

15



الكتاب : *عيسى بن عمر قائد عبدة 1879- 1914*

المؤلف : المصطفى فنتير

تقديم : ابراهيم بوطالب

المطبعة : RABAT NET MAROC

شارع الحسن الثاني - ديور الجامع - الرباط

الهاتف : 061.20.37.76 - 061.07.83.63

الفاكس : 037.20.46.32

الإيداع القانوني : 2005/ 0866

تقــديـــم

إنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن يعرض على جمهور القراء والباحثين في تاريخ المغرب هذه الرسالة الجامعية التي نوقشت منذ عدة سنوات. والفضل في ذلك يرجع أولا إلى جمعية البحث والتوثيق لأسفي التي تعتني بكل ما يتصل بتراث إقليم عبدة فأبت إلا أن تطبع وتنشر هذا العمل، ويرجع ثانيا وبالأحرى إلى منجزه الأستاذ مصطفى فنيتير الذي جد واجتهد ليزيح الستار عن لحظة من لحظات تاريخ المنطقة تميزت على العموم بالتوجس والارتباك، وكانت مقالد القيادة فيها بيد شخصية فذة هي شخصية عيسى بن عمر البحتري نسبا العبدي شهرة.

وأول ما يستفاد من هذا البحث هو التعريف بإقليم عبدة في الجغرافية وفي التاريخ، فإذا كانت حدوده مرسومة في الجنوب بنهر تانسيفت وفي الغرب بالشاطىء الأطلسي، فإنها في الشرق وفي الشمال لا تحد بحدود طبيعية فتكاد تختلط في الواقع وفي الأذهان بإقليم دكالة من جهة الشمال وبإقليم السراغنة من جهة الشرق، فيبدو إقليم عبدة تارة إقليما منزويا وركنا في البلاد المغربية يمكن الركون إليها، ويبدو تارة أخرى إقليما منفتحا أمام كل التيارات مستهدفا مقصودا. وتتضافر المعطيات الجغرافية والعوامل التاريخية لتبرز أن مميزاته واقعة طبعا ومنذ القدم على طرفي نقيض، فهو إقليم له شاطىء ممتد على الأطلسي ولكن معدل الأمطار فيه دون المتوسط المغربي متواضع، وهو إقليم تمتد فيه السهول شاسعة ولا يخترقه إلا مرتفعات سلسة الجبيلات التي تدل صيغة التصغير في اسمها على عدم تجاوز قممها ألف ميتر في الغالب، وهو إقليم يحق أن يقال عنه إنه السهل الممتنع لأن انفتاح مسالكه لم يحل دون امتناعه في كثير من اللحظات التاريخية عن السلطة المركزية فكان على هامش الدولة وفي قلبها في آن واحد، شأنه في ذلك شأن مفترق الطرق يقصد إليه كل قاصد ويتشعب منه كل متشعب. وإقليم عبدة هو من تلك الأقاليم التي اختمرت فيها التركيبة الاجتماعية المغربية على شكل ما هي عليه اليوم من انصهار بين القبائل الأمازيغية والقبائل العربية يستحيل على الباحث أن يميز بينها لعراقة الانصهار وعموم اللغة العربية التي احتفظت بكثير من العبارات وبكثير من الأعلام الجغرافية الأمازيغية، علما بأن النظام القبلي قاسم مشترك بين الثقافتين، هو وطبيعة التشكيلة الاقتصادية المبنية على الزراعة البورية وتربية الماشية والمبادلات بما في ذلك المبادلات مع ما وراء البحار. وهكذا تميزت الشخصية العبدية باكرا في تاريخ المغرب دون أن ينال ذلك شيئا من قيامها بالأدوار الطلائعية في بعض الفترات، سواء أيام كان مرسى أسفي أحد المراسي الرابطة بين مراكش والأندلس الإسلامية، أو في دولة الشرفاء السعديين والعلويين، إذ لا مبالغة إذا قلنا أن الدولة العلوية قد تجدد صرحها،

بعد ما جرى من النزاع على السلطة بين أبناء المولى إسماعيل، انطلاقا من عبدة يوم التجأ إليها سيدي محمد بن عبد الله وتمكن منها بفضل اتصاله المباشر بتجار أوربا وبفضل مشايعة قبائل الإقليم لحكمه من إخراج الدولة من حالة الفتور الذي أصابها لمدة ثلاثين سنة. وكان لقائد عبدة يومئذ عبد الرحمان بن ناصر الدور الحاسم في مبايعة المولى سليمان بعد انقضاء عهد سيدي محمد بن عبد الله. ولم تزد مكانة عبدة إلا تألقا مع توالي السنين والعقود في القرن التاسع عشر ومع تفاقم الهجمة الاستعمارية والضغوط الإمبريالية على المغرب، فصارت عبدة أكثر من أي وقت مضى، كباقي السهول الأطلسية عبارة عن مجموعة من الثغور المستهدفة المعرضة وطلائع ملزمة بالذود عن الحمى مستنفرة بيد أن الذي ميز عبدة عن باقي السهول الأطلسية وقوع زمام القيادة فيها بيد شخصية فذة فيما بين 1874 و 1914 فزادت الإقليم تمييزا على تمييز.

إن عيسى بن عمر البحتري العبدي رجل سلطة، نشأ بين أحضان السلطة وعاش من ممارستها ومات وهو في حرمتها. إنه وجه من وجوه النظام القيادي المخزني التقليدي، كانت تختلط في سلطان البلاد أركان المسؤولية الكبرى، فهو المسؤول عن سلامة قبيلته وأمنها المتحكم فيها يقوم بين فرقها وشعبها من خصومات ومنازعات، وهو المسؤول عن حدودها بالنظر إلى القبائل المجاورة وعن إبلاغ تظلماتها إلى أمير المومنين وتنفيذ أوامره المدينة والعسكرية نيابة عنه في سكانها. ذلك بأن القائد المخزني التقليدي كان في آن واحد مكلفا بقيادة شؤون قبيلته في السلم وفي الحرب، فهو رجل إدارة كما نقول اليوم وضابط عسكري في ساحة الوغى، تتوفر فيه بالضرورة مهارات غالبا ما تتنافر في الشخص الواحد. وإذا صادف واجتمعت في امرىء ما فتكون النتيجة مثلا هي شخصية عيسى بن عمر الذي يوقفنا الأستاذ مصطفى فنيتير على مراحل نشأته وتكوينه وكيف قدمته مؤهلاته والظروف التاريخية حتى صار هو الخلف لأخيه القائد محمد 1854-1879، فاستتبت له الأمور بما كان يسير عليه من العنف الممزوج بالمكايسة أو من المكايسة التي لا تتردد عن إعمال أدوات الإكراه، لأن القيادة لم تكن هبة أو هدية تمنح أو تنال بالتي هي أحسن بل كانت معركة ومصارعة تختلط فيها أدوات الحرب بأدوات السياسة وينتصر فيها صاحب المواهب الكبرى على أن يوافقه الحظ. وإننا لنقف مع الباحث على مراحل تصدر أسرة الكوتي في قبيلة البحاترة، ثم على تصدر هذه القبيلة في شخص قائدها عيسى بن عمر في المجموعة العبدية قاطبة، حتى إذا اشتد التكالب الاستعماري، ووقع ما وقع من قيام الخليفة على الحوز المولى عبد الحفيظ على أخيه السلطان المولى عبد العزيز فكان عيسى بن عمر من أنصار الخليفة حمية للدين والوطن، فكان وجها من وجوه حركته من مراكش إلى فاس، بل صار من وزرائه بعد انعقاد البيعة العامة له. وكان ذلك أوج تألق نجم القائد عيسى بن عمر، إذ بعد ذلك

سيصير إلى الأفول لأن تدبير شؤون الوزارة من بنائق دار المخزن كان أشد عسرا عليه من قيادة إقليم عبدة الشاسع من أعلى صهوة جواده. ثم إن دخول البلاد تحت الحماية الفرنسية لم يكن ليغري القائد بأي وجه من الوجوه وقد بلغ من الكبر عتيا، فهو القائد المسلم المومن الشهم العالي الهمة التي لم يكن ليرضى لا أن تملى عليه سيرته في قبيلة ولا أن يمليها عليه بالأحرى النصراني الدخيل. ولذلك كان من أول ضحايا سياسة تفكيك القيادات الجنوبية الكبرى فأجبر على الإقامة بمدينة سلا وفيها وافاه الأجل المحتوم، مخلفا ذكرى رجل تتضارب فيه الأقوال مثلما تتضارب في أمثاله من الأفذاذ، لا سيما إذا أدركنا أنه نشأ في مجال تطغى فيه الرواية الشفوية وتكاد تنعدم فيه الرواية المكتوبة الموثقة، فيعسر على المؤرخ أن يستخرج من ذلك صورة بينة واضحة الملامح والمعالم، وإن كان ما توصل إليه الأستاذ الباحث لمما يغري بالمزيد من التنقيب، وذلك لضعف الإيمان بالنظر إلى المؤرخ.

الرباط 15 ماي 2005

إبراهيم بوطالب

الباب الأول

عبدة في الزمان والمكان

الفصل الأول

I - ظهور عبدة على مسرح الأحداث:

سأحاول في هذا الفصل تقديم صورة عن تاريخ عبدة في إطار تطورها الزماني والمجالي، وذلك قصد مواكبة بعض التطورات التي طرأت عليها، منذ ظهورها على مسرح الأحداث، إلى حدود القرن التاسع عشر الميلادي.

أصول قبائل عبدة

تجب الإشارة منذ البداية إلى أن البحث عن تاريخ عبدة، يرتبط بشكل مباشر، بالبحث عن تجمع دكالة، باعتبار أن عبدة، كانت منصهرة ضمنها، ولم يكن بروزها على مسرح الأحداث التاريخية، إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لذلك سنحاول تتبع التطورات التي أدت إلى ظهورها بشكل مستقل.

1- تحديد "عبدة" في المجال.

لا شك أن موطن عبدة الحالي، كان ضمن مجال دكالة، الذي يشمل منطقة شاسعة ممتدة، ما بين أم الربيع شمالا، وما وراء تانسيفت جنوبا.

فقد ذكر "ابن قنفذ" الذي زار المنطقة، حوالي سنة 769 ه/1370م وتولى قضاءها " أن أسفي هو آخر مرحلة من دكالة"[1] كما حددها ابن خلدون في إطار واسع " يمتد إلى أسفي حاضرة المحيط"[2] وهي بذلك كانت تشمل حيزا، أكثر اتساعا، مما هي عليه الآن، بل بقيت محتفظة به إلى حدود القرن السادس عشر، حيث ذكر الوزان، الذي زار المنطقة، وتعرف على أحوالها، أن " حدود ناحية دكالة، تبتدئ من تانسيفت غربا، وتنتهي على شاطئ المحيط شمالا، وعند وادي العبيد جنوبا، وأم الربيع غربا".[3] وهي بهذا التحديد، كانت تشغل كل المنطقة الممتدة على طول المحيط غربا، وتجاور كلا من تامسنا شمالا، وهسكورة ورجراجة جنوبا. وهذه المساحة الشاسعة جعلها الوزان " مسيرة أربعة أيام طولا ويومين

1- ابن قنفد، احمد بن الخطيب: أنس الفقير وعز الحقير - بتحقيق ونشر محمد الفاسي وأدولف فور الرباط 1965 - ص 71.

2- ابن خلدون، عبد الرحمان: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر مراجعة خليل شحادة وسهيل زكار - دار الفكر- لبنان 1981م جـ 6 ص 133.

3- الوزان، محمد بن الحسن الفاسي: وصف إفريقيا - ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب الإسلامي بيروت 1981 - الطبعة الثانية الجزء الأول ص 147. يلاحظ خلل لدى الوزان في هذا التحديد حيث أن أم الربيع هو الحد الشمالي وتانسيفت الحد الجنوبي والمحيط في الغرب بينما الحد الشرقي الفاصل بين دكالة وتادلا كان غير واضحا وربما هو ملتقى نهر أم الربيع وواد العبيد.

عرضا"[4]، وهذا ما أعطاها شكل مستطيل، ممتد على طول المحيط، يشغل حيزا أكثر اتساعا مما هي عليه الآن. وتدخل عبدة ضمنه. لذلك لا يمكن الحديث عن عبدة في هذه المرحلة إلا في إطار تجمع دكالة.

أ ـ عبدة ضمن تجمع دكالة:

كانت دكالة، إحدى ديار مصامدة السهل، الذين كانوا يشغلون" ما دون جبل الأطلس، إلى المحيط، حيث آسفي على شاطئه وسط قبائل دكالة..."[5] وبذلك، يكون الأصل البربري المصمودي هو الذي طغى على جل دكالة. لكن الزياني يذهب إلى القول بأن أمراء صنهاجة هم الذين أسسوا عدة مدن بدكالة "...مدينة طيط بدكالة، ومدينة أزمور بها أيضا، ومدينة آسفي بها أيضا .."[6] وهو بذلك، خالف معظم النصوص العربية، التي أجمعت أن دكالة من مصمودة[7] ولعل هذا الزعم، ربما يرجع إلى ما اعتمده الزياني، نقلا عن ابن الخطيب القسنطني[8] حيث أشار، إلى وجود مجموعة من المدارس بمدينتها العظمى، مملوءة "... بطلبة البربر صنهاجة أقل ما نجد منهم من يتكلم العربية.."[9] ولعله يقصد هنا، الاستثناء الذي كان معروفا بالمنطقة، وهو وجود فرقة من صنهاجة، على ساحل دكالة، قرب أزمور، كانت تعرف " بصنهاجة أزمور "[10] والمجال الذي يهمنا هو مجال عبدة، الذي لا يدخل ضمن هذا الاستثناء، بل كان، ضمن المجال المصمودي، وبقيت آثار ذلك واضحة، داخل بعض جهات عبدة.

ب ـ خروج عبدة " ضمن دكالة " من العصبية المصمودية:

إن الموقف الذي وقفته عبدة، ضمن تجمع دكالة، من الدعوة الموحدية في منتصف القرن الخامس الهجري، ومخالفتها لسائر القبائل المصمودية الأخرى، يطرح تساؤلا حول مبررات خروج دكالة عن عصبيتها المصمودية، والانحياز إلى عصبية الدولة المرابطية، ولعل هذا الموقف هو الذي دفع ببعض" النسابين إلى اعتبار دكالة من صنهاجة ..."[11] والمهم في هذا الموقف هو ما ترتب عليه من نتائج كان لها أثر على مصير عبدة، ضمن تجمع دكالة.

لقد وقفت دكالة ضد الحركة الموحدية، وواجهتها بعنف لما كانت تشكله من شدة وكثرة، وكانت مواجهة عبد المومن صارمة وعنيفة، يقول عنها صاحب الحلل الموشية: ... سار إليهم عبد المومن في أمم لا تحصى، من الخيل والرجالة والرماة ... فألجأهم السيف إلى البحر، فقتل أكثرهم في الماء وأخذت إبلهم، وغنمهم وأموالهم، وسبى أولادهم، وانتهى البيع فيهم، إلى بيع المرأة بدرهم، والغلام بنصف درهم ..."[12]

4- الوزان مذكور، ج 1/ص147.
5- المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ دار الكتاب البيضاء 1978 ـ ص 482- 483.
6- الزياني، أبو القاسم: الترجمانة الكبرى ـ تحقيق عبد الكريم الفلالي مطبعة فضالة 1967 ـ ص 78.
7- التادلي، أبو يعقوب بن يحيى " ابن الزيات": التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ـ تحقيق أحمد توفيق ـ منشورات كلية الآداب الرباط 1984. انظر إشارات التادلي في ص 114 - 131-141-148 ... الخ
8- اعتمد الزياني على ما أورد ابن قنفد وبالأخص كتابه: أنس الفقير الذي نشر سنة 1965.
9- الزياني ـ مذكور، ص 78.
10- التادلي ـ مذكور، ص 114 ـ الهامش 98.
11- بنمنصور، عبد الوهاب: قبائل المغرب المطبعة الملكية الرباط 1968 ج ا ص 324.
12- مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ـ تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة ـ دار الرشاد الحديثة ـ البيضاء 1979 / ص 147.

لا شك إذن أن عنف التدخل الموحدي، وشدة المواجهة، قد أدت إلى مضاعفات خطيرة، كان لها انعكاس على مستقبل المنطقة، وبالأخص ما أحدثه ذلك العنف من فراغ بشري، وفي هذا السياق، أصبح مفروضا على الموحدين أن يفكروا في إعادة تعمير منطقة دكالة.

2- إعادة تعمير دكالة:

يظهر أن الموحدين، كان هدفم تقويض شوكة دكالة، وذلك عن طريق إعادة تعميرها لملء الفراغ، وفي هذا السياق تم استقدام القبائل العربية الهلالية من أفريقية، في عهد عبد المومن الموحدي الذي " ... نقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بعيالاتهم وأبناءهم وهم عرب جشم..."[13].

ثم في سنة (582هـ/1186م) خرج يعقوب المنصور الموحدي إلى افريقية فمهد أرجاءها، و "... نقل جمهور القبائل إلى المغرب من كثرة وشوكة وطواعن ناجعة ... فنزل جشم بتامسنا البسيط الأفيح بين سلا ومراكش أواسط بلاد المغرب الأقصى... وافترقت جيوشهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبني جابر... واتصلت الرياسة على سفيان من بني جرمون ... وكان سفيان هؤلاء حيا حلولا بأطراف تامسنا مما يلي آسفي ...[14]

يبدو أن التفكير في إعادة تعمير دكالة، بالعنصر العربي، كان يرمي إلى إعادة التوازن بين مختلف جهات المغرب، وذلك لتحقيق أهداف هي :

* تكسير شوكة العصبية الدكالية المصمودية، عن طريق زرع عناصر أجنبية داخل مجال دكالة لإلهائهم بمشاكل داخلية يمكن استغلالها من طرف الدولة الموحدية.

* خلق حزام وقائي حول حاضرة مراكش، يتكون من عناصر عربية، معزولة عن أي عصبية قبلية. ولا ينتظر منها، إلا الولاء للسلطة المركزية.

* الاهتمام بالموارد الفلاحية للمنطقة، باعتبارها من السهول الغنية، لذلك اهتم المنصور الموحدي بتجهيزات الري" ... وأمر بشق قناة زودت عبدة بالماء من الوادي الأخضر ... [15].

أ - تغلب القبائل العربية على العصبية المصمودية:

أدى استقرار العناصر العربية بمجال عبدة، إلى اختلال التوازنات الداخلية، وظهور معطيات جديدة، أثرت في مكونات العصبية المصمودية لدكالة، التي عرفت تقلصا وذلك نتيجة للأسباب التالية:

- ظهور الاضطرابات الداخلية بين السكان الأصليين والعناصر العربية النازحة، وهذا ما سكتت عنه المصادر العربية، واكتفى صاحب التشوف بالإشارة إلى أن العناصر الأصلية، وقفت موقف المتفرج من العرب"... وهم يعبثون في الناس يمينا وشمالا... وهم يعيثون في كل جانب".[16].

---

13 - ابن خلدون - مذكور : ج 6/ص 37 و 39.
14 - ابن خلدون - مذكور : ج 6/ص 37 و 39 .
15 - أورده بوشرب احمد، ص 61 نقلا عن الكانوني: أسفي وما إليه ص 167.
16 - التادلي: مذكور، ص 383.

- تدخل القبائل العربية النازحة في الصراع السياسي، حيث أصبح لهم وزن في تدعيم طرف دون آخر، ولذلك "..لما وهن أمر عبد المومن وفشلوا... كان لهم سورة غلب واعتزاز على الدولة لكثرتهم وظاهروا الخلافة.."[17].

- تباين مواقف القبائل العربية النازحة من الدولة الموحدية، في فترة انهيارها، أدى إلى ظهور صراعات بينها، وبالأخص بين سفيان والخلط.

انطلاقا من الظروف المحيطة بهذه المرحلة، وما تلاها، عرفت عبدة، ضمن تجمع دكالة، تحولات أساسية أهمها:

- انصهار الجماعات البربرية المصمودية، أما بسبب اندماجها ضمن المجموعات العربية، أو رحيلها عن المنطقة، مما أدى لا محالة، إلى تفكيك العصبية المصمودية الدكالية، واختفاءها، بعد تغلب الجماعات العربية.

- تراجع بعض القبائل العربية الأولى، كقبائل سفيان، التي اضطرت بعد صراعها مع الخلط، إلى النزوح نحو الجنوب بعد أن "... ملك بسائطها الفسيحة بعدهم الخلط..[18] الذين استحوذوا على كل مجال دكالة، لكنهم اضطروا بدورهم، إلى الهجرة شمال أم الربيع، وذلك مع بداية الفترة المرينية. واستقروا بتامسنا، وهذه الهجرة لم تشمل كل العرب الهلاليين من سفيان وخلط، بل ربما شملت فقط العناصر المسلحة، وبقيت بعض الجماعات العربية التي اختلطت مع العناصر البربرية الأصيلة بدكالة، وبذلك أعيد التوازن داخل مجال دكالة.

ب - تقسيم جديد داخل مجال دكالة وظهور عبدة:

نتيجة لتقلص دور المجموعة المصمودية، واختفاء عصبيتها بعد تغلب المجموعة العربية، ظهرت أسماء جديدة، لتجمعات قبلية، بسبب اختفاء الإطلاق العام الذي كان لدكالة، فظهر إطلاق جديد، بعد أن انقسمت دكالة إلى"... دكالة حمراء وهي الجنوبية التي تحيط بآسفي وتسمى اليوم عبدة، ودكالة البيضاء وهي الشمالية التي احتفظت باسم دكالة...[19]

وبذلك يكون مجال عبدة، قد اتخذ ملامحه الأولى، وأصبح يشكل مجالا محددا ومنفصلا عن دكالة، التي تقلص مجالها ليتوسع مجال عبدة على حسابها.

3- مرحلة التحول وظهور عبدة:

انطلاقا من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، عرف مجال عبدة تحولات أساسية بسبب الغزو البرتغالي، وما تلاه من اختلال وتقسيم للمنطقة. فقد قسم البرتغاليون مجال دكالة، إلى ثلاث جهات "إدارية".

- الشرقية: يذكر مارمول أن عناصرها "..نزحوا من الشرق... حيث كان هناك أعراب آخرون..."[20] وكانت طلائع هذا التجمع بعد مرحلتين من آسفي[21] ويضم ست قبائل يهمنا من كان منها على اتصال بقبيلة عبدة وهم:

[17] - ابن خلدون: مذكور، ج 6/ص37.
[18] - ابن خلدون، ج 6 ص 39.
[19] - بنملصور: مذكور، ص 324.
[20] - مارمول كربخال: افريقيا: ترجمة محمد حجي ولخرون، ص 24 و 111 مكتبة المعارف 1984 ج 1.
[21] - بوشرب احمد: دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور، دار الثقافة - البيضاء 1984/ص76.

* أولاد فرج: وكان من فروعها، أولاد زيد الذين أصبحوا فيما بعد ضمن عبدة.

* أولاد عمران: بسهل سيدي بنور

* أولاد عمران " ايت علي" الجنوبية بسهل سحيم وبفعل موقعها كانت على اتصال بالحوز وبمراكش.

ـ الغربية: كانت تشغل الجهة الممتدة ما بين المحيط غربا (قرب كنتي) ومائة بير شرقا[22] وهي بذلك جارة لكل من عبدة وأولاد عمران... وغيرهم [23].

عبدة: كانت بالضواحي الشرقية والغربية لأسفي، ولم يكن انتشارها شمالا يتعدى " سرنو " أي على بعد (18 كلم من آسفي) وتقترب جنوبا من أكوز، وهي بذلك تشمل الجهة الممتدة ما بين جبال بني ماجر وتازروت[24].

وبذلك لم تكن عبدة تشمل، إلا مجالا محدودا بضواحي آسفي، إلا أنها عرفت تحولا وانتشارا بعيدا عن آسفي، نحو الشمال على حساب دكالة، وهذا ما ظهر بوضوح خلال القرن الثامن عشر، حيث أخذت عبدة حجمها الطبيعي.

أ ـ دلالة إسم عبدة:

من الراجح أن إسم عبدة لم يظهر إلا مع بداية القرن السادس عشر ومن المحتمل، أن يكون هذا الظهور مرتبطا بالتحولات التي عرفها مجال عبدة، وبظهور عصبية قبلية. فما هي دلالة هذا الإسم؟ وكيف أصبح يطلق على هذا المجال ؟

لا شك أن إسم عبدة من الأسماء العربية المعروفة، ولا يستبعد أن يكون للإسم ارتباط بأصول الجماعة العربية التي استقرت بهذا المجال.

يشير الإمام أبو زيد عبد الرحمان الفاسي في كتابة " الاقنوم في مبادئ العلوم" إلى عرب دكالة فيقول:

فصل في دكالة: بنو هلال.. أولاد عمران وعبده يقال"[25] :

وهذا البيت يعطينا ثلاثة فروع للقبائل العربية التي نزحت لمجال دكالة، وبهذا يكون فرع عبدة، من الفروع الأولى التي استقرت بهذا المجال واستحوذت عليه وأصبح الإطلاق يعم كل المجال الذي نزلت به هذه الجماعة.

ونعثر على إشارة أخرى للفقيه محمد بن ادريس العبدي البحراوي، في شرحه على نظمه لشذور الذهب لإبن هشام، يشير إلى كون عبدة من عبد القيس وذلك لما نسب نفسه إلى قبيلة عبدة[26].

---

[22] - مارمول كربخال: تاريخ أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ـ محمد زنيبر ـ محمد الأخضر ـ أحمد التوفيق ـ أحمد بنجلون (الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر (مكتبة المعارف الجديدة الرباط) انظر ص 100 وما بعدها.

[23] - بوشرب ـ مذكور، ص 80 - 81.

[24] - خريطة مجال عبدة بعد انتشار القبائل العربية خلال القرنين 17 و18 م في الملحق

[25] - الكانوني، محمد العبدي: أسفي وما إليه (ب.ت) ص 31.

[26] - الصبيحي أحمد: باكورة الزبدة في تاريخ أسفي وعبدة، خ.ع 1503د/ص41.

وفي تعليق للفقيه مبارك بن عمر على كتاب" انساب آل البيت من الشرفاء الأدارسة لصاحبه الشيخ العشماوي يقول: أن بعضهم بدكالة الحمراء بلدة عبد القيس المعروفين اليوم بعبدة"[27].

نستنتج من ذلك أن عبد القيس ربما هو أب القبيلة، لأن العرب كانت تتوسع في إطلاق إسم أبي القبيلة. وأن هذا الفرع العربي، هو الذي استوطن دكالة الحمراء التي عرفت فيما بعد بإسم عبدة.

ب ـ مبررات انفصال عبدة عن دكالة:

يذكر القنصل الفرنسي " شونيه" ـChenier الذي حل بآسفي أواسط القرن الثامن عشر " أن عبدة اقتطعت منها (دكالة) ليتم التقسيم بين أخوين متنافسين على حكمها... وأن عبدة التي تكون قسما من دكالة، تبدأ من آسفي وتمتد إلى تانسيفت مكونة بذلك شكل مثلث...[28] ولا يعطي توضيحا حول الأخوين المتنافسين ولا تحديدا لطبيعة هذا التنافس، لكن المصادر العربية تشير إلى ظهور صراعات عديدة داخل مكونات دكالة مما أدى إلى انقطاع السبل، ويرتبط ذلك بالظروف الناتجة عن الصراع بين أبناء المولى إسماعيل وهما المستضيء بنور الله والمولى عبد الله.

فهو بلا شك صراع سياسي مرتبط بموقف الجماعتين من تنافس أبناء المولى إسماعيل حول السلطة حيث انحازت دكالة لجانب المولى المستضيء في حين ساندت عبدة المولى عبد الله، ويذكر الزياني أن دكالة حرضت المولى المستضيء وقالت له: ".. إن عبدة شيعة المولى عبد الله، فإن لم تمكر بهم لا يستقيم لك أمر هذا الحوز، فوجه لهم سبحته وكتب لهم بالأمان فجاءوه بمائة ومعهم كسوة ضريح أبي محمد صالح وأولاده، فلما وقفوا بين يديه قتلهم، وأعطى خيلهم وسلاحهم لأهل دكالة ...[29].

لعل الحادثة قد زادت في تأجج الصراع بينهما، فتوالت الحروب وانقطعت السبل وعانت دكالة من مضاعفات ذلك، فالتجأت إلى البحث عن وسيلة للصلح، فقام الوالي الصالح سيدي المعطي بن صالح الشرقاوي في دكالة"... فوعظهم وزجرهم عن الخوض في الفتن والحروب..."[30] خصوصا وإنهم نكثوا بعبدة. "... فطلب منهم أن يصحبه الفقهاء والشرفاء والأعيان للدخول معهم لعبدة فصحبوه ودخل عبدة ثم آسفي، فعقد معهم الصلح بين الفريقين سنة 1153هـ .. [31] موافق 1740م وبذلك أخمدت شوكة الفتن والحروب بين الطرفين.

يتضح إذن أن التقسيم، لم يكن بسبب تناحر داخلي بين أخوين من دكالة وعبدة بل كان بسبب تناقض موقف الطرفين من الصراع المركزي حول الحكم ولا شك أن تناقض الموقفين كانت تمليه شروط ارتبطت بالمصالح الاقتصادية والسياسية لكل طرف على حدة إذ أن الصراع السياسي ليس إلا مظهرا لاستفحال التناقضات داخل مكونات قبائل دكالة، وهو تعبير عن تفكيك العصبية القبلية القديمة الذي كانت مؤشراته الأولى في إطار التقسيم العرقي

27 ـ نفسه، ص 40.

28 - Chenier (M.de): recherches historiques sur les maures et histoire de l'empire du Maroc (1787) T: III P 11

29 ـ الزياني أبو القاسم: الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ـ تحقيق كولان.. / ص 47 طبعة باريس 1882 ـ الطبعة الأولى.

30 ـ الكانوني محمد بن أحمد العبدي: علائق أسفي ونواحيها بملوك المغرب ـ مخطوط بحوزة السيد حامد التريكي / ص 72. انظر كذلك: جواهر الكمال في تراجم الرجال القسم الثاني/ص78.

31 ـ نفسه.

بين دكالة الحمراء ودكالة البيضاء ولا يمكن أن يكون هذا الإطلاق اعتباطيا بل من المحتمل أن تكون له مرتكزات اقتصادية تظهر بالأساس في تفاوت المناطق الزراعية والرعوية واختلاف الموارد... فالسهل يتميز بتربته الخصبة من نوع التيرس والحمري في حين أن الساحل يعتبر منطقة صخرية ذات تربة رملية وبينهما منطقة انتقالية تدعى "الحصبة" هذا التفاوت سيكون إحدى الأسباب التي فجرت الصراع بين التجمعين القبليين وهذا ما استدعى اتفاقهما أثناء الصلح على أن تترك "... بينهم بلاد تعرف بالمحرومة لا يحرثها أحد..."[32].

ولعل التأكيد على ترك هذا الحد الفاصل، كأرض "محرومة" هو دليل على حدة التوتر المتولد عن الاحتكاك والتجاور وأصبح ضروريا وضع الحدود بين التجمعين. وذلك ما أدى إلى ظهور عبدة بوصفها تجمعا قبليا وإطارا إداريا" يبتدء من آسفي ويمتد على تانسيفت مكونة بذلك شكل مثلث..."[33] وأصبحت تجاور " ... الشياظمة من جهة ويفصلها عنها وادي تانسيفت كما تجاور احمر ودكالة من جهة أخرى..."[34].

II - المؤهلات الطبيعية والبشرية لعبدة

عبدة ذات أهمية فلاحية باعتبار موقعها ضمن السهول الأطلسية فهي امتداد طبيعي لسهلي دكالة والشاوية، وتتميز بظروف طبيعية ملائمة للقيام بنشاط زراعي وتربتها من التيرس والحمري مما يساعد على إنتاج زراعي جيد من الحبوب.

1- تأثر عبدة بمحيطها:

تجمع المصادر التاريخية على أن المنطقة، كانت تعرف انتعاشا فلاحيا ونشاطا مكثفا أشار إليه بوضوح "ابن قنفذ" زمن وروده على المنطقة سنة 769هـ / 1370م، فقال عنه: "... أرض مستوية... بلغت أزواج حراثها زمان ورودي عليها عشرة آلاف وبعض حيوان فيها من إنسان وغيره زائد على مثل قدره وليس فيها نهر ولا عين إلا آبار طيبة"[35].

ونفس الملاحظة أوردها "لسان الدين ابن الخطيب" الذي لاحظ بدوره غنى هذه المنطقة من الناحية الفلاحية، والتي كانت ممتدة على طول الساحل من أزمور إلى آسفي، فقد وصفها بقوله:"...أجم الماشية...المنبث الحلل الغاص بانفساح مداه بالراغية والثاغية والناهقة والبالغ عدد أزواجه لإثارة الحرث ثلاثة آلاف زوج، أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه.."[36].

توضح هاتان الإشارتان الأهمية الفلاحية التي كانت لعبدة ضمن تجمع دكالة، ومدى كثافة الاستغلال رغم الضعف الملحوظ في إمكانيات الري بواسطة الأنهار أو العيون مما يجعل النشاط يعتمد على الفلاحة البورية المرتبطة بالتساقطات ومع ذلك فقد كانت المردودية مرتفعة مما سمح لسكان عبدة بتخزين فائض الإنتاج إما لتسويقه أو لاستعماله عند الحاجة،

---

[32] - نفسه.
[33] - شونيه - مذكور، ص 12.
[34] - ابن زيدان عبد الرحمان: العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية ج 1 ص 154.
[35] - ابن قنفذ احمد بن الخطيب: أنس الفقير و عز الحقير تحقيق ونشر: محمد الفاسي وأدولف فور - منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط 1965/71.
[36] - ابن الخطيب لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب - تحقيق: احمد مختار العبادي طبعة مصر (ب - ت) ص 69 - 73.

وهذا ما كان يطبع عبدة فترة حلول الوزان بها في القرن السادس عشر حيث سجل ملاحظات أساسية.

فقد ربط اسم مدينة"مائة بير" بمخازن الحبوب التي كانت تتوفر عليها، فيقول:"...في خارجها مطامير تعود السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم... ولكثرة هذه المطامير التي تشبه الأبيار سميت هذه المدينة مائة بير..."[37].

ووجود المطامير بهذا الحجم هو دليل استمرار النشاط الفلاحي بشكل مكثف داخل عبدة وارتفاع مردوديته مما استدعى خزن الفائض منه.

ورغم التهديد الذي ظهر آنذاك، وعلى الأخص بعد الغزو البرتغالي وما تلاه من مضاعفات على المنطقة كأعمال النهب والسبي وإثارة الرعب في أوساط السكان فقد بقي السكان متشبثون بأراضيهم باعتبارها وسيلة أساسية للإنتاج، لذلك رفضوا الإنصياع للملك الوطاسي محمد الشيخ، لما أراد نقل سكان مدينة مائة بير"..وفرو إلى آسفي حتى لا يتركوا أراضيهم..."[38] وتركوا خلفهم مطامير مملوءة بالحبوب والعسل ورغم ما أخذه الملك الوطاسي، فقد بقي العديد منها مملوءا بالحبوب.[39]

و لم تكن مدينة مائة بير وحدها بهذا النوع من الثراء الفلاحي، فقد كانت جهات أخرى بالسهول والحصبة، مشهورة بإنتاجها الجيد والوافر، ليس من الحبوب فقط بل من الزيتون والكلأ أيضا. فكانت مدينة الغربية تعتبر من أخصب الجهات"... كانت من قبل غنية وكثيرة السكان... لأنه لا يوجد قط بلد في كل مملكة مراكش أكثر منها خصوبة فيما يخص إنتاج القمح والكلأ..."[40]

كما كانت " مرامر" تنتج الكثير من القمح والزيت..." وكان جبل بني ماجر"... كثير الإنتاج لا سيما من القمح والزيت...[41]

نستنتج من ذلك أن بعض جهات عبدة كانت غنية بإنتاجها الفلاحي، إلا أننا نتوقف عند بعض الإشارات التي تبرز نوعا من التفاوت داخل جهات أخرى من عبدة، فقد ذكر الوزان أن "...الأراضي المحيطة بالمدينة (آسفي) خصبة جدا، إلا أن الأهالي غير أذكياء، لا يعرفون كيف يغرسون فيها الكروم، ومع ذلك فإن لهم بعض الحقول الصغيرة"[42]. فهل يمكن ربط ذلك بذكاء السكان أم أن له ارتباطا بعوامل أخرى؟

أ – أثر نزوح القبائل العربية على عبدة

مرت عبدة بتحولات عميقة، أثرت في طبيعة تركيبها السكاني، خصوصا بعد توافد القبائل العربية عليها، وما صاحب ذلك من اضطرابات أدت في بعض الجهات إلى فراغها، وإعادة تعميرها، وربما نتج عن ذلك تراجع في النشاط الفلاحي، وظهور أنشطة أخرى

[37] - الوزان الحسن بن محمد الفاسي: وصف افريقيا ـ ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الغرب الإسلامي : الطبعة الثانية ج/ص 153.
[38] - نفسه ،ج 1 ص 154.
[39] - نفسه.
[40] - الوزان، ص 159.
[41] - الوزان، ص 160
[42] - الوزان، ص 147.

تتناسب مع طبيعة القبائل الوافدة على المنطقة، فمن المحتمل أن يكون نشاطها قد انصب على نوع آخر من الأنشطة الفلاحية.

لقد تحكمت القبائل العربية في كل مجال عبدة بعصبيتها وشوكتها، وأصبحت تمارس ضغطا، وتثير مصاعب للسلطة المركزية، مما جعلها تسعى لإرضائها بالعطاءات والإقطاعات، وهذا ما سمح لها بممارسة التحكم في كل ثرواتها.

فقد لاحظ الوزان مقدار هذه القوة، لما كان برفقة الملك الوطاسي محمد الشيخ سنة 921هـ/1515م الذي كان يدعو بقوله"... اللهم أنك تعلم أني ما جئت إلى هذا البلد المهجور إلا لمساعدة "دكالة" وتحريرهم من الأعراب الزنادقة المتمردين، ومن أعدائنا الألداء المسيحيين..."[43].

إن ذلك يؤكد، حسب موقف الملك الوطاسي، أن عبدة أصبحت تعاني من سطوة الأعراب الذين بسطوا سلطتهم عليها، وأصبحوا يشكلون قوة من شأنها أن ترعب الأهالي، إن لم تضعهم تحت رحمتهم.

لم يستطع الملك الوطاسي أن يجابه قوة الأعراب، رغم أنها كانت من بين مهامه، وذلك لأنه لاحظ مقدار قوتهم، وانبهر بالوفود التي أقبلت عليه لما حل بالجبل الأخضر"... كان عدد الخيل يبلغ نحو أربعة عشر ألف فرس، بعضها ملك للأعراب الذين جاءوا ليكونوا رهن إشارة الملك، وبعضها لأتباعه العرب ولجنوده، وجميع الأعراب أتوا معهم بعدد من الجمال يبلغ ثلاثة أضعاف عدد الخيل..."[44]. إن هذه القوة التي ظهرت بها القبائل العربية، جعلت الملك الوطاسي غير قادر على مجابهتهم. وهي تؤكد نوعا من الاهتمام بالفروسية، وتربية الماشية، وبالأخص الجمال. وذلك ما ينسجم مع طبيعة العيش أو نمطه لدى الأعراب.

ب- ظهور التجار الأوروبيين بسواحل عبدة:

عرفت عبدة انطلاقا من القرنين الخامس عشر والسادس عشر معطيات جديدة، تتجلى في وصول التجار الأوروبيين إلى سواحلها، وبالأخص إلى مرسى أسفي.

فما هو أثر ذلك على عبدة؟

لقد استفادت عبدة من الظرفية الاقتصادية العامة التي عرفها القرن الخامس عشر، بعد أن تحولت الطرق التجارية الداخلية نحو الموانئ الأطلسية، التي لم تسقط بعد في يد البرتغاليين، ومنها ميناء أسفي، الذي أصبح من أكثر الموانئ المغربية استفادة من التيارات التجارية الجديدة، التي انفتحت على المحيط، وبذلك فتحت آفاقا جديدة أمام منتجات عبدة الفلاحية وغيرها، وربطها بالتسويق الخارجي، إذ أصبحت"... السفن البرتغالية المتوجهة إلى الموانئ الإفريقية، تتوقف بأسفي للتزود بتلك الأمتعة الصوفية، وبالحبوب، والخيل... وذلك على الأقل سنة 1455..."[45].

إن إقبال السفن البرتغالية على أسفي معناه تزايد الطلب على المنتجات الفلاحية والحيوانية وغيرها، وهذا ما دفع بسكان عبدة إلى تكثيف نشاطهم الفلاحي، قصد تلبية

[43] - الوزان، ص 162.
[44] - الوزان، ص 161
[45] - بوشرب، أحمد : دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور – دار الثقافة البيضاء 1984/ ص 114.

حاجات الطلب الخارجي، ولعل كل التحولات التي عرفتها عبدة، يمكن أن تجد تفسيرها، في ارتباط عبدة تجاريا بمرسى أسفي.

2- ارتباط عبدة بمرسى أسفي:

لقد ساهم الانتعاش التجاري الذي عرفه مرسى آسفي، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في إدماج عبدة ضمن هذا النشاط، بسبب الجاذبية التي أصبحت تمارسها أسفي لاستقطاب منتوجات عبدة من حبوب... وهكذا تزايد الطلب على الحبوب والماشية، مما دفع بالسكان إلى الرفع من المردودية، لتوفير الفائض قصد التسويق، وذلك ما ساعد على ظهور بوادر الرخاء، داخل بعض الجهات القريبة من أسفي، فقد لاحظ الوزان، أن جبل بني ماجر "... كان يسكنه عدد وافر من الصناع الذين يملكون جميعا دورا بأسفي..."[46]. هذا دليل على أن سكان عبدة، كانوا يتوافدون باستمرار على أسفي التي أصبح لها دور أساسي في مبادلاتهم التجارية، لذلك توطدت العلاقة بها، وأصبحت الإقامة فيها أمرا ضروريا لمراقبة المعاملات التجارية، ولعل هذا ما استلزم اقتناء الدور بها. ولم يقتصر هذا النوع من النشاط على جهة من عبدة دون غيرها، بل ربما كان يشمل جهات أعمق من محيط أسفي.

أ- انعكاسات هذا التحول على المستوى الاجتماعي:

أدى الرواج التجاري الذي عرفته عبدة وأسفي خلال هذه المرحلة إلى انتعاش اقتصادي، واستفادت منه بعض الفئات الاجتماعية، التي احتكرت تسويق المنتوجات الفلاحية وغيرها. وبذلك ظهرت فئة ارستقراطية تجارية، كانت تقوم بدور الوساطة، بين المنتجين من فلاحي عبدة، والتجار الأوروبيين البرتغاليين على الأخص، ومن أبرزهم بأسفي " أسرة آل فرحون" التي استفادت من اضمحلال نفوذ السلطة المركزية، واستبدت بأمر أسفي، وبفعل احتكارها للموارد التجارية للمدينة، أصبحت تمارس نوعا من الاستقلال في سلطتها السياسية، واستفادت من عائدات التجارة لصالحها الخاص، وبذلك احتلت مركزا هاما بثروتها، وفرضت سلطتها على المدينة والقبائل المحيطة بها، ودخلت في علاقة مباشرة مع البرتغاليين الذين كانوا بدورهم، يبحثون عن وسيلة للتحكم غير المباشر في أسفي وعبدة "... وذلك بالاعتماد على الهياكل السياسية القائمة، التي سخرت كل الإغراءات من رشاوى ووعود لدفعها إلى الدخول تحت الحماية البرتغالية..."[47]. وهكذا تقلد أحد أفراد هذه الأسرة وهو "حمادي ابن فرحون" قيادة أسفي بإسم الملك البرتغالي سنة 1481 وبذلك دشن بداية مرحلة التآمر البرتغالي ضد السيادة المغربية، والتنافس بين الفئات الاستقراطية، على الانفراد بالسلطة داخل عبدة[48]. حيث كادت هذه الظاهرة أن تعم كل أرجاء المغرب، وأصبح عدة أمراء يتقاسمون السيادة، مما جعل الكثير من الحواضر تنفرد باستقلالها، ولم يكن حينئذ لملوك بني وطاس ما يلزم من السلطة لبسط نفوذهم على مجموع البلاد.

---

46 - الوزان، ص 160.

47 - بوشرب احمد: المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16 ضمن كتاب في النهضة والتراكم - دار توبقال للنشر - البيضاء 1986/ ص 215.

48 - أنظر التفاصيل لدى الوزان، ص 150 و 151.

واستمرت هذه الوضعية إلى سنة إخلاء أسفي ونواحيه من طرف البرتغاليين سنة 947 هـ/1541م "..وبقيت أسفي منذ ذلك العهد خالية، وخربت البلاد ولم يكن هذا التخريب مقتصرا على أسفي وحدها، بل شمل مجموع دكالة"[49].

ب- انتعاش مؤقت في العهد السعدي:

بعد خلاء أسفي، برزت اضطرابات داخل مجال عبدة، أدت إلى اختلال التوازن وفقدان التماسك بين مكونات عبدة. فقد كانت عبدة تشكل كتلة متماسكة، إلا أنها بعد ذلك تفتت إلى فروع كآل غياث حول أسفي[50].

وبسبب النكبات التي اجتاحت عبدة، من جراء الجفاف، وما تلاها من قحط وفتن بسبب مجاعة(1061-1062هـ/1650-1651م) التي أدت إلى إخلاء البلاد، وضياع الأعراب ورحيل الكثير منهم عن عبدة"... قام آل غياث من عبدة، وطمعوا في المدينة، وصاروا يقطعون السبيل ويخطفون الناس من جانب السور...[51] حيث لم يكن لأسفي آنذاك آية حماية لتوالي الموت والقحط، فكتب أهلها للسلطان محمد الشيخ الأصغر ابن زيدان مستغيثين به، فخرج من مراكش"..فوافى آل غياث يوم الجمعة 9 جمادى الأولى عام 1062هـ/1651م فأوقع بهم وبمن حذا حذوهم وانتشف أموالهم وأفسد مساكنهم، ودخل أسفي في اليوم المذكور...[52] وعقب رجوعه لمراكش، أرسل حامية وقوافل من الجمال تحمل المؤن، كما رتب لغالبية السكان المئونة مرتين في السنة، واستمر في ذلك إلى سنة 1064هـ/1653م حيث كان الخصب ونزل المطر.

وعادت الحياة من جديد لمرسى أسفي، وانتعشت عبدة بعد أن استقر السعديون بمراكش، واتخذوها حاضرة ملكهم، وأصبحت بذلك منفذا بحريا، يتقاسم مع أكادير وسلا كل النشاط البحري المغربي، وعن طريق أسفي، كانت تصل البعثات الدبلوماسية، من سفراء ومبعوثين لتقديم أوراقهم للبلاط السعدي.[53]

ولم يستمر الانتعاش طويلا، إذ بانتهاء الدولة السعدية، تقلص من جديد دور مرسى أسفي الذي عاد إلى ركوده، وكان لذلك تأثير كبير على كل مجال عبدة. وسيظهر من جديد مع فترة عبد الرحمان بن ناصر العبدي.

---

[49] - الوزان، ص 151.
[50] - بوشرب: مذكور، ص 466.
[51] - الكانوني العبدي: علائق أسفي ونواحيها بملوك المغرب- مخطوط بحوزة الأستاذ حامد التريكي(غير منشور)، ص 61-62.
[52] – نفسه، ص 61.
[53] - Antona, Armand: La région des Abda (Rabat 1931) P. 39.

الفصل الثاني
تطور الجهاز المخزني المحلي داخل عبدة

I- ظهور القيادة المحلية لعبدة.

1- ارتباط عبدة بالمخزن المركزي وظهور قيادة عبدة.

بعد موت السلطان أحمد بن محمد الشيخ السعدي، وظهور الشبانات بمراكش، تحت زعامة القائد عبد الكريم بن أبي بكر الشبلي ثم الحريزي كبير حي الشبانات بمراكش، ومبايعة أهل مراكش ونواحيه له سنة 1069هـ/1658م. تطلع إلى أسفي، باعتبارها تمثل منفذا بحريا قريبا، إلا أن سكان أسفي وعبدة، رفضوا الدخول في طاعته، لذلك قام بغزوهما، لكنه رجع مغلولا[54] وكانت مجاعة 1659/1070م المشهورة، فدب الضعف لجسم الشبانات.

ومع ظهور الدولة العلوية، تمكن المولى رشيد من دخول مراكش، فدخلت أسفي وعبدة في طاعته سنة 1081هـ، وأصبحت عبدة تشكل إحدى القبائل التي اعتمدها المولى إسماعيل فيما بعد، رغم ما يذهب إليه"مشوبيلير" من أن التاريخ المحلي لدكالة (وضمنها عبدة) لا يمثل أية أهمية في عهد السلطان مولاي إسماعيل[55]. إلا أننا عثرنا على بعض الإشارات المتفرقة، التي تبرز مراحل ارتباط عبدة بالمخزن المركزي، وبداية ظهور القيادة المحلية بوصفها تمثل السلطة المركزية.

كان موقف عبدة من صراع المولى اسماعيل وحركة ابن محرز واضحا حيث أغلقت أسفي أبوابها، بعد أن قلومت عبدة هذه الحركة[56]. وولى المولى إسماعيل على عبدة وصيفه القائد علال المخزني" كان صاحب رياستهم في الدولة الإسماعيلية العلوية"[57] ولعله ينتمي إلى الجرامنة، إحدى بطون قبيلة آل عامر من عبدة، وفي نفس الفترة كان على دكالة وصيفه الباشا سعيد الخياط الذي عزله سنة 1123هـ/1711م وولى مكانه الخياط بن منصور، ثم بعده الغازي بوخصرة، الذي الذي امتد نفوذه على كل من دكالة و الشاوية[58].

وقد امتثلت عبدة لأوامر السلطان المولى اسماعيل، حينما أمر بجمع العبيد لتأسيس الجيش البخاري، فقدمت ألفي من العبيد،[59] كما أنه أمرها سنة 1123هـ/1711م بالحركة إلى بلاد القبلة[60] للمساهمة في عملية تمهيد البلاد لسلطته. بل إن عبدة كانت تكون في عهده مدرسة لتعلم الفروسية، حيث" كان السلطان المولى لسماعيل يرسل عبيده ليتعلموا الرماية عندهم.."[61] ومقابل هذه الخدمات، أسقط عنهم جميع الوظائف إلا الزكاة والأعشار[62]، وربما لا يعتبر هذا امتيازا بالنسبة لعبدة إذ أن سياسة المولى لسماعيل اعتمدت على تجريد القبائل

---

[54] - الناصري، أحمد بن خالد السلاوي. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب: البيضاء 1956 – الجزء السادس: ص109.

[55] - Bellaire, (Micheaux) – les Doukkala/ in villes et tribus du Maroc Tom I 1932 P. 78

[56] - Antona, Armand- La région des Abda- Rabat 1931/P. 41

[57] - الكانوني، محمد بن أحمد العبدي: أسفي وما إليه – القسم الأول (بحث)، ص 32.

[58] - الضعيف الرباطي: تاريخ الضعيف: تحقيق أحمد العماري – دار المأثورات 1986/ص92.

[59] - ميشو بيلير: مذكور، ص 78.

[60] - الكانوني مذكور، ص 68.

[61] - نفسه، ص 177.

[62] - نفسه، ص68.

من السلاح والخيل، وبذلك لم يعد في استطاعة عبدة أن تقوم بوظائفها الأخرى، في إطار ما ينوبها، بل هي تؤدي فقط ما ينوبها شرعا كالزكاة والأعشار.

بعد موت المولى اسماعيل، ومبايعة ولي عهده احمد بن اسماعيل المعروف بالذهبي سنة 1139هـ/1727م الذي دشن بداية عهده " بقتل عمال أبيه وأركان دولته"[63] واعتكف على لذاته، وأهمل شؤون البلاد " ... فانحل نظام الملك لإهماله الرعية، وقتل رجال الدولة الذين كانوا قوائمها، واستخفت الرعية بأمر السلطان، فمدوا أيديهم للنهب في طرقات المسلمين إذ لا وازع لهم"[64].

وبسبب ذلك عرف المغرب مرحلة اضطرابات ونزاعات بين أبناء المولى اسماعيل، قضت على الكثير مما شرع في بنائه.

لقد حاول أبناء المولى اسماعيل البحث عن سند لتحقيق طموحهم في الاستحواذ على السلطة، ورغم أن العبيد كان لهم دور في هذا المجال، إلا أن دور بعض القبائل كان حاسما في الصراع، وهكذا التجأ المولى المستضيء بن اسماعيل إلى نواحي مراكش بعد أن بايعوه سنة 1152 هـ/1739م" فاستصرخ قبائل الحوز على قتال أخيه (المولى عبد. الله)" [65] وذلك لأن أخواله كانوا من دكالة، لهذا استجابت لدعوته. أما عبدة التي كانت ضمن عصبية دكالة وكذلك الرحامنة، فكانوا شيعة المولى عبد الله، وكان ذلك سببا في قيام حروب بين الطرفين، حيث غارت دكالة على "... عبدة وقتلوا منهم جمعا ونهبوا أموالهم..."[66] ولم تقف محاولتهم عند هذا الحد، بل إن دكالة أوعزوا للمولى المستضيء بضرورة استئصال دعامة المولى عبد الله عن طريق إضعاف قوة عبدة، وقالوا له" ... إن عبدة شيعة المولى عبد الله، فإن لم تتمكن منهم لا يستقيم لك عمل هذا الحوز"[67] فاختار المولى المستضيء أسلوب المناورة، وكتب لهم بالأمان بعد أن وجه لهم سبحته، ولما قدموا عليه بمائة من أعيان القبيلة، وبكسوة الشيخ أبي محمد صالح وحفدته، ووقفوا بين يديه، أمر بقتلهم، وأعطى خيلهم وسلاحهم لأهل دكالة، وكانت نتيجة ذلك توالي الحروب بين قبائل الحوز عموما، ودكالة وعبدة على وجه التخصيص، إلى أن استقام الأمر للمولى عبد الله. وبقيت عبدة وأسفي مخلصة له[68] ولم نقف على أية إشارة للقواد الذين عينهم المولى عبد الله على عبدة آنذاك.

2- انتعاش عبدة وأسفي بوجود سيدي محمد بن عبد الله:

لما هزم المولى عبد الله أخاه المولى المستضيء، وشرده "... أقدم على المولى عبد الله الرحامنة وأهل الحوز، وطلبوا منه أن يذهب معهم لمراكش، فخلف السلطان ولده سيدي محمد ووجهه معهم..."[69] وأصبح نائبا عنه في منطقة الحوز، ولما وصل مراكش نزل بقصبتها، وهي يومئذ خراب ليس بها "... إلا البوم على الجدارات الخربة من آثار السعديين

---

[63] - الناصري مذكور، ج 7/ص114
[64] - الزياني أبو القاسم: الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين من أولاد مولانا الشريف بن علي (1912-1637) وهو منقول من كتاب الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب – المطبعة الجمهورية بباريس ط: 1 1886/ص30.
[65] - الكانوني: علائق أسفي ونواحيها بملوك المغرب: مخطوط مطبوع بالآلة الكاتبة في حوزة السيد حامد التريكي.
[66] - الكانوني نفسه، ص 72.
[67] - الزياني: مذكور، ص 47.
[68] - ميشو بيلير: مذكور، ص 78.
[69] - أكنسوس أبو عبد الله – الجيش العرمرم الخماسي. ج 1 ص 126 (مطبعة حجرية بفاس).

والموحديين..."[70] ثم شرع في حفر أساس داره، بالفضاء البعيد عن القصور الخربة بها، من داخل السور، لكي يتخذها مقرا لحكمه، إلا أن عرب الرحامنة لما رأوا ذلك اتفقوا على منعه "... لأنهم ألفوا العبث في أطراف مراكش وأحبوا أن لا تكون بها دولة تكبحهم عن ذلك، فاجتمع طائفة من غوغائهم وتقدموا إلى الخليفة سيدي محمد وواجهوه بالمنع"[71] ويمكن إيجاد تبرير لهذا الموقف من خلال الدعم، الذي قدمته الرحامنة للمولى المستضيء ضد المولى عبد الله، فلعل احتمالات الانتقام كانت واردة لديهم، من طرف ابنه وخليفته المولى محمد بن عبد الله، لذلك جابهوه بالمنع، وأخرجوه من القصبة، ومن مراكش بعد أن شرع في البناء. توجه المولى محمد بن عبد الله إلى شيعته من عبدة، فتلقته عبدة وأحمر بالفرح والحبور "... ولعبوا بين يديه سرورا بمقدمه، وساروا معه لثغر أسفي، فنزل بالقصبة"[72] وتسابقوا في خدمته، وواصلوه بكل ما قدروا عليه، وأهدى له تجار أسفي من المسلمين والنصارى واليهود فسرح لهم الوسق، وبذلك"... أقبلت إلى أسفي المراكب من كل ناحية، وترادفت عليه الخيرات"[73] فجلب الأوروبيين إلى أسفي، وشجع مجيئهم، وذلك قصد إضعاف دور سلا في التبادل التجاري بسبب موقعها وتمردها على أبيه السلطان مولاي عبد الله[74].

واستفادت أسفي، واتسعت تجاريا، بسبب إقبال السفن بالسلع والبضائع، وما نتج عن ذلك من رواج أدى إلى زيادة الموارد، فكثرت الأموال بيد الخليفة، وعظم أمره وذاع صيته، وتزايد مناصروه، وأصبحت أسفي مقرا لخلافته. فدخلت المناطق المجاورة في طاعته، كالشياظمة، وحاحا، وغيرها[75]. ولم تمض إلا مدة قليلة، حتى اجتمع عليه عدد كبير من الفرسان، كانوا أول جيش أسست عليه الخلافة، ثم شرع في تنظيم أمورها.

ولما ذاع صيته بمجموع القبائل الحوزية، وتأكدوا مما أدركته عبدة وأحمر من أهمية، بدأ الخوف يدب لما بينهما من عداء، فاجتمع أعيانهم وأقبلوا عليه لأسفي بهداياهم والتزموا بطاعته، واعتذروا عما وقع منهم ونسبوا ذلك إلى السفهاء منهم، وتضرعوا له"... وأقسموا أن لا يبرحوا بابه ولا يرجعون لخيامهم إلا وهو معهم"[76] وقد وجد المولى محمد بن عبد الله في هذا الموقف فرصة، لإعادة تجميع قبائل الحوز حوله، واسترجاع مراكش مقرا لخلافته، لذلك طاوعهم بعد ما تأكد من صدق موقفهم، فتوجه معهم إلى مراكش بصحبة أعوانه، وخدامه من عبدة، وفرسانها".. في الخيل العتاق والسلاح الفاخر والزي الملوكي"[77] ودخل مراكش معززا بعد أن طرد منها، ونزل بمحله من القصبة، وتسابقت أحواز مراكش بهداياهم، وكذلك قبائل الدير منافسة لعبدة واحمر فعادت مراكش مقرا للخلافة بعد أن أقلم بها المولى محمد بن عبد الله، وشرع في ترميم ما هدم من أسوارها، وخصوصا القصبة التي حصنها وعزلها عن المدينة.

---

70 - نفسه.
71 - الناصري: ج 7 ص 194.
72 - أكنسوس :مذكور، ص 126.
73 - أكنسوس: نفسه، ص 126.
74 - أنطونا: مذكور، ص 42.
75 - الناصري: مذكور، ج 7 ص 195.
76 - أكنسوس: مذكور، ج 1 ص 127.
77 - أكنسوس: نفسه، ج1 ص127.

3- احتفاظ أسفي وعبدة بأهميتها في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله .

لم نقف على إشارات كافية توضح ما آلت إليه عبدة وأسفي بعد رحيل المولى محمد بن عبد الله عنهما، ولكن يبدوا أنه كان يوليهما اهتماما خاصا نظرا للحيوية الإستراتيجية التي كانت لعبدة، باعتبارها ممر يربط بين مراكش وأسفي: ومنفذا أساسيا ووحيدا... لا يفصله عن مراكش سوى 150 كلم... وطرقها تسمح للقوافل بالعبور في مختلف فصول السنة"[78] لذلك لصبحت في عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله المنفذ الرئيسي لاستقبال مبعوثي الدول الأوربية، حيث عن طريقه توجه (الكونت دو برونيون DEBREUGNON) سفير الملك لويس الخامس عشر إلى مراكش بتاريخ 1767م وكان الملكلف بمرافقته آنذاك قائد عبدة" عسيى بن معطوب"[79] الذي صاحبه إلى مراكش وسهل مأموريته، برفقة عدد من جنوده، ولم اعثر على التوضيحات الكافية حوله.

لكن إسناد مأمورية مرافق، من هذا الحجم، تؤكد أنه كان معتمدا لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وكانت أسفي تعرف نشاطا تجاريا، حيث احتكرت بعض الشركات الدانماركية وهي: الشركة الملكية الإفريقية" التي كانت تستحوذ على قسم كبير من النشاط التجاري وقد وصلت 176 سفينة دانماركية، إلى أسفي بين سنتي 1748م و 1755م وكانت تنقل حمولتها من أسفي إلى مرسيليا كما كان يقيم بأسفي أحد التجار الفرنسيين المشهورين وهو المدعو "جان جاك سالفا" الذي كان له اعتبار ومكانة لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان بيته بأسفي مقرا لنزول المبعوث الفرنسي الكونت دوبرينيون[80].

وقد حاول المولى محمد بن عبد الله الرفع من قيمة الواجبات الجمركية على التجارة بأسفي، ولعل هذا ما تسبب في تقلص نشاطها التجاري بعد أن اختفت بعض الشركات التجارية قبل سنة 1789م[81] ومن جهة أخرى فإن عبدة تكون إحدى العصبيات التي اعتمدها السلطان المولى محمد، فقد أشار شونيه إلى وجود العديد من العبيد في خدمة البلاط السلطاني،[82] كما تجب الإشارة إلى أن عبدة تعتبرمدرسة حربية يأتيها الناس لأخذ الرماية والركوب"[83] إذ حافظت على هذه الميزة، ووضعت لذلك قوانين، وهذا ما جعل شونيهChenier ينعت أهل عبدة بأن لهم ميلا واضحا للسلاح"[84] وترتبط هذه الخاصية باعتنائهم الشديد بتربية الخيول، خصوصا وأن عبدة تتوفر على أجود أنواع الخيول التي تتحمل المشاق وتتوفر بأعداد كثيرة ..."[85].

78 - Périgny, (st Maurice) – Au Maroc: Marrakech et les port du sud- Paris 1918 P. 227.

79- Grillon, (Pièrre)- Un chargé d'affaires au Maroc La correspondance du consul Louis Chenier (1767-1782) Paris-1970/p.64.

80 - أنطونا : مذكور، ص 42.

81 - Penz, (Charles)- Journal du consulat général de France au Maroc (1767-1785) casa 1943/P. 3

82 - أنطونا: مذكور، ص 43.

83 - Chenier-Louis- Recherches historiques sur les Maures Tome III – 1787/ P/ 12.

84 - الكانوني: مذكور، ص 176.

85 - شونيه: مذكور، ص 13.

كل هذه المؤهلات جعلت السلطان المولى محمد بن عبد الله يولي اهتماما كبيرا بعبدة، ويستميل أعيانها ورجالاتها، وهكذا أمر سنة 1178هـ-1764م : ...إعفاء الفقهاء والفقراء بقبيلة عبدة من عدم مطالبتهم بالوظائف الموظفة على الناس..."[86].

ومن خلال الإشارات التي دونها شونيه، نستطيع القول أن عبدة كانت مفصولة من ناحية "التسيير الإداري" عن أسفي، حيث أن القائد (عيسى بن معطوب)"كان عاملا على عبدة في حين كان على مدينة أسفي سيدي لوزيني:OZINET" الذي كان بدوره في استقبال الكونت دوبرونيون DEBREGNON[87] ويمكن أن نستشف ذلك من خلال سياسة السلطان المولى محمد ابن عبد الله، الذي قام بإعادة تنظيم القيادات وتنحية المستبدين من العمال والقواد"... حيث قضى على الجميع وأودعهم السجون سنة (1174/1761م) وصادر أموالهم ومنهم من مات بالسجن ومنهم من قتل"[88] وسعى إلى تفتيت بعض القيادات الكبرى، كما حدث بالنسبة إلى دكالة، بعد عزل قائدها محمد بن أحمد الدكالي سنة 1188هـ/1774م"... ولم يترك له إلا أخواله أهل دكالة، وأمر بقبض ما أكلوا من القبائل التي كانوا يتصرفون عليها...[89]

ونفس الشيء حدث لعبدة، فقبل تعيينه للقائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي سنة 1191هـ/1777م يذكر الكانوني أنه"...كان على عبدة قبله اثنتا عشر عاملا"[90] ولم أعثر على أسمائهم. وهذا ما يجعل لاحتمال سياسة تفتيت القيادات من صلب سياسة السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وكان السلطان صارما مع بعض قواده المستبدين، وقد ذكر الضعيف أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله قبض على أحد القواد، لأنه خرج على حد الشريعة وتزوج ثمان عشرة امرأة، وكان له دوار ليس فيه إلا النساء، ولا يدخله من الرجال إلا هو، وكان يأخذ النساء من غير صداق، فقبضه وأودعه السجن[91].

4- تراجع مكانة أسفي وعبدة بعد بناء الصويرة

كونت أسفي لمدة طويلة مركزا تجاريا حيويا، ولكن بمجرد تأسيس مدينة الصويرة، ما بين سنتي(1178-1198هـ/1764-1784م) تحول قسم كبير من نشاطها التجاري إلى الصويرة[92] خصوصا بعد أن شجع السلطان سيدي محمد التجار الأجانب"..وأسقط الأعشار عن تجارة النصارى ترغيبا لهم في رواج تجارتهم من كل صوب"[93] وبذلك استقطبت مدينة الصويرة جل النشاط التجاري، فدب الركود الاقتصادي لكل من أسفي وعبدة. وانتقل مقر الولاية الذي كان بأسفي إلى الصويرة وأسند إلى نظر الوالي المدعو حمدان بن عبد الفضيل بن الكاهية الأسفي النظر في أمر أسفي،[94] وتكون بذلك قد فقدت كل من أسفي وعبدة إشعاعهما السياسي، ومركزهما الاقتصادي.

---

[86] - Caillé,J- La mission du capitain Burel 1808 Paris – 1953/P.66.

[87] - الكانوني: مذكور، ص 75

[88] - كرينيون: مذكور، ص 65.

[89] - الزياني: مذكور، ص 80.

[90] - الكانوني: مذكور، ص 76.

[91] - الضعيف: مذكور، ص 174.

[92] - كرينيون: مذكور، ص 22.

[93] - الصديقي محمد بن سعيد: إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة، مطبعة دار الكتاب- البيضاء (ب.ت) ج1 ص 46.

[94] - الصديقي: مذكور، ص 26.

II- انفراد عبد الرحمان بن ناصر العبدي بقيادة عبدة وآسفي:

1- ظروف تولية عبد الرحمان بن ناصر على عبدة

كانت عبدة، كما سبق الذكر، تحت حكم الوالي على الصويرة، ولا نعرف بالضبط أسماء القواد الذين تم تعيينهم على عبدة آنذاك، وإن كان الكانوني قد أشار إلى أنها موزعة على اثني عشر عاملا[95] دون أن يذكر الكيفية التي تم بها التوزيع، وربما ينسجم ذلك مع السياسة التي نهجها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إزاء القواد، إذ كان يتخوف من سطوتهم واستبدادهم، لذلك حاول إضعافهم عن طريق تفتيت قياداتهم.

وتعد تولية القائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي على عبدة في جمادي الأولى سنة 1191هـ/1777م ، بداية مرحلة جديدة في تاريخ عبدة، إذ جمع تحت قيادته كل القيادات الصغرى السابقة بعد أن " قبض على قوادها" ثم سرحهم وتولى العمل...[96] ثم أضيف إلى قيادته الإشراف على اسفي. وبذلك يكون قد جمع بين آسفي وعبدة.

يعتبر عبد الرحمان بن ناصر العبدي أحد أركان دولة سيدي محمد بن عبد الله، وينسبه الكانوني إلى الجرامنة أحد بطون آل عامر من عبدة، ويذكر أنه ابن أخ القائد علال المخزني في عهد السلطان المولى إسماعيل"[97] ويشير الضعيف إلى أن أمه منبهية من قبيلة المنابهة[98] وكان قبل توليته على عبدة قائدا على تادلا، وكان يطمح بالفوز بقيادة عبدة، وكان ينافسه عليها قائد آخر هو سعيد بن ادرهم العبدي الذي كان يعتبر عبد الرحمان بن ناصر العبدي" حراميا" إذ أن أباه القائد ناصر العبدي كان عقيما[99] وكل ذلك من أجل النيل من مكانته لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وبعد توليته على عبدة بسنتين، عزله السلطان في ربيع الثاني من سنة 1193ه/1779م وولى مكانه القائد ناصر المحياوي الذي كان من قواد السلطان على مراكش وكذلك القائد الحاج محمد بزار الغياثي من آل غياث أحد بطون عبدة[100].

ولا ندري بالضبط ما هي أسباب هذا العزل، إلا أننا نعثر على إشارة لدى الضعيف مفادها، أن السلطان سيدي محمد بعث بمحلة عبدة تحت قيادة عبد الرحمان بن ناصر العبدي، وبعده محلة دكالة تحت قيادة الهاشمي العروسي إلى الدار البيضاء وذلك سنة 1199ه/1786م[101] ومعنى ذلك أن القائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي، إما أنه احتفظ بقيادته وأناب عنه القائدين المذكورين، وأما أنه أعيد تعيينه من جديد على عبدة وآسفي.

وبالفعل فبعد موت السلطان سيدي محمد سنة 1204ه/1790م كان القائد عبد الرحمان العبدي مع العروسي نازلين بوادي كريفلة، حيث تعرضت لهما قبيلة الصباح ونهبت محلتهما،[102] ومعنى ذلك أن القائد كان في مهمة غائبا عن عبدة طوال هذه المدة.

[95] - الكانوني: مذكور، ص 76.
[96] - الكانوني: نفسه مذكور، ص 76.
[97] - الكانوني: آسفي وما إليه، ص 32.
[98] - الضعيف: مذكور، ص 267
[99] - نفسه، ص 260.
[100] - الضعيف: مذكور، ص 267.
[101] - نفسه، ص 260.
[102] - الكانوني: مذكور، ص 199.

2- مبايعة عبد الرحمان بن ناصر العبدي للمولى هشام:

بايعت قبائل عبدة وأهل سوس وغيرهم المولى هشام على يد عبد الرحمان بن ناصر العبدي والحاج الهاشمي العروسي الدكالي وذلك لأن المولى اليزيد كان منشغلا بحصار سبتة. ولما استنفرهم للجهاد خالفوا أمره[103]، فأرسل اليزيد لعبد الرحمان بن ناصر العبدي كتابا حمله أبو القاسم الزياني، يقول الزياني"... ثم توجهت لأسفي، ولما اجتمعت بعبد الرحمان ابن ناصر في موكبه بالقصبة وسلمت عليه ودفعت له المكاتب قال: من أين هذا؟ قلت من السلطان اليزيد، فسبوه وسبوني معه وقاموا للفتك بي، فأجارني منهم وقال: كاتب سيدنا الكبير ولخونا لا يرى منا مكروها، فبتت عنده ومن الغد وجه من يحرسني في الطريق إلى مراكش...".

ولما تأكد المولى اليزيد من قيام الجنوب بمبايعة لخيه المولى هشام، أقلع عن حصار سبتة وتوجه إلى مراكش، فصدوه عن الدخول وحاصرهم حتى دخلها عنوة سنة 1206هـ/1792م. فمكر بأهلها، ثم خرج لمحاربة لخيه المولى هشام، الذي انهزم وفر هاربا ومعه القائد عبد الرحمان العبدي، واستولى المولى اليزيد على كل خزائن لخيه المولى هشام وقبض على نحو خمسة وعشرين راميا من نصارى الصبنيول جاؤوا مع هشام[104].

ولصيب المولى يزيد في المعركة، وسرعان ما وافته المنية، فوصل خبر وفاته لأخيه المولى هشام ولعبد الرحمان العبدي والعروسي الدكالي، فكاتب المولى هشام أهل الرباط وغيرهم بمبايعته، ونجد صدى لهذه البيعة صدى بفاس، وهو ما أورده الفقيه التاودي بن سودة قال: ... بالحق حتى تجتمع كلمة المسلمين ونبعث لأهل الحل والربط... ولأهل مراكش ولأهل دكالة ولولد ابن العروسي ولعبد الرحمان بن ناصر ويقع الاتفاق على إحضار سيدي محمد قاطبة وينظرون من يبايعونه بعد التسليم إما بالقرعة أو بمن تعين وكان أهلا، وإلا فالأحق هو مولانا هشام الذي حارب عليها وقاتل أخاه وهو أيضا بالأرض التي فيها مات السلطان"[105].

لكن اتفق أخيرا على بيعة المولى سليمان بالغرب، وبقي أمر قبائل الحوز مشتبكا من الرباط إلى سوس[106]" فصارت الدولة دولتين والملوك كذلك منهم مولانا هشام بمراكش، ومنهم مولانا سليمان بفاس[107].

وخلفت بيعة المولى سليمان ضجة، حيث قام عبد الرحمان ابن ناصر العبدي يستنفر القبائل ويوزع عليهم الهدايا والمال، وتحالف مع قائد دكالة محمد بن العروسي الدكالي على عدم مبايعة المولى سليمان ومناصرة المولى هشام، لكن أهل مراكش وأحوازها والرحامنة وغيرهم توافدوا على المولى سليمان وقدموا له الطاعة والتمسوا منه مصاحبتهم إلى مراكش لكنه أرجأ ذلك إلى حين استقرار الوضع[108]. فتوجه لهم عبد الرحمان العبدي مع أهل دكالة وعبدة واحمر ومعهم المولى هشام، فنهبوا الأموال والمواشي ودخلوا مراكش، وقام المولى

[103] - نفسه، ص 201.
[104] - الزياني: مذكور، ص 89.
[105] - الضعيف: مذكور، ص 236.
[106] - الضعيف: مذكور، ص 241.
[107] - أكنسوس: مذكور، ص184.
[108] - الضعيف: مذكور، ص 243.

هشام بهدم ما بناه أبوه سيدي محمد، فتشفع له أهل مراكش في عدم الهدم، فقال لهم: "... أن الملوك هكذا تفعل واحد يبني والآخر يهدم..."[109]ولما استقرت قدم المولى هشام بمراكش ولطاعته قبائل الحوز كلها، وكان القائمان بأمره وزيريه ابن ناصر العبدي وهو في غاية الجود وبسط الكف والهاشمي العروسي وهو ذو شوكة بعصبتيه.[110]ولذلك استسلمت لهما كل مناطق الحوز.

وحاول المولى سليمان استمالة ابن ناصر العبدي فكانت مراسلات بينهما، وبعث له مع الشيوخ الوزانيين وبالأخص سيدي على بن احمد الوزاني، لكن ابن ناصر العبدي اعتذر وأرسل هدية للسلطان، وأبى أن ينقاد لطاعته، كما بعث سليمان هدية بدوره، وهي عبارة عن افراك ثمرى رومي بقبة عجيبة[111].

ثم بعث له مرة أخرى مع سيدي علي بن احمد الوزاني يحذره ويحتج بسبب تفريقه كلمة المسلمين، وذلك بتاريخ 21 ربيع الثاني عام 1211ه(1796م)[112]. وكان ابن ناصر العبدي يسعى لكسب المزيد من الأحلاف، فبعث لمولاي سليمان وصهره على أخته، والذي كان واليا على الشاوية وقائما على مرساها، فأغراه بعصيان المولى سليمان، وتمكن فعلا من رده عن طاعته[113] وأصبح ابن ناصر العبدي صاحب النقض والإبرام بنفوذه وكثرة ماله، وكان جوادا بالعطاء وهو صاحب الوجاهة ونفوذ الكلمة، وكان مستوليا على جباية مرسى أسفي، كل ذلك مكنه من فرض سلطته على كل جهات الحوز، حتى أصبح الناس يعتقدون بأن ابن ناصر يريد الخلافة لنفسه، وصاروا يشكون في أنه أحد أبناء المولى عبد الله، لأن أمه كانت جارية عنده[114].

3-استفادة ابن ناصر العبدي من تعامله التجاري مع الأجانب:

لقد تفطن الضعيف إلى دور إسبانيا في هذه المرحلة، وجعلها سببا في الخلاف بين ابن ناصر العبدي والمولى اليزيد، فيذكر أن"... سلمون سفير إسبانيا هو سبب الفتن بين عبد الرحمان العبدي وبين مولانا اليزيد، لأنه قال: لا يغلب المور إلا المور..."[115]وبالفعل كانت لإسبانيا رغبة ملحة في الاستحواذ على بعض الامتيازات التجارية بأسفي، وكاتبهم عبد الرحمان العبدي، وأنعم عليهم ببيع الزرع مقابل إمداده بالعدة والمال[116] ، ووصلته الإمدادات إلى أسفي، وتوطدت علاقته بإسبانيا بعد أن حظيت بإمتيازات تجارية لوسق الحبوب والماشية من أسفي، وأصبح العبدي مستبدا بمدلخيلها التجارية، وبعث آنذاك القنصل الإسباني منويل سلمون برسالة إلى المولى سليمان يخبره فيها "...أن ملك إسبانيا عزم على إعطاء الإذن لمراكب رعيته في التوجه لمرسى أسفي وطيط بسبب قدوم من قدم عليه من تلك الناحية بطلب ذلك"[117]

---

[109]- نفسه، ص 261.
[110]- نفسه، ص 263.
[111]- الناصري: الاستقصا، ج8/ص97.
[112]- الضعيف: مذكور، ص 269.
[113]- نفسه، ص 277
[114]- الناصري: الاستقصا، ج8/ص98-99.
[115]- الضعيف: مذكور، ص 260.
[116]- نفسه، ص 218.
[117]- نفسه، ص 226-230

ونتيجة لذلك تزايد اهتمام التجار الأوروبيين بالشواطئ المغربية الأطلسية، ومنها أسفي، وأصبح بذلك عبد الرحمان العبدي يتمتع بنفوذ قوي، أعطاه سلطة محلية مستقلة عن السلطة المركزية.

وقد لاحظنا نفس الظاهرة في مرحلة سابقة، مما يؤكد أن ظهور بعض القيادات المستقلة، يرتبط ببعض المراسي التي احتكرت التجارة مع الأجانب، واستبد قوادها بالمداخيل التجارية. فالقائد محمد بن العروسي الدكالي ارتبط نفوذه ارتباطا وثيقا باحتكاره لتجارة الحبوب ووسقها للأجانب، واستبداده بمداخيل المراسي الدكالية كطيط والبريجة، ولتشجيع الرواج التجاري أسقط الزكاة والأعشار، ورفع من ثمن الزرع حيث كان يباع في دكالة بسبعة أواق ونصف في حين يباع في الشاوية بأربعة أواق، وكان يلزم الأجانب بذلك الثمن"... وإلا فليدخلوا وسط دكالة ويشترون الزرع لأنفسهم ويكتروا عليه"[118]. وأغرى فلاحي الشاوية بحمل زرعهم إليه، مقابل أن يشتريه منهم للأجانب، وجعل لكل فارس مصاحب للقافلة عشرة مثاقيل، لذلك"...انقلبت إليه الشاوية جناح جرادة وتركوا الدار البيضاء[119].

وبذلك أصبح العروسي أكبر محتكر لتجارة الحبوب، وكان طبيعيا أن يكون ذلك سببا في تدعيم مركزه الاجتماعي والسياسي وأن يسعى للحفاظ على استقلاله من السلطة المركزية.ولعل المولى سليمان كان واعيا بخطورة هذا العامل لذلك سعى إلى تقويض دعائم هذه التجارة بالتضيق عليها، فأرسل إلى جميع" القنصولات الذين ببلده وأعلمهم بأن لا يتوجه أحد إلى تلك الناحية...لأن من بها ليس متقلدا حكما ولا طاعة"[120] وحاصر نشاط السفن أحيانا، بالتعرض لها أثناء خروجها من اسفي أو من طيط محملة بالزرع، في حين كان هو بدوره يمارس وسق الزرع للأجانب، وكانت لسفن التي يغنمها وهي محملة بالزرع، يبيع حمولتها للنصارى[121].

كما سعى إلى تعطيل ميناء أنفا، بعد أن تغلب على المولى عبد المالك بن ادريس"... ونقل تجار أنفا إلى الرباط وأبطل مرساها"[122].

وساعدت هذه الحركة التجارية في تمتين العلاقة بين عبد الرحمان العبدي ودولة إسبانيا، فكانت الهدايا تتبادل بين الطرفين ولتوضيح قيمة هذه الهدايا، نسوق ما ذكره الضعيف حين حديثه، عن بعض محتويات إحدى السفن التي غنمها رؤساء البحر من أهل سلا والرباط، وقدموها للمولى سليمان، يقول: أما السفينة التي خرجت من أسفي فوجدوا فيها سبعة من عتاق الخيل وسبعة نمر أهداهم عبد الرحمان بن ناصر العبدي لسلطان اسبنيول.

ومما زاد من أهمية المداخيل التي استبد بها ابن ناصر العبدي أن إقبال التجار الأوربيين على وسق الزرع من مرسى أسفي، كان متزايدا، وكل محاصيل الحوز، كانت

118- المنصور محمد رسالة جامعية تحت عنوان: Political and social developements in Morocco during the reingn Moulay sulay-man (1792-1822) London 1981 Tome III P105-106.
119- الضعيف: مذكور، ص 267.
120- نفسه مذكور، ص 267.
121- المنصور نفسه، ص 105 -رسالة رقم 13 بتاريخ 23 رجب 1230
122- الضعيف: مذكور، ص 267

تسوق عن طريقه، فلما كانت"... الصابة بمراكش رفعت لأسفي..."[123] أي أن المحصول الزراعي القادم من مراكش كان يسوق إلى مرسى أسفي.

مما يؤكد أن مرسى أسفي، أصبح يكون مركز جذب قوي لتسويق الحبوب إلى الخارج، وهذا طبعا، بسبب إقبال الأوربيين المتزايد على الحبوب، بل أنهم أحيانا كانوا" يخلصون الصابة قبل الدراس"[124] أي كانوا يؤدون ثمنها مسبقا، مما يدل على تزايد الطلب الأوربي على حبوب المنطقة.

ومما لا شك فيه أن انتعاش الرواج التجاري قد أدى لا محالة، إلى بروز فئة اجتماعية كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين فلاحي عبدة وتجار المراسي، ولعلها كانت هي المستفيد الأول من ذلك الانتعاش.

4- عبد الرحمان العبدي يغري المولى هشام بالتملص من بيعة المولى سليمان وكذلك المولى الحسين.

لم يكن المولى هشام يمثل بالنسبة للعبدي إلا وسيلة من وسائل الضغط على المولى سليمان، إذ كان يتخذه حجة للخروج عن طاعته، بدعوى وجود خليفة شرعي مبايع من طرف قبائل الحوز ودكالة وعبدة. لذلك كان يتعصب به كلما اعتزم المولى سليمان النهوض إلى مراكش فينزل بجيوشه على أم الربيع لمنعه، وإذا أحس باشتغاله في تمهيد مملكته بالغرب عاد إلى مقره بأسفي وعبدة وترك المولى هشام" يعبث مع أهل مراكش والبعض من قبائل الحوز "[125] ولم يكن المولى سليمان يجهل هذه الحقيقة، وقد برزت واضحة في إحدى رسائله:"... أما مولاي هشام فليسوا عند أمره، ولا ينصتون لرأيه، وإنما يذكرونه عند إرادتهم قضاء غرض مثل هذا، ليتوصلوا إلى مرادهم من الفساد الذين هم عليه، وفرارا من الأحكام"[126]. وذكر الضعيف أن عبد الرحمان العبدي"...كان يريد هشاما، لأنه كان طوع يديه وعند حجره".

لذلك أحس المولى هشام بأنه ليس إلا لعبة بيده، فقرر عزل نفسه، وسلم الأمر لعبد الرحمان العبدي الذي كان صاحب السلطة الفعلية بكل مناطق الحوز.

حاول عبد الرحمان إعادة اللعبة، مع أحد أبناء سيدي محمد بن عبد الله، وهو المولى الحسين، وذلك بعد تنازل المولى هشام، وسماعه بعزم المولى سليمان النهوض إلى مراكش، فبادر إلى مبايعة المولى الحسين بمحضر قبائل عبدة ودكالة واحمر والشاوية وغيرهم... وذلك يوم عيد الفطر من سنة 1211هـ/1796م. فمده بالمال والعدة والعساكر، وجمع حوله <u>القبائل ما عدا الرحامنة ومراكش وأهل سوس الذين امتنعوا وكاتبوا السلطان مولاي سليمان وأعلموه ببيعة عبدة ودكالة... لأخيه مولاي الحسين"[127].</u>

ولم يكن مولاي الحسين متصفا بنفس الصفة التي كان عليها مولاي هشام، إذ أنه استفاد من تجربة تعامل العبدي مع أخيه، بالإضافة إلى بعض مزاياه الأخرى. وكان طموحا

[123] - الناصري:. الاستقصا، ج 8 ص 100
[124] الضعيف: مذكور، ص 253.
[125] - نفسه مذكور، ص 253.
[126] نفسه مذكور، ص 253.
[127] - نفسه مذكور، ص 283.

لممارسة سلطة فعلية دون غيره، فظهرت بوادر انحرافه عن خطة العبدي، لما أمر باتخاذ الشارات الملوكية، وضرب السكة من الدينار والدرهم باسمه... والكتابة على السيوف "الحسين أمير المؤمنين"[128] فتأكد للعبدي أن مولاي الحسين يطمح لأكثر مما كان لأخيه مولاي هشام، وأنه ليس مجر لعبة، فكتم ذلك وكتب إليه أن يلزم مكانه ولا يصل لموطنه بأسفي، وسيبعث له كل ما أراد من المال والعدة والعسكر، ويعتبر هذا بمثابة إنذار له، كيف لا، وهو بالرغم عنه، كان تحت رحمة العبدي مجردا من كل الإمكانيات والوسائل التي لدى غيره، خصوصا وأن الموقف بالنسبة إليه أصبح أكثر صعوبة، حيث امتنع أهل مراكش والرحامنة وزمران... عن مبايعته، فاضطر لمحاصرة مراكش والتضييق على أهلها حتى ادعنوا لبيعته سنة 1211هـ/1796م. وزاد الموقف تشعبا، بعد بروز اختلافات بين العبدي وحليفه الدكالي (حيث مال منهم لناحية وحرض قومه على الآخر) فاستقل العبدي بعبدة واحمر وزرارة والشبانات والمنابهة وتكنة ومجاط وحربيل ولولاد عامر، و جمع عليه نحو ستة عشر ألفا [129] كما أن الصويرة كانت من جملة النواحي التي إلى نظره ومن حزبه[130]، وكادت الوضعية أن تؤدي إلى اندلاع حرب بينهما، فاشتكى رؤساء دكالة وعبدة إلى المولى سليمان، ولم يستغل الموقف لإضعافها حتى يصفوا له الجو، بل إنه بعث بالفقيه سيدي علي بن أحمد الوزاني للصلح بينهما سنة 1212هـ/1767م[131].

5-انحياز العبدي لطاعة المولى سليمان:

شعر العبدي، بعمق تجربته وإحساسه، أن الجو العام داخل الحوز لم يعد لصالحه، فقرر أن يتراجع خطوة إلى الوراء لكي يحافظ على مركزه، فانحاز لجانب السكينة، وبدأ يراقب مجرى الأحداث دون أن يكون مؤثرا وفاعلا فيها، وهذا ما يتضح من خلال المستجدات التي ظهرت في الحوز، والتطورات التي طرأت على تجارة أسفي، ولا ننسى أن نذكر أن العبدي قد تفطن إلى مضاعفات الحصار الذي أصبح يمارسه المولى سليمان ضد تجارة أسفي، إحدى موارده الأساسية وإلحاح المولى سليمان المستمر على اسبانيا لإبعادها عن أسفي، وتحميلها مسؤولية استمرار وضعية التفرقة إذ "... ان توجيه مراكب التجار لتلك الناحية هو السبب في بقاء أهل الفساد على فسادهم، ولو بقوا مهجورين غير مخالطين لأذعنوا... وأن توجيه التجار لتلك الناحية ما فيه إلا إعانة تلك الشرذمة الخارجة من الجماعة"[132].

كما يتضح من خلال تملصه من اقتراح الهاشمي العروسي لما اعتزم مبايعة مولاي الطيب بن محمد بن عبد الله الذي استخلفه المولى سليمان في البداية على الشاوية ثم فيما بعد على مراكش ونواحيها، فقد أجابه العبدي بقوله: " أنا غير حوزي منكم، وإن أردتم هذا الأمر فاكتبوا بيعتكم وابعثوها لي وأنا لوافقكم"[133]. وكان هذا الموقف يخفي حيلة دبرها العبدي ليوقع بهما معا، وبمجرد توصله ببيعتهم السرية أرسلها بدوره للمولى سليمان"...فاغتاظ

---

[128] - المنصور: مذكور، نفس الرسالة.
[129] - الضعيف: مذكور، ص 283.
[130] - نفسه، ص 283.
[131] - نفسه، ص 299.
[132] - الصديقي، إيقاظ السريرة، ص 52
[133] - الضعيف:. مذكور، سابقا ص 304.

السلطان على أخيه مولاي الطيب وبعث له على أن يرتحل عن مراكش ويأتي إلى مكناس[134].

ولعل هذا التحول في موقف عبد الرحمان يعكس ميله للمولى سليمان حيث كانت رسل المولى سليمان تتوارد عليه في شأن البيعة وجمع كلمة المسلمين[135] كل هذه المعطيات جعلت عبد الرحمان العبدي يقتنع بضرورة الرضوخ لسلطة المولى سليمان ومبايعته، فلما أقدم عليه كاتب السلطان الخاص محمد ابن عثمان المكناسي وجده مريضا، فاعتذر عن القدوم وكتب بيعته للسلطان، وأدى الطاعة، فقبل ظاهر عذره[136].

فلما قرر السلطان الذهاب إلى أسفي سنة 1213هـ/ 1798م أرسل مع صاحبه علي المغرف بفرس هدية لعبد الرحمان العبدي[137] ولما قطع أم الربيع تفشى الوباء في صفوف جيشه، وقدم الضعيف صورة معبرة على ذلك بقوله كأنه "..نهض بجنديين جند من العسكر وجند من الوباء" [138] مما جعل جيشه يتضاءل، وفي الطريق أقدم عليه القائد عياد بن شقرة في جيش الوداية، وقال له: إذا أقدمت عليه فازعجه للمجيء، فإن قدم فأقم أنت بأسفي، وإن امتنع من المجيء فاكتب إلي وأقم هناك حتى أقدم عليك[139].

ولم يأتمن عبد الرحمان العبدي من مجيء السلطان، فجمع حوله نحو ألف من عبدة واحمر وغيرهم، وذهب لملاقاة السلطان في المحفة مريضا، وتلقاه بالموضع المعروف بمائة بير وبير بين عبدة ودكالة[140]، فتأكد السلطان من مرضه كما تأكد هو من صدق قوله بعد أن قدم له الطاعة والولاء، وانتقل معه إلى أسفي، فدخل داره وجلس معه يوما كاملا رغم تثبيط رؤساء جنده له عن الدخول معه، فأهدى للسلطان بنته"فأعطاها السلطان لولده مولاي محمد لأنه كان عند عبد الرحمان العبدي يقرأ"[141] ثم عقد له السلطان من جديد على قبائله وأمره بقبض الواجب منهم، ورحل عنه إلى الصويرة، وفي الطريق بلغه أن العبدي مات مطعونا بالوباء بتاريخ 10 جمادى الثانية عام 1214هـ/1799م.

III - إجراءات السلطان المولى سليمان بعد دخول عبدة وأسفي تحت طاعته:

1- تقليص دور أسفي وعبدة تجاريا وسياسيا:

بعد وفاة العبدي ودخول عبدة وأسفي في الطاعة، أقدم السلطان على اتخاذ إجراءات بغاية تقليص دور أسفي وعبدة، ونقل مركز الثقل التجاري والسياسي إلى الصويرة، وهكذا أقدم على إجراءين:

* الأول منهما، نقل مركز الثقل التجاري إلى الصويرة عوض أسفي، بعدما تأكد السلطان من أن استمرار القوة والنفوذ الذين كان لعبد الرحمان العبدي وباقي أعيان عبدة، ثم تجار أسفي، كان نتيجة لاحتكارهم النشاط التجاري واستفادتهم من مداخيله "... فلو بقي

---

[134] - المنصور: مذكور، رسالة رقم 13.
[135] الضعيف: مذكور، ص 305.
[136] نفسه، ص 305.
[137] - الكانوني: مذكور، ص 85.
[138] - الناصري، الاستقصا، ج 8 ص 101-102
[139] - الضعيف: مذكور، سابقا، ص 315
[140] نفسه مذكور سابقا، ص 315.
[141] - الناصري، الاستقصا، ج 8 ص 105.

أولئك القوم من غير أن يحصل لهم من التجارة لتفرق عليهم من يتعصبون به، ويذعنون ضرورة، وربما يسلمهم من معهم باليد...[142] لذلك أقدم المولى سليمان على هذ الإجراء الذي ترتبت عنه، مضاعفات على مستوى أعيان عبدة وتجار أسفي. فقد احتج التجار الأوربيون على ذلك، واعتبروه بمثابة طرد لهم من أسفي، مما جعل السلطان يكاتب قناصل الدول الأوربية لطمأنتهم والتأكيد لهم، بأن "... طرد التجار من أسفي كذب زور، بل أسفي بلدة من بلادنا، ومن بها من التجار في ذمتنا وعارنا"[143] ويتشبث السلطان بحقه وشرعيته في اتخاذ القرار المناسب بما يلائم المصلحة العامة للبلاد، وحقه في ممارسة السيادة الوطنية ، ولا دخل لأي أجنبي في ذلك لهذا اعتبر أن "... تعمير هذه المرسى وإبطال هذه في بلادنا، مما لا دخل لأحد فيه ولا كلام "[144] وفعلا كان قرار المولى سليمان حاسما، إذ أصدر أمره إلى كل التجار الأجانب المقيمين" ... بأسفي وتيط ... بقصد التجارة أو جمع أمتعتهم، وأن يرحلوا من غير إزعاج ولا سبيل إلى المقام بأسفي و تيط، ولا تروا إن شاء الله منا ضررا" [145] وبذلك يكون السلطان قد عطل مرسى أسفي، وحكم على الوسطاء والأعيان المستفيدين من التعامل التجاري بالإفلاس، مما تتولد عنه مضاعفات واضطرابات ظلت أصداؤها تتردد بكل من أسفي وعبدة.

* وثانيهما، إجراء سياسي لإعادة تنظيم قيادة عبدة وإسناد أمرها لعامل الصويرة، وذلك بسبب ظروف عدم الاستقرار التي عرفتها عبدة.

فبعد تعيين ولد عبد الرحمان بن ناصر العبدي سنة 1212هـ/1799م، قامت عبدة ضده، حيث كانت" ... خاسرة مع عاملها محمد ولد عبد الرحمان بن ناصر العبدي ... وكان السلطان قد ألزمهم ولد عبد الرحمان وقال لهم : لا يكون عليهم إلا هو فاعصوصبوا عليه،[146]، ودب الخلاف بين أعيان عبدة والقائد المحلي فخرجوا عن طاعته.

وحاول السلطان الخروج إلى عبدة، فتسامع أعيانها بقدومه إلى مراكش عن طريق دكالة، وظنوا أنه قادم عليهم، فجمعوا له هدية قدرها سبعة قناطر فضة، ودفعوا للقائد ولد عبد الرحمان، فلما لم يمر بهم السلطان، اجتمعوا وطلبوا منه إرجاعها، لكنه رفض بدعوى أنها هدية للسلطان، والهدية لا ترد، فأخذوها منه بالقوة، وهموا بقتله لولا أنه فر بنفسه، واحترم بضريح الشيخ أبي محمد صالح.

وتختلف الروايات حول الكيفية التي تدخل بها السلطان لفك الخلاف بين عبدة والقائد ولد عبد الرحمان بن ناصر، فقد ذكر أكنسوس أن السلطان بعث أحد أشياخ الزاوية الوزانية، وهو سيدي علي بن أحمد الوزاني للتوسط بين القائد وقبيلته، وعقد الصلح بينهما. على حين ذكر الضعيف أن السلطان أمر بقبضه، وإرسال حمية من عبيد مكناس لتقوم بهذه المامورية، وذلك سنة 1219هـ/1804م وتوجيهه إلى سجن فاس، وقال له السلطان: لا تخرج حتى تحفظ مختصر خليل[147].

[142] ـ نفسه، ج 8 / ص 105
[143] ـ الضعيف: مذكور، ص 315.
[144] ـ المنصور: مذكور، رسالة رقم 13
[145]- Fumey, (Eugen) Choix de correspondances Marocaines Paris maison-neuve-1900/P 17/ Lettre vi.
[146] ـ فومي: نفس الرسالة رقم 6، الموجهة من المولى سليمان إلى قنصول فرنسا أنطوني كايك كتبها حمدون بن الحاج بتاريخ 7 جمادى الأولى عام 1214.
[147] ـ نفسه، نفس الرسالة رقم 6.

وربما قد يكون هذا الاعتقال فيه نوع من التأديب على اعتبار أن ولد عبد الرحمان لم يكن يحسن تطبيق الأحكام الشرعية لجهله بقواعدها، لذلك أمره السلطان بحفظ مختصر خليل كمعين له على الإلمام بجانب الأصول الشرعية، ولماذا هذا الاحتمال؟ لأن الضعيف يعود من جديد، فيذكر أن السلطان لما دخل مراكش بتاريخ 1224هـ/1809م، أمر بالقبض على ولد عبد لرحمان قائد عبدة، لأنه كان سيء السيرة، ومعنى هذا أن محمد بن عبد الرحمان العبدي قد أعيد إلى قيادته، ولم يتم عزله النهائي إلا سنة 1224هـ/1809م، وعين مكانه القائد محمد بن الطاهر الشهلاوي العبدي وهو من الشهالة إحدى بطون الربيعة من قبائل عبدة، ولا نعرف الكثير عن هذا القائد إلا إشارات قليلة ومتفرقة.

فقد ذكر الضعيف أن المحال التي حلت برباط الفتح كان من بينها"... عامل الصويرة محمد بن عبد الصادق الشقيري ومحمد بن الطاهر العبدي عامل عبدة"[148].

كما يذكر الكانوني: أنه كان جائرا وظالما، وأنه استخلف أخاه عامرا المدعو عمر على عبدة، وإن السلطان لما تحقق من جوره أمر بعزله واعتقاله بتاريخ 15 جمادى الثانية سنة 1228//هـ/1813م[149] ولما تأكد السلطان من عدم استقرار الحالة داخل عبدة بعث لرؤسائها، وكان آنذاك بضريح أبيه برباط الفتح فقال لهم " ... إنني كبرت عليكم فلان وهو القائد محمد بن الشهداني العبدي فإن أصلحتم فالله يصلحكم، وإن أفسدتم فالله يفسدكم، وها أنا تبرأت منكم وها أنتم تسمعون ولبي يسمع وأنا أتبعكم حيثما كنتم، ثم خرج " [150] فكان هذا الخطاب بمثابة إنذار لهم وتبرئة لذمته.

2- إسناد قيادة عبدة وأسفي إلى نظر عامل الصويرة محمد بن عبد الصادق المسكيني:

تلا ذلك إجراء آخر يتعلق بإسناد مسؤولية مراقبة عبدة إلى محمد بن عبد الصادق، حيث أصبحت عبدة تحت نظره في نفس التاريخ 27 جمادى الثانية سنة 1228هـ/1813م[151].

فمن هو محمد بن عبد الصادق البخاري المسكيني؟

كان عبد الصادق في البداية أحد عيون المولى سليمان على مدينة الصويرة، وقام بدور أساسي لإدخالها في طاعته، حيث طرد قائدها عبد المالك بن بيهي سنة 1211هـ/1796م، وولاه السلطان عليها ثم أضاف له بلاد الشياظمة، ثم فيما بعد عبدة ودكالة، وبذلك أصبحت عبدة تحت ولاية العامل محمد بن عبد الصادق، الذي أصبح نفوذه يمتد على جهات واسعة، ولعل هذا الإجراء في حد ذاته، يعتبر تقليلا من أهمية قيادة عبدة على المستوى السياسي، بعدما كان نفوذها يمتد إلى أبعد من الصويرة في عهد عبد الرحمان العبدي، واستمرت ولاية محمد بن عبد الصادق مدة تقرب من العشرين سنة، وفي سنة 1230هـ/ 1814م بلغ السلطان أن العامل ساءت سيرته، وربما أغراه طول مداه، فكثرت الشكاية به، وقامت عليه الشياظمة، وهددوه بالهجوم عليه بالصويرة[152] . كما قامت عليه

---

[148] - الضعيف: مذكور، ص 330.
[149] - الكانوني: مذكور، ص 91و 331و332.
[150] - الضعيف: مذكور، ص 356.
[151] الكانوني: مذكور، ص 91
[152] - الصديقي: إيقاظ السريرة، ص 55.

قبيلة عبدة، وحاصرته بأسفي عند زوال يوم الأربعاء 23 جمادى الأولى سنة 1230هـ/1814م، وأقفلت أبواب أسفي، ونتيجة لهذا الوضع وجه السلطان عامله على مراكش عمر بوستة إلى عبدة، بعد أن استعمله عليها، فورد على اسفي عند زوال يوم السبت 16 رجب من نفس السنة[153]، وعزل محمد بن عبد الصادق وأرسله مكبلا إلى فاس في " كبل رقيق ليس فيه أربعة أواق من الحديد "[154].

3- موقف السلطان من قيام عبدة ضد محمد بن عبد الصادق

لا شك أن الوضع داخل عبدة كان محفوفا بالغموض، وهذا ما فاجأ السلطان المولى سليمان حين بلغه قيام عبدة ضد ممثله محمد بن عبد الصادق"... وهذه المدة وأنهم والناس أجمعين ما شاع عند أحد ولا ذاع ضرر ابن عبد الصادق لهم ولا قامت القبيلة كلها لضرر عام فاش"[155].

وأدى قيامهم عليه، إلى ظهور أعمال النهب وإفساد الجنان والزرع بأحواز أسفي، وأغلقت أبواب المدينة لمدة تزيد عن الشهرين،[156] وكان وراء هذه الانتفاضة محرضون" ... وإنما سفيه جمع سفهاء كلهم مباحون المال والدور وصار يدور على صلحاء القبيلة وذوي الأغراض والثروة ويجبرونهم على القيام بالفساد"[157] مما جعل الانتفاضة تتخذ صبغة عنيفة ترغم السلطان على عزل وصيفه محمد بن عبد الصادق، وهذا ما عابه على قبيلة عبدة، واعتبره مساسا بأحكام الشرع وكتب لهم يقول : "... وهب أن عبد الصادق ظلمهم، فالشرع بين، ومن لم يرضاه كافر، ومن ظلمهم لا يظلم، ومن جار عليه عامله لا يحل له أن يحارب ولا أن يتضرر من العامل... وأما إن كان كل عامل أراد تنفيذ الأحكام الشرعية وجريان الحدود الذاتية على من وجبت عليه، يقوم سفيه محارب باغ عليه، ويجبر القبيلة على الفساد، ما بقيت ولاية ثابتة لأحد يراقب الله ويريد الحق، وما بقيت أحكام الشرع تجري على أحد وصار العزل والولاية بيد الفساق لا بيد السلطان[158].

ورغم أن السلطان المولى سليمان كانت سياسته تعتمد على عزل العمال والقواد إذا كثرت الشكاية بهم لأنهم في نظره محمولون على الظلم والطغيان ولا يحتاج في إثبات ظلمهم إلى بينة لا سيما إن طالت ولايتهم، إلا أنه تغطى في أواخر حياته إلى أن هذا النهج السياسي لا يستقيم معه الحكم للحكام على الرعية، ويحصل بسببه الخلل وانحلال الأمور، فكان الضرر الناشئ عن تبديل العمال بأدنى سبب أقبح وأشد من الضرر الناشئ عن الصبر على ظلم العامل[159] لذلك ألح السلطان على عامله القائد عمر بوستة بمطالبة عبدة بالحساب وإثبات البينة" ... كم قبض منهم عبد الصادق من المال من غير حق وكم قتل من نفس بغير حق لتكون لنا الحجة على العمال في عزلهم"[160]. ونستشف من خلال ذلك أن السلطان لم يكن

[153] ـ الكانوني: مذكور، ص 91.
[154] ـ الضعيف: مذكور، ص 394.
[155] ـ المنصور: مذكور، رسالة رقم 13/ 105- 106.
[156] ـ الكانوني: مذكور، ص 91.
[157] ـ المنصور: مذكور، نفس الرسالة.
[158] ـ نفسه مذكور، نفس الرسالة.
[159] ـ أكنسوس: الجيش، ج 2 /ص 56.
[160] ـ المنصور: مذكور، نفس الرسالة.

قتنعا بعزل وصيفه ابن عبد الصادق، بل كان مضطرا إلى ذلك لتسكين الوضع، وتهدئة الأحوال.

ولم يطل مقام العامل عمر بوستة بعبدة كثيرا، إذ بمجرد تسكين الوضع، سافر للقاء السلطان بالغرب وذلك بتاريخ 16 رمضان عام 1230هـ/1814م.

ومع ذلك، فقد ظلت عبدة في حالة من لاضطراب استدعت من السلطان ضرورة التعجيل بإصلاح الحال، وهكذا بعد وصوله إلى مراكش تلقت له القبائل ومنهم عبدة، فوبخهم وهددهم ثم سمح لهم وذعرهم على ما فعلوا، فقالوا: نحن تائبون لله، الله ينصرك، ما فعل هذا إلا السفهاء، ونحن طاعة، ثم رحل من مراكش وقصد عبدة"... فتلقوه بالصبيان، ووظف عليهم المال ونحو ألف من الخيل بسروجها"[161].

كما قام بإجراء تنظيمي لعزل قيادة عبدة عن أسفي، فعين على أسفي القائد محمد بن الكاهية، وعلى عبدة القائد حمان ابن أحمد الجرموني[162].

وبقيت أحوال عبدة وأسفي خلال المدة الأخيرة من عهد السلطان المولى سليمان مضطربة، وتفيد بعض الإشارات أنها عرفت انقساما بين طائفتين:

- أتباع القائد الحاج حمان بن أحمد الجرموني وخليفته باسفي الحاج عبد الله الشقوري.

- أتباع القائد ابن العربي عمران[163].

فكان بين هاتين الطائفتين صراعات وتنازع على الرياسة، وكل طائفة منهما، تتولى زمام الأحكام مما يدل على استمرار حالة الاضطراب داخل عبدة وآسفي، وغياب سلطة مركزية رادعة إلى حين وفاة السلطان المولى سليمان سنة 1238هـ/1822م.

[161] - الضعيف: مذكور، ص 387.
[162] - الكانوني: مذكور، ص 91.
[163] - نفسه، ص 93.

الباب الثاني

عيسى بن عمر العبدي
قائدا على قبيلة البحاترة
(فترة القيادة الصغرى: 1879-1896)

الفصل الثالث
انفصال البحاترة عن باقي قبائل عبدة
واستئثار أسرة عيسى بن عمر بقيادتها

I– ظهور البحاترة باعتبارها تجمعا قبليا قويا داخل عبدة:

يعتبر ظهور البحاترة مؤشرا على بروز تحولات داخل مكونات قبائل عبدة، فبفعل مؤهلاتها الطبيعية والبشرية، أصبحت مرشحة لقيادة قبائل عبدة.

فما هي الخلفيات المتحكمة في انقسام عبدة؟ وكيف ظهرت قبيلة البحاترة تجمعا قويا؟

1-قيام البحاترة ضد قائدها أدى إلى انفصالها عن باقي قبائل عبدة.

ظلت قبائل عبدة منصهرة داخل مركزية واحدة إلى حين وفاة القائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي، وبعده ظهرت بوادر الانقسام والتفكك، مما يعبر على بروز تحولات داخل مكوناتها وتفكك روابطها.

فبعد موت المولى سليمان، وتولية المولى عبد الرحمان ابن هشام سنة 1238 هـ/ 1822م، وفدت عليه قبائل الحوز لما كان برباط الفتح، ومن بينهم أعيان أسفي وعبدة، وكان السلطان على علم باستمرار التنازع على الرياسة بين القائد حمان ابن الجرموني، والقائد القاضي العربي عمران وما نتج عن ذلك من فساد الأحوال، فحاول السلطان استئصال أسباب هذا التنازع، فقتل أربعة من أعيان عبدة لتورطهم في التنازع، كما أبعد رؤساء الفتنة عن أسفي، وعزل القائد القاضي العربي عمران وولى مكانه لقضاء أسفي الجيلالي بن القاضي محمد بوخريص، واستعمل على عبدة الحاج حمان الجرموني سنة 1238هـ/1822م[164]، وهو من الجرامنة، نسبة إلى جرمون بن عيسى من قبيلة سفيان

[164] - الكانوني محمد بن أحمد العبدي، علائق أسفي ونواحيها بملوك المغرب - مخطوط بحوزة الأستاذ حامد التريكي. الصفحة 95

العربية، التي استوطنت إحدى بطون قبيلة العامر من قبائل عبدة وإليها ينتسب القائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي.

ولا ندري بالضبط، ما هي حدود إيالة القائد الحاج حمان الجرموني؟ إلا أننا نعثر على إشارات تؤكد أن عبدة كانت مستقلة عن أسفي، حيث كان على أسفي أنذاك محمد بن عزوز الأسفي،[165] وأنه في سنة 1260هـ/ 1844م لما تسامع أهل أسفي بقصف الصويرة، خامرهم الفزع وخرجوا إلى البادية، فكان القائد محمد بن عزوز الأسفي يمنع الناس من الخروج ويعمل على إعادة السكينة والأمن إلى المدينة،[166] وهذا دليل على أن ولاية الحاج حمان الجرموني، كانت مقتصرة بلا شك على بعض قبائل عبدة.

وكان للحاج حمان الجرموني خلفاء على بعض قبائل عبدة، منهم محمد بن الغنيمي[167] خليفة له على قبيلة البحاترة، وكانت سيرته حسنة مع القبيلة.

وبعد موت القائد الحاج حمان تولى ابنه فضول بن حمان سنة 1261هـ/1845م،[168] وكان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى انقسام قبائل عبدة، مما حدا بالقائد فضول ابن حمان العبدي إلى جمع إخوانه الجرامنة من قبيلة العامر حوله، فوقعت منازعات وحروب بين القبيلتين، أثرت على كل من عبدة وأسفي، فحاول عامل أسفي محمد ابن عزوز التدخل للصلح بين القبيلتين، لكن بدون جدوى، ولما استفحل الأمر، كتب القائد فضول بن حمان للخليفة السلطاني بمراكش المولى محمد بن عبد الرحمان، الذي جهز جيشا، ونزل به على عبدة، ولما سمع البحاترة بذلك، انحازوا للبحر شمال أسفي، وتحصنوا بالكهوف.[169] فحاول الخليفة المولى محمد بن عبد الرحمان بواسطة الشرفاء الغنيميين أن ينعى عليهم سوء فطهم ويأمرهم بالرجوع إلى الطاعة، لكن البحاترة ازدادوا نفورا، وتحصنوا بالكهوف على الساحل، فتقدم إليهم الخليفة، ودارت الحرب بيهم ، وقاوموا بشدة، وكان فضول بن حمان قد أخذته الغيرة من أعمال السبي والفتك الذي مارسه الجيش، فأوعز إلى إخوانه الذين في طاعته بإعانة البحاترة,ولما رأوا منه ذلك اذعنوا للطاعة، فطلب من الخليفة المولى محمد بن عبد الرحمان رد السبي، فردهم وكساهم، وخمدت فتنتهم[170]، ودخلت قبائل عبدة في طاعته.

لكن الخليفة المولى محمد، حسم المشكل عن طريق إعادة ترتيب أوضاع قبائل عبدة، حيث قسمها إلى ثلاث مجموعات قيادية، مما ساهم في تكثيف الوجود المخزني داخل عبدة.

2) تقسيم قبائل عبدة ودلالته:

قبائل عبدة		
قبيلة البحاترة	قبيلة الربيعة	قبيلة العامر
- الثمرة	- الشهالة	- الجرمنة
- أولاد زيد	- سحيم	- المويسات

[165] - ابن زيدان عبد الرحمان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط 1: 1933/1352. ج 5/ص 228.
[166] الكانوني: مذكور، ص 97.
[167] - محمد بن الغنيمي هو ابن القائد محمد الغنيمي العبدي ذكر أكنسوس في الجيش، ص 183-184 أنه كان من قواد المولى اليزيد ثم المولى سليمان وكان معروفا بشدته وغلظته اعتقله سنة 1209هـ 1793.
[168] - الكانوني: جواهر الكمال في تراجم الرجال البيضاء 1356ص111.
[169] -الكانوني: علائق أسفي، ص 97.
[170] -نفسه علائق أسفي، ص 98.

- الغياث	- الإضالعة	- الحسين
- أولاد سليمان	- البخاتي	
- أولاد بركة		
- الجحوش		
- الزع		

خريطة القبائل المكونة لعبدة وأفخادها ص 89 من الفصل :

أ- قبيلة البحاترة: تمتد على طول الشريط الساحلي من الشمال إلى الجنوب، وتحيط بآسفي، إذ تعتبر البحاترة أحوازا لها، مساحتها تغطي حوالي نصف مساحة عبدة، وهي بذلك أكبر قبائل عبدة مساحة، وتتكون من ثمانية فروع أو بطون أو أفخاد[171] لذلك فهي قوية بمؤهلاتها البشرية، ومرشحة لرئاسة باقي قبائل عبدة، لذلك رفضت تولية فضول بن حمان الجرموني.

وكانت الرئاسة فيهم لفرع الثمرة، الذي ينتسب إليه أول قائد على قبيلة البحاترة، وهو أحمد بن عيسى الثمري.

ب- قبيلة الربيعة: في القسم الشمالي الشرقي الداخلي من عبدة، تمتاز بتربتها الخصبة "وأحسن تراب عبدة الربيعة" [172]، وتضم أربعة فروع[173]، وكانت الرئاسة فيهم لفرع الشهالة بتعيين القائد عبد السلام بن حمان الشهالي.

ج- قبيلة العامر: تمتد على طول الجنوب الشرقي الداخلي من عبدة، وتمتد على ربع مساحة عبدة، وإليها كانت رئاسة قبائل عبدة منذ استقرار القبائل العربية من بني هلال بالمنطقة. حيث كانت أسرة أولاد جرمون بن عيسى تتصدر الرئاسة، وإليهم ينتسب عبد الرحمان بن ناصر العبدي والحاج حمان الجرموني... وتتكون القبيلة من ثلاثة فروع[174] واحتفظ الجرامنة برئاسة القبيلة في شخص قائدهم فضول ولد حمان الجرموني.

- فما هي دلالة هذا التقسيم؟

هذا التقسيم الذي عرفته عبدة، على يد الخليفة المولى محمد بن عبد الرحمان، يطرح مجموعة من القضايا والتساؤلات حول المستندات أو الخلفيات التي تحكمت فيه.

* فهل يمكن اعتباره دليلا على انفجار المكونات التي كانت تجمع قبائل عبدة، بعد ظهور معطيات جديدة حتمت إعادة ترتيب علاقاتها؟

* أم هو مؤشر لانتزاع الرئاسة التي ظلت محتكرة من طرف أسرة أولاد جرمون من قبيلة العامر لمدة طويلة على كل قبائل عبدة، حيث كانت الرئاسة فيهم منذ استقرار القبائل العربية من بني هلال بالمنطقة، وإليهم ينتسب عبد الرحمان بن ناصر العبدي وولده محمد بن عبد الرحمان، والحاج حمان الجرموني وابنه فضول بن حمان.

[171]- الصبيحي أحمد السلاوي: باكورة الزبدة في تاريخ أسفي وعبدة، م الخزانة العامة رقم 1503 د/ص 40. وكذلك الكانوني: أسفي وما إليه، ص 21 – لكنه لم يذكر إلا سبعة منهم.

[172]- الكانوني: أسفي وما إليه قديما وحديثا (ب.ت)، ص 170.

[173]- الصبيحي، باكورة الزبدة ص 40 وكذلك الكانوني أسفي وما إليه، ص 31.

[174]- باكورة الزبدة، ص 40 و الكانوني، ص 32

* وبذلك نقول أن قيام البحاثرة ضد فضول بن حمان الجرموني هو تعبير عن ظهور منافسة من طرف أسر وأعيان من فروع قبائل أخرى من أهمها قبيلة البحاثرة.

*إن البحاثرة بفعل موقعها ومؤهلاتها الطبيعية والبشرية أصبحت مرشحة، بلا شك لقيادة عبدة، أو على الأقل الاستقلال بإمكانياتها، تحت إشراف قائد ينتمي إلى نفس القبيلة.

- وما مدى استفادة المخزن المركزي من هذا التقسيم ؟

لعل هذا التنافس على السلطة بين قبائل عبدة، قدم للسلطة المركزية إمكانية التدخل للفصل وتفكيك قياد عبدة، ليس على اعتبار أن هذا التقسيم مجرد قرار إداري خارج عن إرادة المخزن وسياسته، بل من المعتقد أنه كان يستجيب لبعض طموحاته في تكسير القيادات الكبرى وتفكيكها، حتى يسهل التحكم فيها، عن طريق تكثيف الحضور المخزني بها، وذلك باعتبار أن هذه القيادات إحدى المؤسسات المخزنية المحلية، التي تتزرع في بنية المخزن المغربي ويعتمدها أساسا في تسيير الدولة.

فالتقسيم إذن جاء استجابة للطرفين معا، وفي ظروف تاريخية، تميزت بضرورة تكثيف الوجود المخزني عن طريق الإكثار من القيادات داخل القبائل حتى يمكن ضبط سيرها والتحكم فيها.

<u>3) قيادتا الربيعة والعامر:</u>

بعد تنحية القائد فضول بن حمان، خلفه أخوه عبد السلام بن حمان على قبيلتي الربيعة والعامر، ولا ندري متى تمت توليته، إلا أننا نعثر على بعض الإشارات تبرر مكانته لدى السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان، حيث يقول المشرفي"... وقبيلة عبدة ولاتها متعددة... وفيها العمال ذوو العقول الراجحة وأكثر قوادها اليوم عقلا ونجدة وحزما وضبطا القائد بن حمان وهو الذي بعثه المولى المنصور رئيسا على حملة ولده الخليفة مولانا الحسن يوم وجهه للقطر السوسي[175]. كما أن الرسائل المخزنية تشير إلى أمر السلطان" بمراعاة القائد عبد السلام بن حمان والاعتناء به " [176] ومساعدته في الاستعانة بأحد إخوانه في الخدمة بدل خليفته الذي خرج عن إذنه ومشورته، وحذر السلطان" خليفة ابن حمان العبدي... من عاقبة مخالفته للعامل المذكور، وأمره بأن يلزم معه آداب الخليفة..."[177].

وفي سنة 1285هـ/1868م عزله السلطان عن القيادة، وأمر باعتقاله لما كان بدار المخزن لتقديم التهنئة بمناسبة العيد"... وبقي بذمته مال له بال قبضه من إيالته..."[178] وهذا المال هو عبارة عن الواجبات المخزنية التي أخذها القائد من قبيلته دفعة واحدة حسب السنوات 1284 و 1285ه/ 1867 و1868 والتي قدر مبلغها بنحو خمسة وعشرين ألف مثقال وأخذها لحسابه الخاص[179] لذلك قام المخزن بمصادرة أملاكه وإحصاء متروكه.

175- المشرفي العربي بن علي المعسكري: الحسام المشرفي في الرد على أكنسوس المراكشي. م.خ.ع/2276 ك ص 115 و306.

176- كناش بيان مجمل الرسائل الصادرة عن السلطان محمد ابن عبد الرحمان (1279-1290) خ.ح.ر. رقم 47 رسالة رقم: 620 بتاريخ 13 رمضان عام 1281.

177- كناش 47 خ.ح.ر. رسالة بتاريخ 5 ربيع الثاني عام 1281.

178- نفس الكناشة خ.ح. ر. رسالة بتاريخ 24 شوال عام 1285.

179 - CHABI, Mustapha- quelques grandes familles du Makhzen Marocain au XIXè siècle d'après ben zidane Memoire pour le D.E.S.Rabat / 1973.

أنظر الرسالة المترجمة من العربية إلى الفرنسية ص 65 و67 وهي بتاريخ 4 يونيو 1861.

وطلب السلطان من قواد عبدة واحمر، أن يشيروا عليه بمن يولي مكانه، فرشحوا لذلك علال بن الطاهر الشهلاوي ابن عم عبد السلام بن حمان وخليفته، لكن السلطان أبدى تحفظا في بادئ الأمر من ولاية أقارب الحاج حمان " لاستحالة أمرهم على ما خالفوا به سيرة أسلافهم..."[180].

<u>تولية علال بن الطاهر الشهلاوي:</u> رغم تحفظ السلطان فقد ولاه سنة 1285 هـ / 1868م على قبيلة الربيعة، فهو ينتمي إلى الشهلة إحدى فروعها، وكان ترشيحه للقيادة بناءً على ما كان يتصف به من حنكة وتجربة اكتسبها في خدمة المخزن[181].

هناك إشارات تبرز أنه لم يكن في مستوى الثراء المطلوب لممارسة وظيفة القيادة، فقد طالب من المخزن منذ بداية توليه بنقل سكناه لدار القائد المعزول، مما جعل المخزن المركزي يشير عليه بالاكتفاء بدار لقضاء حاجته[182] كما طالب بأخذ شيء من بيت المال لتأدية ما وظف عليه، فأمره السلطان بأخذه من التجار والأشياخ الذين خاضوا مع القائد المعزول وأقاربه، وأن يترك سبيل عموم القبيلة دون الأخذ منهم، لأنهم غير مطالبين بذلك[183] ولأنهم أدوا الواجبات الموظفة عليهم للقائد المعزول عبد السلام ابن حمان، ولا يجب إلزامهم بذلك مرة أخرى، لأنه ليس شرعا، [184]وبما أن علال بن الطاهر الشهلاوي كان عاجزا عن استرجاع الأموال التي أخذها عبد السلام بن حمان من القبيلة، فقد استغنى المخزن المركزي عنه، وبحث عن مرشح آخر، بإمكانه أن يقوم بتسديد هذه المبالغ مقابل تسميته قائدا، فعين بدله القائد أحمد بن العياشي العبدي سنة 1286هـ/1869م فكان أحسن القواد سيرة وأبعدهم صيتا وأكثرهم محبة في العلم وأهله... وكان يعيش بداره الحاج سالم العبدي الذي اعتمده "لويس أرنو" (Louis ARNAUD) في كتابه " المغرب إبان المحل " حيث كان أبوه عبدا بوخاريا، اشتغل مع السلطانين المولى سليمان والمولى عبد الرحمان، ثم انتقل للخدمة بدار القائد ورافقه ثلاث مرات إلى القصر السلطاني.

وبعد تولية السلطان المولى الحسن بعث أحمد بن العياشي بيعة قبيلته بتاريخ 20 رجب 1290 هـ/1873م يذكر فيها أن " جميع إخواننا إيالتنا الأشياخ والأعيان وغيرهم لأننا خدامكم خلفا عن سلف وقد تكلفنا لسيدنا بما عسى أن يصدر منهم فليكن سيدنا مطمئن البال من قبلهم ومن رام شيئا مكروها فنحن له بقبيلتنا ". [185]

وتسبب القائد في أواخر حياته سنة 1294هـ/1877م في نكبة أحد أعيان قبيلته، وهو الحاج بن الثمار العامري الذي كان من رجال الثروة والفلاحة... وانقلبت عليه الأحوال بعد أن قام قائد البحاترة محمد بن عمر البحتري بشراء ولايته سنة 1295هـ/1878م وكان ذلك سببا في نكبته ومصادرة أمواله، فمات كمدا في نفس السنة [186].

---

[180] - كناش 47، رسالة بتاريخ 4 القعدة 1285.
[181] - نفسه/ نفس الرسالة
[182] نفسه رسالة بتاريخ 6 قعدة 1285.
[183] - نفسه نفس الرسالة
[184] - الشابي مصطفى، مذكور رسالة من الخليفة المولى الحسن إلى القائد محمد بن عمر بتاريخ 4 يونيو 1869.
[185] - دورية الوثائق الملكية: ج 3/ ص 44-45.
[186] - الكانوني، جواهر الكمال، القسم الثاني، ص 34.

II- استئثار أسرة عيسى بن عمر بقيادة البحاترة (1847-1879).

ترتبط قيادة البحاترة بأسرة عيسى بن عمر العبدي، فهم أول من استأثر بقيادتها، التي توالت في عدد من أفرادها، طوال فترة ما قبل الحماية. وكان لهم دور كبير على مجريات الأحداث المحلية، ليس فقط داخل قيادة البحاترة، بل امتد ليشمل كل قبائل عبدة.

ولعل دراسة نموذج لقيادة محلية، يساعد على استشفاف بعض الجوانب المتصلة بالمؤسسة القائدية. باعتبارها مسئولة عن ممارسة السلطة المخزنية المحلية داخل المجتمع القروي، وتمثل شكلا من أشكال الإدارة والتسيير في انسجام مع بنيات المجتمع المغربي.

وسأقتصر في هذا القسم على تتبع مراحل تطور قيادة البحاترة قبل ظهور القائد عيسى بن عمر.

1-القائد أحمد بن عيسى أول قائد على قبيلة البحاترة (1847-1854).

لا نعرف الكثير عن أصل هذا القائد ولا عن أسرته، إلا أن مخزون الذاكرة الشعبية لدى بعض أفراد الأسرة، لازال يحتفظ ببعض المعلومات الباهتة حول ذلك، حيث يرجع أصل هذه الأسرة إلى أعراب الساقية الحمراء،[187]، وكان استقرار الأسرة أول مرة بالثمرة، وهي إحدى فروع أو أفخاذ قبيلة البحاترة، ولا زالت دارهم القديمة المعروفة بالقصبة، موجودة بدوار الكوتات، ولعل عيسى بن موسى هو الذي بناها، لذلك كان معروفا بعيسى الكوتي، وهو المعروف من أصول هذه الأسرة التي أطلق عليها اسم أسرة بن عيسى.

والمعروف من أبناء عيسى هم أحمد وامحمد وعمر وقد اشتغلوا في البداية بالتجارة مع الأجانب عن طريق رأس كانتان (قنط) وكان ذلك سببا في ثرائهم، وتميز أسرتهم، وتأهيل أحمد بن عيسى لتولي مشيخة فخذة الثمرة، وهذا ما رشحه فيما بعد لتولية قيادة قبيلة البحاترة كأول قائد عليها.

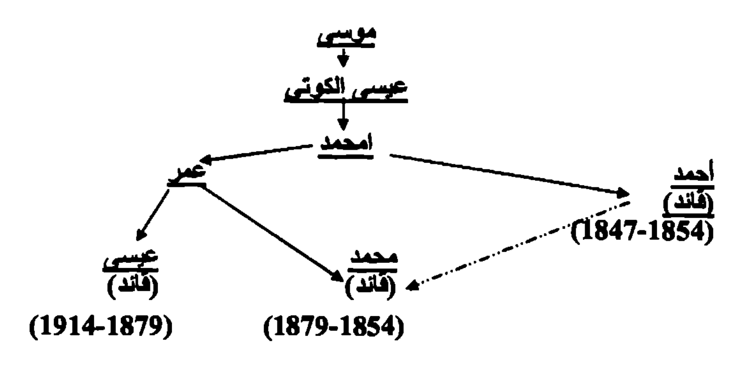
لم نعثر على تاريخ توليته، لكن من المؤكد أنه كان في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، بعد الأحداث التي عرفتها قبيلة البحاترة، وما ترتب عليها من تقسيم لقيادات عبدة، وبذلك يكون تاريخ تعيينه حوالي سنة 1847م.

وفي سنة 1270هـ/1853م كتب له السلطان المولى عبد الرحمان ينبهه إلى سوء الحالة الدينية بقبيلة عبدة، ويأمره بمشارطة طلبة العلم الذين يرجع إليهم الناس في أمر دينهم، ويدعوه لتقريبهم وإعانة النجيب منهم وقبول نصيحتهم[188].

وخلال فترة توليته حاول أحمد بن عيسى توسيع أملاكه وثرواته، ولدينا بعض العقود لشراء أملاك بعبدة وأسفي تعود لسنة 1267ه/1850ودامت ولايته على قبيلة البحاترة حوالي سبع سنين حيث تولى مكانه ابن أخيه محمد بن عمر بن عيسى الثمري حوالي سنة 1884م.

[187] معظم الأسر العبدية تذكر انتماءها إلى ذلك الفرع ولا شك أنهم من الأعراب النازحين إلى المنطقة منذ العهد الموحدي.
[188] - الكانوني، علائق أسفي، ص 98-99.

سلسلة نسب أسرة بن عيسى الكوتي البحتري:



استمرار القيادة في أسرة بن عيسى

الذين تولوا القيادة من أسرة بن عيسى على قبيلة البحاترة.

2) القائد محمد بن عمر البحتري (1854-1879)

تولى محمد بن عمر قيادة البحاترة مكان عمه أحمد بن عيسى بن موسى حوالي سنة 1854.، واستمرت قيادته على القبيلة زهاء خمس وعشرين سنة، عاصر خلالها، ثلاثة ملوك المولى عبد الرحمان والمولى محمد والمولى الحسن.

فما هي علاقة القائد بالمخزن المركزي ؟

*علاقته بالمخزن المركزي في عهد السلطان المولى عبد الرحمان (1854-1859):

تميزت فترة السلطان المولى عبد الرحمان باستقرار سلطة القائد، خلافا لفترة عمه المولى سليمان الذي أكثر من عزل القواد والعمال لاعتقاده أنهم محمولين على الظلم والطغيان، ولا سيما إن طالت ولايتهم، وقدمت شكايات بهم، ولم يستقم للحكام حكم الرعية، فحصل الخلل وأصبح الضرر الناشئ عن تبديل العمال والقواد بأدنى سبب أقبح من الضرر الناشئ على الصبر على ظلمهم،[189]، وهذا ما حمل المولى عبد الرحمان على مخالفة سياسة عمه، إذ يعتبر أن الرعية أظلم من العمال أو القواد، وظالم واحد أخف من ظلم العدد الكثير، لذلك أرخى العنان لهم والثقة بهم حتى يتحقق كل التحقيق من سوء فعلهم، وشدة ظلمهم، ولا يعمل بمنطق الشكاية بهم لأن الرعية في نظره تكره العامل على كل حال[190].

وكان سكان البوادي في نظره على الأخص أعنف لأنهم "لولا ما يتقون من سطوات الملوك والحكام لا يفرقون بين الحلال والحرام"[191] لذلك طالت مدة ولاية القواد والعمال، ومنهم من تجاوزت مدة ولايته العشرين سنة[192]، وساعدت هذه السياسة على أن

[189] - اكنسوس أبو عبد الله الجيش العرمرم الخماسي - مطبعة حجرية بفاس ج 2/ ص 55 و56.

[190] - نفسه، الجيش العرمرم، مطبعة حجرية بفاس ج 2/ص56 و59...

[191] - نفسه، الجيش العرمرم، ج 2/ص29.

[192] - الحجوي محمد بن الحسن، اختصار الابتسام (ضمن مجموع) م.خ.ع.ر./114ح/ص418/62.

والعمال، ومنهم من تجاوزت مدة ولايته العشرين سنة[192]، وساعدت هذه السياسة على أن يستقيم للقواد والولاة سلطتهم على الإيالات التابعة لهم[193]. ولعل هذا ما جعل البعض يعتقد أن بداية سياسة القواد الكبار تزامنت مع فترة السلطان المولى عبد الرحمان[194].

وإذا أضفنا إلى ذلك تأثير العامل الخارجي المتمثل في مضاعفات حرب ايسلي 1844م، وانشغال المخزن المركزي برتق ما خرقه الوجود الأجنبي، وتقليص اهتمامه بالشؤون التنظيمية، لضبط القيادات والتحكم فيها، وأحيانا تفويض صلاحيات التسيير شبه المطلق للقواد، واستقرار أحوالهم وتدعيم سلطتهم، تبين أن ذلك ساعد على تركيز نفوذ القواد.

وهذا ما تحقق فعلا للقائد محمد بن عمر البحتري طوال فترة حكم السلطان المولى عبد الرحمان، حيث عرفت الأحوال داخل قبائل عبدة نوعا من الهدوء والاستقرار، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة، منها، أن القائد كان له تفويض من المخزن المركزي لبيع بعض الأملاك المخزنية نيابة عنه، حيث باع جميع البلدة التي تسمى ببلاد "الصغير الربوحي" وقبض الثمن عن بيت مال المسلمين وهو خمسة وعشرون مثقالا وذلك بتاريخ 16 صفر عام 1276هـ/1859م[195].

* فترة السلطان محمد بن عبد الرحمان (1859-1873).

انشغل السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان منذ بداية عهده بالمشاكل الناتجة عن الاحتلال الإسباني لمدينة تطوان، وهذا ما أدى إلى ظهور اضطرابات جديدة داخل الحوز عموما، الذي ظل أهله كما يقول السباعي"... على عدم الاستقامة والنجاح من ثوران الفتن، وعدم الصلاح نحو السنتين...[196]ويستشف كذلك من إشارة الناصري أن عبدة بدورها كانت تعيش نفس الحالة، فقد أورد على لسان أحد العبديين والدكاليين قولهم: "...مالي وللتقدم إلى هذه الشرذمة وإنما أهل تطاوين يقاتلون على تطوانهم وأما أنا فحتى يصل إلى بخيمتي في عبدة ودكالة..."[197] ولعل هذا الموقف السلبي يعكس حالة الرفض أو العصيان لأوامر المخزن من أجل الدفاع عن وحدة البلاد. وزاد في استمرار حالة الاضطراب عدم حزم المولى علي خليفة السلطان بمراكش" الذي لم تظهر مزية كبيرة لخلافته، ومنذ وليها وأمر الرعية بحوز مراكش لم ينجح"[198] لذلك ولي مكانه المولى الحسن خليفة له على مراكش وبذلك أصبح السلطان مطمئن البال فيما يرجع لشؤون الحوز، ومحل كرسي ملكه مراكش... إذ ما من أمر كان صعبا إلا ذلله... وجميع الرعايا التي بأحوازها، وتتضاف إليها سهلا وجبالا... يسوس أمورها ويدير شئونها... يولي ويعزل ويقدم ويؤخر لكل بنظر المصلحة الراجحة... فقد ولى على يده عمال عدة وأخر عليها آخرون"[199].

---

[192] - الحجوي محمد بن الحسن، اختصار الابتسام (ضمن مجموع) م.خ.ع.ر./114ح/ص418/62.

[193] - الإيالات مفرد إيالة ومعناها لغويا المنطقة القيادية التي شملها نفوذ القائد.
أنظر جرمان عياش: الشعور الوطني في مغرب القرن 19 ضمن كتاب: دراسات في تاريخ المغرب - البيضاء 1986. ص 175- الهامش 11.

[194] - Terrasse, (Henri) < Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat Français- Edit. Atlantides casa – 1950. Tome IIp.360/

[195] - (وثيقة محلية).

[196] - السباعي عبد الله محمد بن ابراهيم، البستان الجامع لكل فن حسن ونوع مستحسن في عد بعض مآثر مولانا الحسن م.خ.ع.ر 1346 د/ص 27 و 28:

[197] - الناصري أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - البيضاء 1956 ج 9/ص 88.

[198] - السباعي، ص 27.

[199] - نفسه، ص 51.

<u>*اعتماد الخليفة المولى الحسن على القائد محمد بن عمر في قضايا عديدة.</u>

كان القائد محمد بن عمر وثيق الصلة بالخليفة المولى الحسن، واعتمده في العديد من القضايا التي تهم قبائل عبدة وجوارها، وهذا ما نعثر عليه في عدة وثائق نقدم بعض النماذج منها وهي:

- بعد قيام قبيلة احمر على قائدها لهنا الحمري كما كانت العادة جارية في قبائل الحوز" إن نقموا من العمال ما نقموا ثاروا لأجل أن يبدل لهم... وكانت القبائل في غالب عادتها، إذا أضر بهم العمال خرجوا عن أمرهم ليستبدلوا غيرهم، والغالب إذا صدر منهم ذلك استبدلوا غيرهم، وكان المولى الحسن قبل استقلاله بالأمر لا يرضى بذلك ويراه مما يزيد العامة إغراء على الطيش والجرأة حتى على الملك، لأن ذلك أدى إلى كون العامة هي التي تعزل، وجعلت القضاء فيه لنفسها عدلت أم لم تعدل..."[200] لذلك كان المولى الحسن يعزز قواده ويشد عضدهم، لذلك انتدب القائد محمد بن عمر للتضييق على القبيلة، فقام بحركة كان على رأسها خليفته وأخوه عيسى بن عمر الذي تركه محاصرا قبيلة احمر، في حين توجه هو إلى مراكش للتفاوض مع أعيان القبيلة الذين استحرموا بمراكش، فعالج الأمر بنوع من الكياسة، حتى رجعوا لطاعة قائدهم وهذا ما استحق عليه القائد محمد بن عمر تقدير السلطان[201].

- كما كان يستشيره الخليفة المولى الحسن، حول بعض القضايا المطروحة في جهات قريبة من عبدة، كما هو الشأن بالنسبة لقبيلة اداكزو (وهي قرية بالقرب من تمنار تبعد عن الصويرة بحوالي 10كلم) التي قامت ضد قائدها ورفضت أن لا يكون لها رأي لو قرار في تعيين بعض الأشياخ على أفخاذها، وكتب الخليفة إلى القائد محمد ابن عمر يستشيره في الأمر، وكان جوابه هو: أن تختار كل فخدة الشيخ الذي يلائمها، باعتبار أن المخزن يوافق على الشخص المختار... وإذا كان سكان القبيلة مقتنعين بشيخهم الحالي فبإمكانهم الاحتفاظ به، وإذا كان العكس فليختاروا الشخص الذي يقبلون شياخته، لكن حينما يستطيع المخزن أن يسيطر على الموقف داخل القبيلة آنذاك يمكن للقائد أن يتصرف حسب اعتباراته... أما الآن فحرية اختيار الشيخ يجب أن تكون من طرف القبيلة[202] هذا الرأي الذي أبداه القائد محمد بن عمر، وتبناه الخليفة المولى الحسن، ينم عن الحكمة والرزانة والإلمام بالأعراف والتقاليد التي كانت سائدة داخل القبائل في علاقتها مع المخزن المركزي، فحينما يكون المخزن المركزي في موقف ضعف بسبب انشغالاته، فهو يكتفي فقط بإضفاء الشرعية على وضع قائم، أما حينما يكون المخزن قويا، آنذاك بإمكانه أن يفرض الاختيارات التي يراها ملائمة.

- كما كان يستنفره للقيام ببعض المأموريات خارج حدود إيالته، كتكليفه بمهمة اعتقال أحد الأعيان ولولاده بسبت جزولة[203].

- وكان القائد مسموع الرأي حول القضايا المطروحة داخل قبائل عبدة، بل كان أحيانا يستشيره الخليفة المولى الحسن حول قضايا تهم تصرفات باقي قواد عبدة فبعد قيام القائد عبد السلام بن حمان العبدي باعتقال أحد أعيان قبيلة الربيعة بتهمة الفساد، أرسل الخليفة إلى

[200] - نفسه، ص 72.
[201] - ميكرو فيلم بالخزانة العامة: ووثائق جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق. مركز أسفي سنة 1978 رسالة بتاريخ 11 رمضان 1282.
[202] - الشابي، مذكور رسالة 3 غشت 1873/1290م.
[203] - ميكروفيلم جائزة الحسن الثاني رسالة بتاريخ 12 جمادى الثانية 1282.

القائد يستخبره "عن صدق حال حم بن حميدة ابن صباح هل هو من أهل الفساد والشيطنة أو من أهل الصلاح والمروءة والسكينة"[204] وبعد تحريات القائد تأكد من براءته مما نسب إليه، فأمر الخليفة بإطلاق سراحه" لبراءته وموافقة عامله على تسريحه بعد الكتب له"[205].

*** تدخلات المخزن المركزي للحد من بعض شطط القائد محمد بن عمر.**

وكان المخزن المركزي يمارس سلطته العليا لمراقبة تصرفات القواد وممارساتهم ولو من بعيد، والضغط عليهم قصد ضبطها والحد من شططها، وكان يحث دائما على التشبث بالأعراف والحدود الشرعية، بل يتدخل أحيانا، لإقرار الشرع أو العرف متجاوزا صلاحيات القائد، خصوصا وإن أفراد القبيلة كان بإمكانهم أن يرفعوا تظلماتهم للسلطان على شكل شكايات، وكان المخزن المركزي يعيرها اهتماما كبيرا، فيتدخل لإنصاف الشاكي من المتظلم، أو الحد من سطوة القائد أو أحد ممثلي المخزن المحلي، فكانت الشكايات إحدى الوسائل التي اعتمدها المخزن، للتخفيف من حدة العنف الذي كانت تلجأ إليه القبيلة لمواجهة شطط القواد، وسطوة أعوانهم، مما كان له تأثير سلبي على الوجود المخزني داخل القبيلة.

فحينما أقدم القائد محمد بن عمر على إلزام أحد البنائين بالخدمة بداره، امتنع البناء عن ذلك فأمر باعتقاله بدعوى أنه عبدي، وبعد تقديم شكاية بذلك أمر الخليفة المولى الحسن بأن يترك سبيله، وعدم التعرض إليه بسوء[206].

نستخلص من هذه الوثيقة:

- أن القائد كان يمارس سلطة طاغية في حق بعض أفراد القبيلة حيث قام باعتقال غير مبرر مما استدعى من المخزن التدخل لإنصاف الشاكي وإطلاق سراحه،

- إن القائد كان يلتجأ إلى نظام الخدمة الجبرية أو السخرة، ومن المحتمل أن يكون ذلك ليس فقط في شأن أعمال البناء، بل كذلك في مسائل أخرى... مما جعل المخزن المركزي يمانع في إقرار ذلك ولو على المستوى الشكلي " لأن الخدمة تكون عن رضى وطيب نفس وبالإحسان يشترى الإنسان"[207].

- أن القائد ولا شك شرع في بناء القصبة المعروفة سنة 1283هـ/1866م والتي سيتمم بناؤها فيما بعد أخوه عيسى بن عمر، لذلك نسبت إليه باسم قصبة السي عيسى.

كما يتدخل المخزن أحيانا لحسم بعض القضايا التي تقع داخل إيالة القائد محمد بن عمر، متجاوزا صلاحياته، خصوصا إذا كانت القضية المعروضة تتصل بأحد أفراد المخزن المحلي، ويمكن للقائد أن ينحاز فيها إلى جانب أشياخه أو احد أعوانه.

فأحد أشياخ القائد، وهو الشيخ منصور، ترامى على أملاك ومتاع أحد أفراد القبيلة ظلما وبدون مبرر شرعي، فاشتكاه للخليفة المولى الحسن الذي أمر بأن يوجه الشيخ ومن معه ليتحاكموا إليه[208] عوض أن يقوم القائد بنفسه بالفصل في هذه القضية.

---

204 - نفسه، رسالة بتاريخ 12 رجب 1293.
205 - كناش 47- مذكور رسالة بتاريخ 17 القعدة 1283/رقم 799.
206 ميكروفيلم خزانة الحسن الثاني أنظر الملحق رسالة رقم 4.
207 - نفسه، نص الرسالة.
208 - نفسه، رسالة بتاريخ 9 جمداى الثانية 1283.

*** تجريد القائد محمد بن عمر بعض الصلاحيات وإسنادها لقاضي أسفي.**

لم يكن للقائد كل الصلاحيات للبحث في بعض القضايا التي تهم إيالته، وكان المخزن أحيانا يتدخل لتقليص حدود هذه الصلاحيات وإعادة جانب منها إلى القاضي باعتباره راعيا لقواعد الشرع.

فهل يمكن اعتبار ذلك بداية لتقييد السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها القائد؟

لقد كان القائد يطمح لممارسة سلطة مطلقة. لكن كثيرا ما كان يصطدم ببعض العوائق التي تحد من نزعته، وتقنن حدود صلاحياته، ذلك بإرجاع صلاحية بعض الأحكام إلى القاضي كمسألة المعاملات مثلا:

فبعد استفحال القضايا المترتبة عن مخالطة الأجانب وتقديم دعاوى في شأنها إلى المخزن، عين السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، قاضي أسفي للبث فيها، باعتبار أنها " دعاوى معاملات لا يحكم فيها إلا القضاة ولا يسجن فيها أو يسرح سواهم"[209].

ولم تكن مسؤولية القائد تتعدى القيام بالبحث عن الغرماء الواردة أسماؤهم في اللائحة التي وضعها القاضي، ولا يستثني منها " إلا من تعذر عليه توجيهه لموجب بين" وعلى القائد أن يعين من ينوب عنه بأسفي لتلقي غرماء قبيلته" ويرفعه مع التاجر المدعى عليه للقاضي " على أن يقوم القائد قبل ذلك بالتحريات اللازمة للتميز بين الميسورين من الغرماء والقادرين على أداء ما هم مطالبون به، ويبين المفلسين منهم فالمفلس لا يوجه إلا بعد أن " يعمل موجب الفلس ويتوجه به في يده، لأنه إذا توجه بدونه، ربما يلزمه القاضي ضامنا حتى يعمله ولا يجد من يضمنه بالمدينة فيجعله بالسجن، ويبقى به للضياع والهلاك..." وعلى القائد" العمل على ما حكم به الشرع...[210] فالقائد في هذه الحالة مجرد منفذ لأحكام القاضي.

- وفي عهد السلطان المولى الحسن الذي تميز عهده بأحكام المراقبة على تصرفات القواد، ويذكر المشرفي أن السلطان " لم يفته حال من أحوال قواده وعماله... وما من ولي بأرض المغرب إلا وكشف من نسبه وأصله..."[211] فكانت سياسته تعتمد على تقليص نفوذ القواد" كلما ظهرت الفرصة مواتية... ولم يتراجع في تجزئة أو تقطيع القبائل لخلق العديد من القيادات"[212]. حتى أصبح عدد القيادات يصل إلى ثلاثمائة وثلاثين قيادة صغرى عوض ثمانية عشرة قيادة كبرى[213]. ولعل هدف المولى الحسن من خلق هذه القيادات الهزيلة، كان هو اصطناع قواد يحتاجون باستمرار إلى دعم القوة المخزنية المركزية، ويطيعون الطاعة العمياء للأوامر السلطانية.

ولم يتعد تقسيم قيادات عبدة آنذاك ما كان معروفا، أي ثلاثة قيادات موزعة بين البحاترة والربيعة والعامر خلافا لما أشار إليه " مييج: J.L. Miege" [214].

---

[209] - أنظر الملحق، رسالة رقم 5.

[210] - ميكرو فيلم خزانة الحسن الثاني، رسالة بتاريخ 26 رمضان 1288.

[211] - المشرفي محمد لغريسي، الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية م.خ.ع - 1463 ك/ص246.

[212]- Deperigny, (st, Maurice), Au Maroc Marrakech et les ports du sud – Paris/ 1918

[213]- Erckmann, (Jules)- Le Maroc Moderne – Paris 1885/P/ 122 Aussi- LAHBABI- Le Gouvernement Marocain P. 145.

[214] - أنظر ما كتبه: L. Miege في مقاله: الحسن الأول والأزمة المغربية في القرن 19 بدورية الأفارقة بالفرنسية، ص 242 حيث جعل قيادة عبدة مقسمة إلى ست قيادات عوض ثلاثة. ولعل هذا لم يكن بذلك الشكل إلا في فترة الحماية حيث قسمتها فعلا إلى ست قيادات.

كما جردهم من بعض الصلاحيات التي كانت تدخل ضمن سلطتهم، كالبث في القضايا الجنائية وما يترتب عنها من ذعائر على الجرائم، مما كان يشكل إحدى الموارد التي تساهم في إثرائهم. وهذا ما حدث بقيادة محمد بن عمر بعد قيام أحد أعوانه بمعية مخزني كانا مكلفين بجمع " متاع المخزن" فقام العون أثناء ذلك بقتل أحد أفراد القبيلة، ولما توصل القائد بالخبر، أمر باعتقاله وسجنه، فتدخل السلطان المولى الحسن ليقرر بقاء الجاني في سجنه، ويعين وكيلا عنه يوجهه مع المجني عليه لدى قاضي أسفي ليتحاكما بموجب الشرع[215]. وذلك يؤكد أن القضايا ذات الصبغة الجنائية التي كانت تحدث داخل القبيلة، خصوصا إذا وقعت من طرف أحد الخدام المخزنين، لا يكون البث فيها من صلاحيات القائد بل أن القاضي هو الذي يتولى حسمها، ولعل الأمر السلطاني في ذلك واضح، ولا يطلب من القائد في هذه الحالة سوى إقرار الحكم الصادر عن القاضي وتنفيذه.

وبذلك نكون قد وقفنا على قضايا لم يكن من اختصاص القائد محمد بن عمر البث فيها، وهي قضايا المعاملات والقضايا الجنائية التي خول أمرها إلى القاضي باسفي، ويهمنا من ذلك أن نعرف مدى حدود صلاحيات القائد في إطار خاص يتصل بقبيلة عبدة لنتوصل بذلك إلى ما هو عام.

<u>* توسيع دائرة قيادة محمد بن عمر عن طريق الشراء.</u>

كان وظيف القيادة من الوظائف المخزنية التي يتهافت عليها أعيان القبائل، وكثيرا ما كان الحجاب والوزراء يلعبون دورا كبيرا في بيع هذه الوظائف لتحقيق هدفين:

1- تكاثر عدد زبنائهم من القواد والولاة.

2- توسيع وزيادة ثرواتهم عن طريق توسطهم في الحصول على ظهائر التعيين. وكانت قيادة عبدة من ضمن الإيالات التي تسمسر بين القواد. ومن أعطى أكثر من غيره فإنه يحوز ولاية غيره، ويعزل المبيع من وظيفه[216]. وهكذا حاول قائد قبيلة الربيعة أحمد ابن العياشي في إحدى مناسبات العيد، أن يستغل فرصة غياب القائد محمد بن عمر البحتري بسبب مرضه فعرض على الحاجب مبلغا لشراء قيادة محمد بن عمر على البحاثرة، فوصل الخبر إلى القائد، وبادر بإرسال خليفته ولأخيه عيسى بن عمر، الذي اتصل مسرعا بأحد المقربين من السلطان وعرض عليه ضعف المبلغ مقابل حيازة قيادة الربيعة، فوافق السلطان على ذلك[217] وولى القائد محمد بن عمر على قيادة الربيعة سنة 1295هـ/1878م.

وكانت هذه السياسة إحدى الوسائل التي يلجأ إليها المخزن المركزي لإعادة تجميع الثروات عن طريق مصادرة الأملاك والثروات التي جمعها القائد، وبالفعل قام محمد بن عمر بإحصاء متروك القائد المعزول وحازه ثم أرسله إلى المخزن.[218]. ومقابل ذلك كان المخزن المركزي يتغاضى عن بعض الطرق التي يلجأ إليها القائد مؤقتا لاستنزاف الرعية، حيث أن " المتولي يرجع إلى الرعية فيغمرها تلك الأموال التي اشترى بها وظيف قرينه"[219].

215 - ميكرو فيلم جائزة الحسن الثاني رسالة بتاريخ ربي الثاني 1295.
216 - الكانوني، جواهر الكمال، ص 34.
217 - رواية شفوية عرضناها لتوافقها مع ما جاء به الكانوني في جواهر الكمال، ص 34.
218 - كناش بيان تركه القواد خ.ح. ر. - رقم 96 - ص 45. كذلك رسالة محمد بتاريخ بداية ربيع الأول عام 1296 من رسائل ميكرو فيلم جائزة الحسن الثاني.
219 - الكانوني، جواهر الكمال، ص 34.

ومن المؤكد أن القائد محمد بن عمر لم تدم ولايته على قبيلة الربيعة ويذكر الكانوني أنه " لم يهنأ بها طويلا"[220] وذلك لأن مسألة توسيع القيادات كان لا يتلاءم مع السياسة العامة للمولى الحسن إزاء القواد حيث كان يسعى دوما إلى تفتيت نفوذهم عن طريق تعديد القيادات.

<u>*ما ينوب إيالة القائد محمد بن عمر من واجبات مخزنية.</u>

كان من أهم التزامات القائد، القيام باستخلاص الواجبات الشرعية التي تنوب إيالته، فكان قواد قبائل عبدة يستخلصون الواجبات المخزنية من قبائلهم بانتظام، وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان دفعت قبيلة البحاترة ما وظف عليها سنة 1281هـ/1864م وهو مقدار ثلاثين ألف مثقال (30000 مثقال)[221] ولم يكن تقديم الواجبات متساويا بين كل القبائل لتفاوت إمكانياتها الطبيعية والإنتاجية، فقبيلة البحاترة باعتبار إمكانياتها، كانت تقدم النصف تقريبا أي خمسة عشر ألف مثقال(15000 مثقال)" وكانت تتحمل قبيلة البحاترة نصف الضرائب والقبيلتان الباقيتان تدفعان النصف الآخر "[222] فكانت قبيلتا الربيعة والعامر تقتسمان الواجبات الباقية مناصفة أي سبعة آلاف وخمس مائة مثقال (7500 مثقال) لكل منهما.

وزاد هذا المقدار نظرا لحاجة المخزن إلى لأموال مع بداية التسرب الاستعماري فقام بفرض التزامات جديدة، أحيانا مخالفة للشرع للتغلب على المستجدات. فرفع من قيمة الواجبات الموظفة على عبدة، حيث أن ضرائب عبدة لسنتي 1864م و 1865م ارتفعت بمقدار 65% فوصل مقدارها السنوي خمسين ألف مثقال (50000)[223] موزعة على القبائل الثلاث لعبدة.

وتسعفنا إحدى الرسائل المخزنية على استخلاص المقدار الموظف على إيالة القائد عبد السلام بن حمان الذي أخذ من قبيلة الربيعة واجبات المخزن 1284 هـ1285هـ/1867م و 1868م ما قدره خمسة وعشرون ألف مثقال أخذها دفعة واحدة[224]. وبذلك تكون واجبات قبيلة الربيعة عن سنة واحدة قد بلغت إثني عشر ألفا وخمس مائة مثقال (12500) أي بزيادة تصل إلى الضعف تقريبا.

ونستنتج من ذلك أن ما وظف على قبيلة البحاترة إيالة القائد محمد بن عمر هو مجموع ما وظف على القبيلتين الربيعة والعامر، أي مقدار خمسة وعشرين ألف مثقال(25000 مثقال) لسنة 1868.

كما كانت قبائل عبدة تساهم في الحركات السلطانية، وتقدم الفرسان للخدمة المخزنية "...وقد ذكر الدليمي أن العادة في الحركة أن تعطي كل قبيلة مائتي حراك من فرسان ورماة فيمن لهم خيل كأهل السهل "[225] وكان نصيب قبائل عبدة من ذلك هو مائتين فارس موزعة بينهما، وبذلك كان نصيب إيالة القائد محمد بن عمر من ذلك مائة فارس بعثهم القائد محمد بن عمر للخدمة الشريفة وعلى رأسهم أخوه عيسى بن عمر الذي عينه كبيرا عليهم[226]. وكان

---

220 - نفسه، جواهر الكمال، ص 34.

221 - تقييد كناش الوزير بايمني - ميكرو فيلم بالخزانة العامة - الرباط رقم 4.
أنظر كذلك كناش بيان مجمل الرسائل الصادرة عن السلطان محمد بن عبد الرحمان، خ.ح.ر. رقم 47. وكذلك توفيق إينولتان، ط. 2 / ص. 500 و 600.

222 - عياش جرمان، دراسات في تاريخ المغرب - موضوع جوانب من الأزمة المالية، ص 100 اعتمد في ذلك على كناش بايمني.

223 - نفسه الأزمة المالية، ص 93.

224 - الشابي مصطفى: مذكور، رسالة، ص 65.

225 - ابن زيدان عبد الرحمان، العز والصولة، ج 2ص 202.

226 - رسالة بتاريخ 16 ربيع الثاني عام 1296.

هؤلاء الفرسان يستعملهم المخزن المركزي أحيانا مخازنية أو مسخرين عوض الحركات، وفي تعمير الجهات التي بها أملاك ومصالح مخزنية قصد الخدمة بها.

وهكذا فما تقدمه البحاترة من فرسان، كان يستعملهم المخزن في تعمير أيت سعادة بنواحي مراكش أو داخل القصبة المنشية بمراكش للقيام بالخدمة المخزنية. وكانت أغلبيتهم تنفر من هذه الخدمة وتلوذ بالفرار والعودة إلى القبيلة[227].

وكانت عبدة تقدم نصيبها من الخرص وما كان ينوب قبيلة البحاترة إيالة القائد محمد بن عمر لعام 1296هـ/1878م هو:

- من القمح: 1560 خروبة.
- من الشعير: 5 972.5 خروبة[228]

*** توسيع ثروات وأملاك القائد محمد بن عمر**

رغم محاولة التقنين التي لجأ إليها المخزن المركزي أحيانا للحد من استغلال نفوذ القواد لتكثير أموالهم وتوسيع ممتلكاتهم فإن جل الثروات التي جمعوها لم تكن ناتجة عن نشاط تجاري أو فلاحي بقدر ما كانت تأتي بطرق أخرى تكون أحيانا غير مشروعة.

فالقائد محمد بن عمر البحتري كان يسعى للإكثار من أملاكه عن طريق شراء الأراضي أحيانا بأثمان رمزية، ولدينا من عقود الشراء ما يبين ذلك فقد اشترى من ورثة ابن لسحاب جميع متروكهم من الأراضي بمبلغ مائة مثقال كما اشترى من أولاد موسى وهم أربعة جميع أراضيهم بمنافعها بمبلغ مائة واثنين وعشرين ريالا (ضرب فرنسيس) ولم نتمكن من تكوين فكرة كاملة حول جميع أملاكه وثرواته، لكن بيان جانب من تركته التي أحصيت ببيت إقامته تساعدنا على تكوين صورة حول نمط عيشه ودرجة ثرائه.

*** نمط عيش القائد محمد بن عمر من خلال بيان تركته**

تقدم لنا هذه التركة تفصيلا دقيقا حول ما تم إحصاؤه بدار القائد محمد بن عمر البحتري من أثاث فاخر وملابس وكتب وأوان... تبرز نمط عيش القائد ومستوى ثرائه المادي ويأتي على رأس قائمة المتروك خزانة تضم مجموعة من أمهات الكتب يصل عددها إلى ما يقرب المائتي كتاب من مختلف الاهتمامات فهل تعبر هذه الذخيرة من الكتب على المستوى المعرفي للقائد؟ أم أنها كانت مجرد مقتنيات تقدم للقائد كهدايا؟ أو يقدمها هو بدوره كهدايا؟.

مما لا شك فيه أن القائد محمد بن عمر كان يتوفر على ذكاء ومقدرة ربما تعتمد على مستوى من المعرفة اكتسبها عن طريق التعلم والتجربة معا.

وانتقلت هذه الذخيرة من الكتب إلى أخيه عيسى ابن عمر الذي حازها بمبلغ ألف ريال لكن أهم ما في التركة هو ما تخلف عنه من حلي ومجوهرات تعكس جانبا من ثرائه وادخاره للذهب والأحجار الكريمة. فنجد ضمن هذه القائمة تيجانا من ذهب وكثيرا من حلي النساء من الذهب المرصع.

---

[227]- رسالة بتاريخ 16 ربيع الثاني عام 1296.
[228]- رسالة بتاريخ 4 شعبان عام 1296 - أنظر الملحق.

وقد حاز السلطان المولى الحسن من ذلك ما اقتضى نظره والباقي حازه عيسى بن عمر بمقدار ستة آلاف ريال[229].

كما تساعدنا التركة على أخذ صورة عن لباسه الذي لا يختلف عن لباس أرستقراطي المدن وباقي الهيئات المخزنية، فهو يتميز بنوعيته الفاخرة المنتقاة من ثوب الملف المستورد، ومنه أعداد من "القفاطين والسراويل والسلاهيم وما يتبعهما من حمايل ومجاديل وبلاغي..." ولا شك أن هذا النوع من اللباس كان يحتاجه القائد في المناسبات أو أثناء الزيارات التي يقوم بها للبلاط المخزني وكان يتزين بخنجر محمول، وساعة من ذهب، أما باقي الملبوس فهو من الكتان على شكل كسى و"فرجيات" وجلاليب وغيرها...[230] أما داخل بيته فنجد من تجهيزات البيت وأواني الطبخ ما يقدم لنا صورة عن الحياة الداخلية للقائد، فمعظم فراشه يتكون من الأثواب النفيسة والنادرة كالحرير والقطن والملف والبرينتك، ولا يمثل الكتان إلا شيئا قليلا، ومن خلال عددها نتصور أن دار القائد كانت تتوفر على بيوت عديدة وكبيرة لأن عدد "مضربات" الملف تبلغ إحدى وستين " مضربة" وبعض هذه البيوت كان مخصصا لاستقبال الضيوف وهي مزينة بالمرايا وخوامي البرينتك (أربعة) وزرابي من عمل تركي(أربعة عشر وشلايات وسطارم من الجلد". كما أن بيوت حريمه تضم نموسيات (لاتتعدى الخمس) ودخاشيش لها، وأحيانا، رواقات من حرير [231].

وفي موازاة تجهيزات البيت، هناك ما يلائمها من أواني الشرب والأكل ككؤوس " البلار " وأواني الطاوس والفضة، بالإضافة إلى مراش ومباخر من معدن نحاس وبابورات وحسك وبيضات مهور... إلخ[232].

أما أدوات الطبخ فمعظمها من النحاس الأصفر بما فيها " الطناجر والطاوات... ويبلغ عدد موائده التي كان يقدم فيها الطعام خمسا وتسعين مائدة واثنين وأربعين مكاب وسبعا وثلاثين قصعة بين كبيرة وصغيرة، وهذا العدد يبين مقدرة القائد على تنظيم الولائم لأعداد كبيرة من الزوار دون الالتجاء إلى خارج الدار.

ويحتاج بيت من هذا القبيل إلى عدد من الخدم والجواري للقيام بأعباءه وخدمته، فكان يضم حوالي مائة وسبع عشرة ما بين وصيفات وإماء.

إن نمطا للعيش من هذا القبيل يؤكد أن القائد كان يعيش حياة قريبة من حياة الأرستقراطية المخزنية داخل المدن وهو أمر طبيعي لأن القائد، لما له من ثروة ونفوذ يحاول أن يقلد النموذج المخزني في مستواه الأعلى، وأن يظهر بمظهر متميز عن باقي أرستقراطي القبيلة وأعيانها.

لاتقف التركة عند هذا الحد بل أن للقائد من الأسلحة والذخيرة ما يمكنه من مواجهة خصومه وفرض طاعته وسلطته، ففي متروكه من الأسلحة النارية ما يزيد عن المائة مكحلة من مختلف العماير (14 و16 و31) كما له من الذخيرة ستة صناديق " كعماير للمكاحيل" ومن الخيل كذلك ما يفوق العشرين[233] وكل ذلك يؤكد أن قوة القائد لم تكن مستمدة فقط من ظهير تعيينه أو ثرائه، بل كذلك من مقدار ما يدخره من أسلحة وعتاد حربي يبرز تفوقه على

[229] - نفسه، غ.ج.ر. - ص 13.
[230] - نفسه، غ.ج.ر. - ص 13
[231] - نفسه، غ.ج. - ص 13.
[232] - نفسه، غ.ج.ر. - ص 15.
[233] - نفسه، غ.ج.ر. - ص 14.

باقي أعيان القبيلة ويمكنه من تعبئة عدد من أعوان ومسخرين لقمع أية انتفاضة محتملة ضده.

أما ما كان يدخره من تموين فكان يكفي لتغطية حاجات القبيلة أو يزيد عنها، إذ له من مطامير القمح أربعا وأربعين مطمورة، ومن الشعير اثنتا عشر مطمورة بالإضافة إلى أحمال من الجمال مودعة لدى بعض أفراد القبيلة تقدر بسبعين حملا من القمح وخمسين من الشعير، بالإضافة إلى العسل والسمن وغيره. وترك من المال الناض مقدار ثمانية آلاف ريال[234].

مجموع هذه التركة حاز منها عيسى بن عمر أخ القائد محمد بن عمر ما هو نفيس.

الكتب حازها بمبلغ	1000	ريال
ما تبقى عن السلطان من الحلي حازه كذلك بمبلغ:	6000	ريال
حاز من الأثاث:	12953	ريال
المجموع:	19953	ريال

انتقال هذه التركة إلى عيسى بن عمر البحتري ثم العبدي تعفينا من إبراز ما سيكون عليه هذا القائد، الذي زاد الكثير على ما كان لدى أخيه محمد بن عمر.

[234]- نفسه، خ.ح.ر ص 15.

الفصل الرابع

القائد عيسى بن عمر ممثلا للسلطة المخزنية (القيادة الصغرى) (1896-1879)

1- بداية تمرس عيسى بن عمر بالمهام المخزنية

كان عيسى بن عمر ينتمي إلى أسرة ارستقراطية من قبيلة البحاترة، مارست تأثيرها المادي والمعنوي على القبيلة لمدة تزيد على نصف قرن حيث توارث أفرادها منصب القيادة، وأصبحوا متميزين داخل القبيلة ومرموقين لدى المخزن المركزي، وكان عيسى بن عمر نظرا لتجربته وحنكته مرشحا لخلافة أخيه على قيادة قبيلة البحاترة، فما هي الظروف التي أهلته لتولي منصب القيادة؟

أ- عيسى بن عمر خليفة لأخيه القائد محمد بن عمر (1864-1879)

لا نعرف كثيرا عن المراحل الأولى من حياة عيسى ابن عمر فمن المحتمل أن يكون من مواليد سنة 1842 م وأنه عاش في كنف أسرته، وتولى أخوه القائد محمد بن عمر الإشراف على تربيته ورعايته، وحرص على تلقينه مبادئ القراءة والكتابة وأصول الدين والشريعة، ولعله اكتفى بالمبادئ الأولية حيث يظهر ذلك واضحا من خلال خطه وتعاليقه على الرسائل لكن رصيده الحقيقي كان مستمدا من تجربته واحتكاكه اليومي بالمشاكل التي عاشها بجانب أخيه.

فقد استخلفه على قيادة البحاترة وهو شاب لا يتجاوز الإحدى والعشرين سنة، وأثناء غياب القائد عن القبيلة أما في الحركات أو غيرها، كان عيسى بن عمر لصغر سنه وطيشه يشتغل بأمور استدعت من القائد تأنيبه فيذكر:

"خطرت امرأة مغنية بلدنا - الشيخة - فكنت وأنا شاب أذهب مع رفقاء لي بها إلى غار بعيد من العمارة فتغني لي وقد حرصنا على أن لا يعرف ذلك أحد لأن ذلك كان مستغربا في ذلك العهد الذي لا يعرف الناس فيه إلا الجد... ثم لما أراد القائد أخي أن يسافر مرة أخرى إلى السلطان خرجت مع كل رجالات القبيلة حتى وصلنا محلا نعتاد أن نودعه فيه، فحين ودع كل الناس ورجعت عنه قليلا، أمال عنق فرسه، فناداني، فقال: ها أنا ذاهب، فاشتغل أيضا في الغيران بفعلتك ولم يعد ذلك، فتوجه لطيته، فبقيت مبهوتا، ولو أمكن لي أن أسيح في الأرض لفعلت من كثرة ما عراني حين عرف عني ما انتهك به عرضي أمامي، ثم كان ذلك آخر عهدي بمثل ذلك..."[235]

وربما ترجع هذه الرواية إلى مرحلة شبابه، حيث كان يخلف أخاه، وبعدها دخل في مرحلة الجد والتمرس على مواجهة المهام الصعبة والشاقة.

فقد ساهم بجانب أخيه القائد محمد بن عمر في بعض المهمات التي كان يكلف بها القائد من طرف السلطان، كالتضييق على إحدى الفرق من قبيلة احمر لما تمردت على

---

[235] - السوسي المختار: حول مائدة الغذاء، ص 85.

قائدها، وبقي الخليفة عيسى بن عمر محاصرا لها مع باقي قواد عبدة، لما توجه أخوه القائد لمعالجة هذه القضية مع الخليفة السلطاني المولى الحسن بمراكش[236] كما كان يعينه على رأس الفرسان الذين تقدمهم قبيلة البحاترة للخدمة السلطانية بالقصبة المنشية بمراكش"... صحبة لأخيك الذي عينته كبيرا عليهم"[237].

وبرزت حنكته أكثر، لما واجه ما كان يحبكه قائد قبيلة الربيعة أحمد بن العياشي ضد أخيه، لما تغيب القائد محمد بن عمر بسبب المرض عن حضور إحدى مناسبات العيد حوالي سنة 1295هـ/1879م، فأقدم القائد أحمد بن العياشي على شراء قيادته، ولما بلغ الخبر لمحمد بن عمر، أرسل خليفته عيسى بن عمر الذي استعمل كل وسائله واستغل علاقاته بالأجهزة العليا داخل المخزن المركزي فأنقذ قيادة أخيه، بل ونكب القائد أحمد بن العياشي وحاز قيادته بأموال باهضة[238].

وأثناء فترة الخلافة تزوج عيسى بن عمر بإحدى بنات عمه القائد احمد بن عيسى، وهي أول زوجاته، وله منها أبناء مشهورون هم: محمد وأحمد والهاشمي[239]

وقبل وفاة القائد محمد بن عمر، كان يوصيه دائما بالاعتماد على بعض خدامه المخلصين الذين تفانوا في خدمته فقال له: "تشاور مع الطاهر فهو حبيبنا، واتخذ با رزوق حارسا على الباب، وعين الخادمة فلانة على المطبخ"[240].

لا شك أن هذه الفترة كانت بمثابة المدرسة الحقيقية التي تعلم خلالها عيسى بن عمر الكثير من الأصول والتقاليد المخزنية، وتمرس على مزاولة المهام الصعبة داخل القبيلة، وهذا ما جعل أخاه القائد محمد بن عمر يرشحه لتولي منصب القيادة، بعد أن دبت إليه الشيخوخة والمرض، فقد بعث برسالة إلى السلطان مولاي الحسن يبين فيها ظروفه الصحية التي لم تسمح له بالقيام بأعباء القيادة ويلتمس منه تعين لأخيه عيسى ابن عمر خليفة له على قيادة البحاترة[241]، وبعد مضي ستة أشهر على تقديم طلبه، وافق السلطان على تعيينه قائدا على قبيلة البحاترة، وذلك سنة 1297ه/1879م[242] وهي سنة وفاة لأخيه، ومع توليته على قبيلة البحاترة كانت عبدة تعرف ثلاثة قواد هم:

- القائد عيسى بن عمر البحتري على قبيلة البحاترة
- القائد الحاج أحمد الحافظي على قبيلة الربيعة
- القائد الحاج محمد الثمار على قبيلة العامر.

<u>ب- تولية عيسى بن عمر قائدا على قبيلة البحاترة سنة 1879.</u>

- كان ترشيح عيسى بن عمر لمنصب قيادة البحاترة مقبولا من طرف السلطان المولى الحسن، ولم يثر أي اعتراض من طرف باقي أعيان القبيلة. فكان ظهير تعيينه تسجيدا

[236] - جائزة الحسن الثاني للوثائق. ميكر وفيلم بالخزانة العامة - رسالة بتاريخ 18 رمضان 1282.
[237] - نفسه ، ميكرو فيلم بالخزانة العامة - رسالة بتاريخ 7 صفر 1295.
[238] - رواية شفوية أفادنا بها ابنه البار السيد عبد السلام بن عيسى العبدي وهي تنسجم مع ما أورده الكانوني في كتابه جواهر الكمال، ص 34 بدون ذكر دور عيسى بن عمر.
[239] - نفس المحدث.
[240] - رواية شفوية نفس المحدث.
[241] - الشابي مصطفى، ص 84 - الإحالة على الرسالة رقم 283.
[242] - نفسه، ص 84 - الإحالة على الرسالة رقم 284.

لالتقاء رغبة الطرفين: المخزن من جهة وأعيان القبيلة، من جهة أخرى لهذا كان القائد يعتبر هو الواسطة المباشرة بين المخزن المركزي والقبائل التابعة له [243] أو هو المجسد لسلطتين سياسيتين " الأولى وهي محلية محضة تنبع من القاعدة ، والثانية وهي واردة من الخارج لمقابلتها، فتصدر من المخزن أي الدولة. أما الالتحام بين السلطتين فيتم في شخص القائد "[244] لذلك كان تعيين القائد عيسى بن عمر بمثابة إضفاء الشرعية على " قوة محلية واقعة وسابقة عن التعيين تبرز قدرة المركز على التكيف مع الواقع المحلي ومسايرته[245] وتضمن للمخزن المركزي إمكانية التأثير على القبيلة بواسطة القائد لتطبيق السياسة المخزنية المركزية.

والواقع أن القائد عيسى بن عمر، لم يحصل على منصب القيادة بواسطة الشراء أو الاغتصاب، ولم يعين قهرا ضد القبيلة، بل أن المركز الاجتماعي الذي كانت تحتله أسرته والتجربة التي اكتسبها خلال فترة الخلافة لمدة تزيد على خمسة عشر سنة، وامتلاكه لثروات أخيه حيث حاز جانبا مهما منها، وحافظ على باقي ممتلكاته بزواجه من أرملته أم هاني أوبلة "246" كل ذلك أعطاه مركزا ونفوذا وسط القبيلة، فتوجه المخزن المركزي بظهير تعيينه قائدا ومجسدا فعليا لسلطة المخزن على المستوى المحلي.

2-علاقة القائد بالجهاز المخزني المركزي

أ- تقرب القائد من السلطان المولى الحسن

إذا كان عهد السلطان المولى الحسن قد تميز بتفكيك القيادات الكبرى إلى قيادات صغرى وصل عددها إلى "ثلاث مائة وثلاثين قيادة على رأس كل منها قائد "هزيل" لا يمكنه الخروج عن الأوامر المخزنية" [247] فإن ما نلاحظه من خلال نموذج عبدة، هو العكس إذ بقيت محتفظة بقياداتها الثلاث، واحتفظ القائد عيسى بن عمر بقيادته على قبيلة البحاترة، وهذا ما يتناسب مع الطرح الذي يقول بأن ذلك التفكيك في بعض الجهات كان"... من أجل تقريب السلطة المركزية من القبائل"[248] فاختيار عيسى بن عمر وإبقاؤه على مجموع قبيلة البحاترة، كان بسبب تأكيد جدارته بتمتين علاقة القبيلة بالمخزن المركزي بإجرائه الأحكام والقيام بالخدمة المخزنية، فالقائد هو "... نائب الإمام في جباية ما جرت العادة أن تدفعه الرعية للسلطان... فيردع الظالم وينصر المظلوم بمزيد رهبته وفضل هيبته"[249] وطالما أن القائد قادر على تحقيق هذه الغايات فليس هناك أي مبرر لدى السلطة المركزية لإضعاف نفوذه، باعتبار أن كل إضعاف لسلطته ونفوذه هو بالتالي إضعاف لسلطة المخزن وهيبته.

---

[243] - LAROUI, Abdellah < Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912)/ Edit. François Maspero Paris 1977 P. 160.

[244] - عياش جرمان: المجتمع الريفي والسلطة المغربية المركزية (1850-1920) ضمن كتاب: دراسات في تاريخ المغرب - الشركة المغربية للناشرين المتحدين 1986/ص194.

[245] - المؤذن عبد الرحمان: إسهام في دراسة العلاقة بين المجتمع القروي والدولة في المغرب القرن التاسع عشر (قبائل إيناون والمخزن :1873-1902) بحث لنيل د.ع كلية الآداب بالرباط/ سنة 1984/ص288.

[246] - رواية شفوية من نفس المحدث..

[247] - ERCKMAN, Jules – Le Maroc moderne, Paris/1885ed. challamel P 23- 122 et Lahbabi- Le Gouvernement Marocain à l'aube du xx siécle. ed – Nord – AFRIC, Rabat, 1958 P.145.

[248] - عياش جرمان مذكور، ص 206.

[249] - الناصري السلاوي، كناش بالخزانة العامة رقم 2295 د/ص6.

وقد كان القائد عيسى بن عمر يسعى إلى تثبيت مكانته لدى المخزن المركزي، وقد تمكن من التوصل إلى ذلك عن طريق المصاهرة" ... فقد زوجه السلطان المولى الحسن إحدى أرامل أبيه سيدي محمد"[250]. وتذكر الرواية الشفوية، أن السيدة فاطنة أرملة السلطان سيدي محمد، لما دخلت قصبة القائد زوجة له، حملت معها تقاليد مخزنية، نقلتها إلى زوجها القائد، فأصبح بذلك يمتلك بعض هذه التقاليد والأعراف المخزنية، ويطبقها في حياته وممارساته[251]، وتنسجم هذه الرواية مع ما نقله المختار السوسي على لسان إدريس منو حينما قال:

"... أنه في معرض غيرة المولى الحسن من تشبه قواده من البدويين به، أن زوجة لعيسى العبدي كانت تقرأ وتكتب، وكانت قيمة داره أتم القيام... فلا يعدو عيسى أن يعلمها ببطاقة تصلها، فإذا هي تقوم بكل شيء، وأن بلغ من الكثرة ما بلغ، فكتبت إليه مرة بطاقة فيها، أن الغذاء سيدي موجود، ففي أي محمل يوضع، فوقع لها توقيعا ملوكيا... فبلغت البطاقة نفسها المولى الحسن فغرمه غرامة باهضة"[252] وهذا ليس مستغربا من السلطان المولى الحسن، لأنه كان حريصا على أن لا يؤدي تشبههم به إلى استنزاف أموال " الرعية" وتبذيرها في المظاهر.

<u>ب - علاقة القائد بأعضاء من الجهاز المخزني المركزي</u>

تعكس هذه العلاقة نوعية المصالح المتبادلة بين أعضاء المخزن المركزي وممثليه المحليين، وهي علاقة تبرز طبيعة الروابط التي كانت تجمع بين الوزراء والقواد، وحاجة القواد المستمرة إلى تدخلات الوزراء وتوسطاتهم حيث"... أنهم كانوا معتمد الولاة في تصفية بعض مشاكلهم بالحضرة الشريفة"[253].

وكثيرا ما كان الحجاب والوزراء يسعون إلى تكثير زبنائهم من بين القواد المحليين، لا سيما الأثرياء منهم وذلك لضمان مكاسب جديدة ودائمة، من بينها الهدايا والملاقاة التي لم تكن في عمقها، سوى رشاوى يقدمها القواد المحليون لأعضاء الجهاز المخزني، من أجل القيام بتدخلات أو التوسط في قضايا مختلفة, وكان السلطان المولى الحسن"... لشدة شغفه بالأبهة الضخمة، وسع الدائرة وصار العامل في العيد لا يقتصر على الوزير الأكبر... بل يتلاقى به وبالحاجب... وكذلك عند توليته، يبذل المال الكثير للسلطان ثم للوزير الأكبر، ولما يتولى، لا بد له من الملاقاة..."[254].

علاقة القائد عيسى بن عمر ببعض أعضاء المخزن المركزي تبرز جانبا من هذه الصورة، فكل القرائن تشير إلى أن القائد كانت له علاقة حسنة ووطيدة بأعضاء الجهاز المخزني.

فعند تولية الجامعي للوزارة الكبرى، كانت العمال تتلاقى به، وتقدم له مبالغ من أجل التوسط لدى السلطان، وتشير بعض الرسائل إلى أن القائد عيسى بن عمر لما احتاج إلى

---

250 - Weisgerber ; Au Seuil du Maroc moderne edit. la porte. Rabat 1947 P: 321.

251 - رواية شفوية من نص المحدث.

252 - السوسي المختار ، حول مائدة الغذاء، ص 84

253 - التوفيق أحمد: المجتمع المخزني في القرن التاسع عشر (إينولتان، 1850-1912). منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط: أطروحات ورسائل (1) ط 1983/2/ص482.

254 - الحجوي: محمد بن الحسن الثعالبي، تقاييد تاريخية /م.خ.ع. رقم ح128 ص 20

وسيط لفصل إحدى قضايا ابن أخيه عبد السلام ابن محمد بن عمر، بعث إلى الوزير الأكبر الحاج العربي الجامعي يستوصيه بابن أخيه، والتوسط لقضاء حاجته، وبعد تحقيق المراد، أرسل القائد إلى الوزير هدية تقديرا لتوسطه، وتحقيق الحاجة على يده[255].

كما وجه القائد ابنه محمد بن عيسى لملاقاة السلطان المولى الحسن، ومن المعلوم أن مثل هذه الملاقاة كانت لا تتم إلا بواسطة الوزير الأكبر أو الحاجب، وبعد مقابلة ابن القائد للسلطان، بعث الحاجب أحمد بن موسى للقائد عيسى بن عمر رسالة يفهم منها اللوم للقائد، لكن بصيغة محفوفة بالمحبة والنصح:

"... وقد تلاقى مع سيدنا وألبسه حلل الرتبة ونفذ له ما تقتضيه... غير أنه أيها المحب بقي في خاطري حيث لم تعلمني بالأمر قبل التوجه، لأني لا أحب أحدا مثل محبتي لك ولا تميل نفسي لغيرك، ولو علمت مكانتك عندي ومحبتي فيك لنبذت جميع من تظن به محبتك، وزادني أن الولد، لما تلاقى مع سيدنا كان من حقه أن يأتي... ويخبرنا بما كان... ولكن لا ملامة على الولد، لأنه لا زال لم يعرف الأمور"[256].

فما هي الأشياء التي استدعت إعفاء الولد محمد ابن عيسى من اللوم لجهله بالأمور؟ إنها بلا شك الهدية الواجبة التي كانت تقدم عادة مقابل ملاقاة السلطان أو تنفيذ طلب، وإذ علمنا أنه في هذه الفترة، كان موقع الحاجب أحمد بن موسى ضعيفا، بالمقارنة لما كان عليه الوزير الأكبر الجامعي من مكانة لدى السلطان، فإن الجامعي صار يبذل جهده للتقليل من نفوذ الحاجب:

"... فقطع على الحاجب ملاقاة العمال إلا خفية وصار يعاكسه في جل أموره... وصار يصرح له السلطان وغيره بأن وظيفة الحجابة مقصورة على النظر في أمور الدار، وما يرجع إلى خصوص ذات السلطان... ولا تعلق له بأمر الدولة والعمال والعزل والتولية"[257]

لهذا كان أحمد بن موسى يسعى لتوثيق صلاته بالقائد عيسى بن عمر، ونعثر في رسالة أخرى أنه كان يحثه على الصدق ويظهر له النصيحة:

"ولا يخفاك أن السبب الموصل إلى إدراك المامول هو الصدق، وبه أدرك أخوك رحمه الله ما أدرك... وعليه فبالغ جهدك في الصدق والنصيحة بجانب سيدنا، ولا ترى مع ذلك من سيادته أدام الله علاه إلا ما يسرك، فإن بذلك تنال رضاه، وقد كتبنا لك على وجه النصيحة والمحبة، فكن عند الظن في ذلك"[258].

وكانت علاقة القائد بالحاجب قوية، وستزداد أهمية في مرحلة لاحقة.

ونفس العلاقة كانت تربط القائد عيسى بن عمر بقائد المشور إدريس بن علام، الذي تدخل بدوره لفصل بعض قضايا القائد عيسى بن عمر، فقدم له مقابل ذلك هدية، هي عبارة

[255] - Chabi,Mustapha- quelques grandes familles de Makhzen, Marocain au XIXè siècle d'après Ben, Zidane- Memoire pour le D.E.S./P.164.

[256] - رسائل خاصة لدي نسخة منها.

[257] - الحجوي مذكور، ص 20.

[258] - كناش العبدي به مجموعة من الرسائل, وهو بحوزة الأستاذ الجليل سيدي محمد المنوني, رسالة بتاريخ 12 شوال 1296.

عن فرسه الخاص، ولما توصل به إدريس بن علام، بعث له رسالة شكر وتأكيد لمتانة الصداقة التي بينهما[259].

ج- تدخلات القائد لدى المخزن المركزي

في مقابل هذه العلاقة، التي كانت تربط القائد بأعضاء من المخزن المركزي، كان القائد بدوره يقدم خدمات ويتوسط في قضايا أعيان قبيلته لدى المخزن المركزي، ولعل هذا يدخل في صلب مهامه، باعتباره وسيطا بين القبيلة والمخزن، ولأن طبيعة بعض القضايا التي تطرح على القائد، كانت خارج إطار صلاحياته واختصاصاته. وتؤكد الكثير من المراسلات، أن طبيعة القضايا التي توسط فيها القائد كانت قراراتها من اختصاص المخزن المركزي، كما أن هذه التدخلات تقدم لنا صورة عن العلاقات الزبونية، التي كان يلجأ إليها القائد أحيانا، لتوسيع دائرة زبنائه والمتعاطفين مع شخصه وسط القبيلة.

تذكر بعض الرسائل أنه توسط لأولاد ابن الرماح البويفيوى الذين طلبوا" إجرائهم مجرى مقدمهم السيد بن عبد الرحمان من عدم المطالبة بالواجب والترتيب ملتزمين على ذلك بما بينت"[260]. وهذا تأكيد، على أن القائد كان لا يستطيع أن يتصرف بمحض إرادته في إعفاء أحد أفراد إيالته من تقديم الواجبات المخزنية، إلا إذا كان ذلك وفق ظهير صريح، وهذا ما أكد عليه السلطان المولى الحسن من أن عدم مطالبتهم بذلك يجب أن يكون وفق"... ظهائر صريحة... فلا يطالبون بواجب ولا بكلف بعد عد مواشيهم وتخريص زروعهم ودخول ذلك في عهدة عاملهم والملكفين معه، وإن لم تكن عندهم ظهائر بما ذكر... فيعطون الواجب وسائر الكلف لأنها تابعة للواجب"[261] فالإعفاء إذن من الواجبات، مربوط بظهير سلطاني، ولا ينفع فيه تدخل القائد ولا توسطه.

ولم تكن سلطات القائد اعتباطية، بل كان القائد ينتقي الشخصيات التي يجد من مصلحته التعامل معها والاستفادة منها، فقد توسط لأبناء أولاد ابن الدهان من قبيلة البحاترة، ولم يكن توسطه بدون مقابل بل أخذ عليه القائد مبلغا من المال، جانبا منه كان مقدما للمخزن المركزي وهو" مائتا ريال مقابل الإنعام عليه بظهير الفلاحة والتزامهم بحراثة أراضي نجل السلطان مولاي عبد العزيز والتماسهم الخروج عن نظر مقدمهم، وجعل مصارفتهم مباشرة مع العامل" وتوصل السلطان بالمبلغ المذكورة، فأنعم عليهم بذلك لكن لم يقبل إخراجهم عن يد مقدمهم، إذ يعتبره خرقا للعادة والعرف[262].

وتجاوز توسط القائد حدود إيالته، فتدخل لدى السلطان لصالح أحد التجار اليهود من أسفي، وهو أبراهام السفوني، الذي تقدم بمطالب للسلطان، وزكاه القائد برسالة يقول عنه فيها، بأن له:

"محبة تامة في الجانب العالي بالله، والميل الظاهر للملة الإسلامية، ويحب الخير للدولة السعيدة ويقف في قضاياهم المتعلقة بالنصارى، وفاصل قضايا هائلة بأدنى شيء"[263]..

---

[259] - الشابي، مصطفى: مذكور رسالة بتاريخ 28 أبريل 1880/ص70
[260] - جائزة الحسن الثني - رسالة بتاريخ 6 ربيع الأول 1304.
[261] - جائزة الحسن الثاني - نفس الرسالة.
[262] - جائزة الحسن الثاني - رسالة بتاريخ 5 جمادى الثانية 1304.
[263] - كناش رقم 551/ص 126 بالخزانة الحسنية - رسالة من القائد عيسى بن عمر إلى السلطان المولى الحسن بتاريخ 3 جمادى الأولى 1307.

ولعل تقديم التاجر اليهودي للسلطان بهذه الصفات، ليس مسألة بريئة، بل من المحتمل أن تكون وراء ذلك صفقة بين التاجر والقائد، لذلك كان يلتمس القائد من السلطان" إجابته لمطالبه" وفعلا وافق السلطان على ما توسط من أجله القائد، فأنعم على التاجر اليهودي بالامتيازات المطلوبة[264].

3 - علاقة القائد مع باقي ممثلي المخزن المحلي

أ- العلاقة مع عامل مدينة أسفي.

لعل وضعية الجوار، التي جعلت من قبيلة البحاترة محيطا لمدينة أسفي من كل الجهات البرية، سبب في إثارة بعض المشاكل بين قائد القبيلة عيسى بن عمر، وعامل مدينة أسفي آنذاك الطيب بن هيمة.

ونستشف من خلال الوثائق والمراسلات، أن طبيعة العلاقة كانت مطبوعة بنوع من التوتر، نتيجة للجوار وتداخل الحدود بين الإيالتين، ففخدة أولاد سلمان من قبيلة البحاترة، كانت تحيط بأسفي من الجهة الجنوبية، وعرفت بعض المشاكل بسبب تعرض أحد صلحائها وإخوانه إلى استفزازات وهجومات ليلية، على يد بعض أعوان عامل المدينة، وتشير بعض الرسائل إلى أنهم "...اتخذوه جرحا، وأكلوا متاعه، وقبضوا عليه هو وإخوانه وجعلوهم بمطفية، ثم شدوا وثاقهم... وما سرحهم من يده إلا بعض حفدة الشيخ بتطارحهم عليه بالعار.[265] فاشتكى المعتدى عليه للقائد عيسى بن عمر، باعتباره تابعا لإيالته، وكتب القائد بدوره إلى العامل بن هيمة يطلب منه الحد من هجومات وتعديات التابعين له على إيالته، فكان جواب العامل مطبوعا بنوع من الاستخفاف، ولم يعر أي اهتمام للقضية، مما دفع بالقائد إلى رفع شكاية للسلطان، الذي أصدر كتابا باللوم والتوبيخ لعامل المدينة وأمره ب"... قصر المستخيرين على قبة الشيخ ومنعهم مما عداها من المنافع والدود عن بيت الخلاء"[266].

وتزداد ملامح الصراع الخفي بين القائد والعامل وضوحا ، من خلال محاولة النيل من سمعة أسرة القائد، وذلك بقصد توريط أحد أفرادها في فضيحة أخلاقية تتصل بادعاء دمية من يهود أسفي، وهي لعولي بنت البلية، التي اتهمت ابن أخ القائد باغتصاب بنتها وافتضاضها، فاعتبر القائد أن هذا الاتهام كان بإغراء من العامل وقدم الدليل على براءة ابن أخيه بموجب شهادة عدول جاء فيها:" ... أغراها من أغراها على أن ترمي بذلك السيد أحمد بن القائد محمد بن عمر... على وجه البهتان والفجور، وبقصد أداية عمه القائد السيد عيسى المذكور، وهتك مروءته"[267] وإن ربط هذا الادعاء، بإغراء مجهول، يمكن أن نجد له تفسيرا في رواية الاشهاد التي تذكر بأن الدمية اليهودية: "... كانت في أيام المسغبة الماضية تطوف مع جدتها في القبيلة لطلب المعيشة ... وأن عبدا اغتصبها وافتضحها فسألوها عنه من هو فلم تعرفه فبحث الخليفة عن القضية فلم يقف لها على حقيقة ثم ذهبت إلى مدينة آسفي فأغراها من أغراها.. وذلك وبثبوت قاضي عبدة وأسفي"[268].

---

[264] - نص الرسالة أعلاه.

[265] - جائزة الحسن الثاني: رسالة من السلطان المولى الحسن إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 5 ربيع الثاني عام 1297.

[266] - نص الرسالة أعلاه.

[267] - شهادة عدول بتاريخ 3 ربيع النوي عام 1298 (وثيقة خاصة).

[268] - نص الشهادة.

وتزداد حدة المنافسة أكثر بين القائد وعامل المدينة الجديد حمزة بن الطيب بن هيمة، حين تمكن القائد من توسيع دائرة نفوذ إيالته، بعدما أقره السلطان المولى الحسن سنة 1306هـ/1888م على "المحارير" بجوار المدينة وأصبح القائد بذلك على مشارف مدينة أسفي، ولعل هذا الإقرار أدى إلى توتر وانفعال العامل حمزة بن هيمة، حيث ما إن تأكد من الخبر حتى" ... قام وقعد وأراد توجيه ولده في عدد من العسكر وعامة المدينة لضربهم... فأخره أغا العسكر عن ذلك"[269]. مما خلق جوا من التوتر، واستدعى من القائد ضرورة إخبار السلطان بموقف العامل، وموحيا إليه، بأن رفض هذا القرار من طرف العامل، معناه، تحدى الأوامر السلطانية، والسعي نحو إيقاظ الفتنة بين البادية والمدينة حيث"...لو أنهم خرجوا لوقع ما لا يخفى من اشتداد نار الفتنة"[270] ووصل صدى هذا الموقف"... لأهل الزاوية الوصيلية فوقع بينهم شنئان وجروا ذيل التعدي على أهل السي محمد بن المقدم "[271] ومعلوم أن فرعا من هذه الزاوية كان داخل مدينة أسفي، وتحت سلطة العامل بن هيمة. ومع ذلك فقد تدخل القائد عيسى بن عمر ليباشر أمر الصلح بينهم، لكن رد السلطان كان وضحا، فنبه القائد إلى أنه تجاوز إيالته، لذلك أمره بأن"... يكف عنهم ويخلي بينهم وبين عاملهم ومقدمهم وإلا فهو منه فضول" [272].

وتؤكد مجموعة من الرسائل أن القائد كان يخبر السلطان بكل خرق مارسه عامل المدينة ابن هيمة . فهل كان القصد من ذلك هو الإيقاع بابن هيمة؟ أم أن ذلك كان يدخل ضمن خطة المخزن المركزي الرامية إلى استغلال جو النافسة، لمعرفة المزيد من الأخبار حول ممارسة ممثلي المخزن المحلي؟

إن تعدد المراسلات في هذا الباب تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بان السلطان المولى الحسن كان يسعى إلى تكثير مصادر لخباره حول أفرادمخزنه المحلي، ولعل هذا ما شجع القائد عيسى بن عمر، على أن يخبر السلطان بكل شاذة وفاذة تقع داخل المدينة.

فحينما صدر الأمر للقائد"... باستخلاص العزيب الذي لإبن زكريا بإيالة ابن الثمار بالثراء" وقام القائد بالتحريات اللازمة وتوجه " لمحل من قبيلته قرب أسفي" وتلاقى مع مالك العزيب" وخاطبه بالبيع فتمنع أولا.. ثم انقاد للبيع بريال 20000 ذاكرا أن ابن هيمة أعطاه في حياته ريالا 18000"[273].

ومعلوم أن سياق هذا الخبر ليس بريئا، بل هو إيحاء للسلطان بأن الطيب بن هيمة، قبل وفاته، كان يسعى لتوسيع أملاكه خارج المدينة ويدفع من أجل ذلك أموالا كثيرة، ومثال على ذلك المبلغ الذي قدمه من أجل شراء " عزيب" اليهودي زكريا,

وفي نفس السياق كتب القائد عيسى بن عمر إلى السلطان يخبره بتملص ابن هيمة من دفع كراء إحدى جنان المخزن التي كانت بحوزته، رغم التزامه بدفع " مائتي ريال كراء، وألف ريال إكراما... وإن ابن هيمة أبى الزيادة أو التسليم"[274]. ولم يجد العامل بدا، أمام ذلك

269 - نفس الشهادة.
270 - كناش خلاصة الرسائل الواردة على الفقيه الصنهاجي من جهات مختلفة خ. ح. ر/رقم 152ص50 رسالة بتاريخ 22 شوال 1306هـ/ 1888م
271 - نفس الرسالة
272 - نفس الكناش - رسالة أخرى بنفس التاريخ.
273 - كناش رقم 551ز رسالة الحسن إلى القائد عيسى ابن عمر بتاريخ فاتح شعبان 1302.
274 - كناش رقم 152. رسالة السلطان إلى القائد عيسى بتاريخ 20 شوال 1306.

إلا القبول بدفع ما التزم به، والرضوخ إلى" الزيادة التي زادها القائد عيسى ابن عمر في كراء جنان المخزن بأنه قبله بذلك الثمن"[275].

وإذا كانت هذه الرسائل تؤكد أن تدخلات القائد كانت من أجل الوقوف لفصل بعض قضايا المخزن المركزي، فإن بعضها الآخر، لم تكن لها إلا صفة الإخبار . فلم يتردد القائد عيسى بن عمر في إخبار السلطان بكل ما يقع، مثلا بمجرد ظهور " سمكة العنبر بسيدي بوزيد إيالة ابن هيمة"[276] بادر القائد إلى إخبار السلطان بما وقع من نهبها، ولا نسوق هذا الخبر لذاته، وإنما قصد إبراز مدى ترصد القائد لكل صغيرة أو كبيرة تحدث بإيالة ابن هيمة.

- ونفس الدور، كان يقوم به عامل المدينة حمزة بن هيمة إزاء قائد القبيلة عيسى بن عمر، فلم يتغاض هو الآخر بدوره، عن كل تصرفات القائد، وكان يخبر السلطان بكل المخالفات التي يرتكبها، سواء داخل إيالته أو خارجها، فبعد التجاء القائد إلى فرض مبالغ مالية على أعيان قبيلة، كتب عامل أسفي إلى السلطان يخبره:

"بأن ابن عمر جعل كناشا مخترعا، وجعل فيه لأعيان من إيالته على كل واحد من 300 إلى 400 وجمع من ذلك ما ينيف على ألوف 20 "[277] وتحملت الإيالة من ذلك ديونا لا تحصى.

ولا شك أن هذه الواجبات لم تكن تجمع لتسديد الواجبات المخزنية، بل كان القائد يجمعها لحسابه الخاص، وهذا ما استلزم القيام بتحريات من طرف السلطان للتأكد من الخبر إلا أنه أرجأ النظر في ذلك إلى وقت آخر[278].

كما كان القائد يتجاوز أحيانا حدود إيالته، ويترامى على بعض أهالي المدينة، فقد وقع"... اللجاج في قضية اعتقال أحمد بن لحسن السلماني... الذي كان مخالطا للرجل الأسفي المحتمي... وأن الرجل المذكور من أسفي" [279] لكن القائد اعتقله رغم أنه ليس من إيالته، وأخذ متاعه وسجنه، لذلك كتب العامل ابن هيمة إلى السلطان الذي تدخل للحد من تجاوزات القائد وأمر بنقل المعتقل المذكور إلى سجن مراكش.

واستفحلت الصراعات بين القائد والعامل، وكان كل منهما يسعى للإيقاع بالآخر، فبعد وصول أمر سلطاني إلى القائد، بقصد تصفية الديون التي كانت للأجانب على بعض أفراد إيالة القائد، قام القائد" وفاصل أرباب الديون، ولم يبق منهم إلا ما قل " لكن العامل اغتاض من ذلك وصار يحرض مبعوث السلطان ويغريه",,, ويشير عليه بالتطوف على القبيلة بالمبايت... وحيث لم يلق له بالا كتب لمولانا بالكذب"[280].

وبعد احتدام التنافس، التجأ عامل أسفي حمزة ابن هيمة إلى تقديم شكاية ضد القائد للسلطان المولى الحسن، الذي أصدر أمره بحسم موضوع الخلاف. وفعلا تمت المصالحة،

---

[275] - نفس الرسالة.
[276] - كناش رقم 152 رسالة من القائد إلى السلطان بتاريخ 25 قعدة 1306.
[277] - كناش رقم 152/ص79 من ابن هيمة إلى السلطان المولى الحسن بتاريخ 6 قعدة 1306 .
[278] - نفس الرسالة.
[279] - رسائل خاصة بحوزتي نسخة منها وهي من السلطان إلى القائد بتاريخ 15 جمادى الأولى 1307.
[280] - كناش رقم 152 رسالة بتاريخ 22 شوال 1306.

على إثر اجتماع بينهما، أذاب كل الحساسيات التي كانت تفرقهما، وأخبر القائد عيسى بن عمر السلطان بتفاصيل الصلح بناءً على الأوامر السلطانية[281].

ب- علاقة القائد مع باقي قواد عبدة

كان القائد ملزما بإخبار السلطان بكل ما يقع داخل إيالته، ولذلك كان يستوضحه أحيانا ويستخبره عن كل القضايا التي تحدث، ويتلقى جوابا حولها ولم يكن السلطان يكتفي بالجواب، كان يناقشه بناءا على ما لديه من معطيات استقاها من المعلومات التي ترد من بعض مخبريه، حيث كانت مصادر الإخبار التي اعتمدها المخزن لضبط تصرفات أعوانه متعددة، وكان من بينها، استعمال القواد لمراقبة بعضهم، فالقائد عيسى بن عمر كان يراقب تصرفات قائد قبيلة الربيعة الشافعي بن الحافظي. وقد أخبر السلطان بأن الشافعي منع أحد الأشياخ من استغلال أراضيه، فكتب له السلطان يستخبره عن صدق ذلك:

"...إن الخادم عيسى بن عمر أخبرنا أنك منعت الشيخ مبارك بن البحاثري من استغلال أرضه التي كان يستغلها منذ فترة أخيك وبالضبط منذ عشرين سنة مضت، وأنت الآن تحاول منعه منها، وعليه فنأمرك أن تبين الأسباب التي دفعت لهذا العمل إزاء الشيخ المذكور"[282].

كما بعث السلطان إلى القائد عيسى بن عمر يستخبره حول أحد الأشياخ من قبيلة الربيعة إيالة الشافعي بن الحافظي، ويأمره بتقصي الحقائق والقيام بالتحريات اللازمة لمعرفة سوابق"... الشيخ الجيلاني الدكالي الذي كان يقيم بآسفي، وله عزيب بإيالة القائد بن الحافظي، والتأكد من أصله، هل هو دكالي كما يفهم من نسبه، أم هو عبدي، ثم هل سبق له أن تولى الشياخة بإيالة القائد الحافظي، أم في إيالة أخرى"[283]. ولعل الدقة المطلوبة في مثل هذه التحريات، تؤكد أن السلطان كان حريصا على التأكد من هوية أعوان المخزن المحلي.

وأحيانا كان السلطان يستوضح القائد نفسه بناء على ما لديه من معلومات، فكتب له يستخبره حول حالة أربعة من الأعوان، كانوا في خدمة المخزن وتم إبعادهم لأسباب مجهولة ولم تنطل على السلطان ادعاءات القائد وتحريفه لمجرى الأمور بعد أن تبين له خطأ ادعائه، وعدم مطابقة أقواله للحقيقة، فأمره بضرورة إرجاعهم للخدمة المخزنية والاعتماد عليهم نظرا لأهميتهم داخل الجماعة[284].

ج- ترصد القائد لتركة أعيان القبيلة

كان السلطان المولى الحسن حريصا كل الحرص على رصد تركة أعوان المخزن المحلي، وبالأخص منهم القواد، قصد إحصاء ثرواتهم ومصادرتها. وتتعدد الوثائق في هذا الباب وبالأخص منها" بيان تركة بعض القواد"[285] الذي اشتمل على متروك اثنين وخمسين قائدا، من بينهم ثلاثة قواد من عبدة هم: القائد محمد بن عمر والقائد أحمد بن العياشي و القائد أحمد الحافظي. وهي تركات تتفاوت أهميتها حسب نوعية الثروة التي راكمها القائد أثناء

[281] - الشابي: مذكور، ص 67-68/ رسالة إلى القائد بتاريخ 6 نوفمبر 1889.
[282] الشابي: مذكور، ص 69 /رسالة الحسن إلى الشافعي بتاريخ 4 يناير 1889.
[283] - نفسه - مذكور، ص 80 رسالة إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 15 أبريل 1887.
[284] - نفسه - مذكور، ص 78-79. رسالة من السلطان إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 23 أبريل 1883.
[285] - كناش بيان تركة بعض القواد خ.ح.ر. / رقم 96.

تولية منصب القيادة. ولا تقتصر هذه المتابعة بالنسبة للقواد فقط، بل كانت تتعداها أحيانا لبعض أعوان المخزن أو من كان ينتمي إلى حاشياتهم، ويهمنا منها ما كان يتصل بالقائد عيسى بن عمر.

فقد كتب إليه الحاجب أحمد بن موسى ينصحه ويحثه على الصدق لإدراك غاية مراده، فيقول :

"..ولا يخفاك أن السبب الموصل إلى إدراك المأمول هو الصدق، وبه أدرك أخوك رحمه الله ما أدركه، فإنه لما توفي عمه رحم الله الجميع، أحصى جميع متروكه من ناض وغيره، ولم يدع منه لا شاذة ولا فاذة، وقدم بذلك سيدنا.، وأدرك بذلك غاية مراده، وعليه فبالغ جهدك في الصدق والنصيحة بجانب سيدنا أعزه الله"[286]..

وتوحي لنا هذه الرسالة، بأن القائد عيسى بن عمر ربما تغافل عن تقديم إحصاء متروك أحد أفراد أسرته إلى المخزن المركزي، مما جعل أحمد بن موسى ينبه إلى ضرورة الصدق في ذلك فهو الذي أوصل أخوه القائد محمد بن عمر إلى المأمول والمبتغى.

ولم يتردد القائد عيسى بن عمر في العمل بنصيحة الحاجب، فقام بإحصاء متروك ابن عمه عبد السلام ابن القائد أحمد بن عيسى: وأخبر الحاجب بذلك فأجابه برسالة يقول فيها:

"... وافانا كتابك مخبرا بأنك أحصيت متروك عبد السلام بن أحمد بن عيسى وفق أمرنا الشريف وقيدته في الزمام الذي وجهت طي كتابك وصار بالبال"[287]. ولم يسجل من هذا المتروك في كناش "بيان تركة بعض القواد" إلا ما تركه عبد السلام من الماشية ومطامير الحبوب[288].

ولم تكن محاولة التملص أو الفرار من مراقبة السلطان مجدية، حيث كانت عيونه بالمرصاد لضبط وإحصاء متروك خدام مخزنه المحلي، فبعد إلقاء القبض على قائد الرحامنة محمد بن بلة الرحماني إثر خروج طائفة من إيالته، يقال لهم البرابيش عن طاعته، وما تلى ذلك[289] بادر السلطان إلى القبض عليه ومصادرة متاعه وممتلكاته، وفر أخوه الحسين ولد بلة الرحماني، والتجأ عند أخته أم هاني أبلة أرملة القائد محمد بن عمر، وزوجة القائد عيسى ابن عمر بعده، فكتب القائد عيسى بن عمر إلى السلطان المولى الحسن يخبره، بأن الحسين ولد بلة الرحماني ورد عليه بفرس وبغلة، وأخبره بعد ذلك بأن أخاه محمد ولد بلة وقع القبض عليه، فأبقاه القائد عيسى تحت مراقبته إلى حين صدور الأمر السلطاني، فأجابه السلطان بما أبلغ به من :

"... توجهه لعندك من دوارهم بالقبيلة ببغلتين مثقلتين قبل ورود كتابك هذا، فأصدرنا لك أمرنا الشريف بتوجيهه لحضرتنا الشريفة مقبوضا مع البغلتين وما عليهما، فلتعمل على ذلك"[290].

---

[286] - الكانوني: كناش بحوزة الأستاذ المنوني به رسائل حول أسفي وعبدة، رسالة من أحمد بن موسى إلى عيسى العبدي بتاريخ 12 شوال عام 1296.

[287] - رسائل خاصة/نسخة منها بحوزة السيد عبد السلام ابن القائد عيسى - رسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 2 رمضان 1297.

[288] - كناش رقم 96 ص 147.

[289] - ابن حمدون الحاج أحمد بن محمد: الدرر الإبريزية في المناقب العزيزية خ.ح.ر./ج 1/ص 40 مكرر.

[290] - جائزة الحسن الثاني للوثائق رسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 3 ربيع النبوي 1229.

ولم يكتف السلطان بإصدار هذا الأمر بل كلف القائد بالبحث عن كل متاع مودع من طرف القائد المعزول محمد ولد بلة لدى أفراد إيالة القائد عيسى بن عمر، وبعد التحريات التي قام بها، توصل إلى اكتشاف متاع كان مودعا لدى نائب القاضي بالبحاترة، وبعث به إلى السلطان... حسب ما هو واضح في رسالة جاء فيها : "ما وجهته من متاع ولد بلة الذي كان مودعا عند نائب القاضي الطالب عمر بن رقية مبينا ما وجهته بطرة كتابك"[291].

3- المهام المنوطة بالقائد إزاء المخزن المركزي

أ- تقديم الواجبات المخزنية

- خرص قبيلة البحاترة: كانت إيالة القائد عيسى بن عمر تقدم ما نابها لجانب المخزن المركزي من خرص الحبوب بانتظام، وفي كل سنة، وكان مجموع ما تقدمه سنويا يتفاوت حسب الظروف الطبيعية والمناخية، نظرا لطبيعة نشاطها الفلاحي، وارتباطه بالأمطار، وعلى الرغم من أن قبيلة البحاترة كانت تشغل الحيز الأكبر من مساحة قبائل عبدة، إلا أنها لم تكن من حيث أنتاج الحبوب تتوفر على نفس الخصائص التي كانت لقبيلة الربيعة مثلا والتي تتوفر على مؤهلات من حيث التربة، جعلتها تحتل مركز الصدارة في إنتاج الحبوب.

ويتضح لنا ذلك من خلال ما قدمته قبائل عبدة من خرص الحبوب لسنة 1307 هـ/ 1889م[292].

خرص قبائل عبدة لسنة 1307هـ/1889م

اسم القبيلة	القمح بالخروبة المراكشية	الشعير بالخروبة المراكشية
قبيلة الربيعة	906	651
قبيلة البحاترة	94	37
قبيلة العامر	15	05
مجموع ما قدمته قبائل عبدة	**1015**	**693**

ملاحظة: الخروبة المراكشية تزن تقريبا 18 كلغ.

نلاحظ من خلال الجدول مدى التفاوت الكبير بين قبائل عبدة فيما ينوبها من خرص الحبوب، وهذا ما يؤكد تفاوتا في الإنتاج ومستوى المعيشة، فإذا كانت قبيلة الربيعة تستأثر بالنصيب الأكبر من حيث الإنتاج الفلاحي، فذلك راجع إلى خصوبة تربتها من " التيرس عكس قبيلة العامر التي تعد أضعف من حيث الإنتاج بالمقارنة مع باقي القبائل، وإن قبيلة البحاترة رغم اتساع مساحتها التي تغطي تقريبا نصف مساحة أراضي عبدة، إلا أنها لا تساهم إلا بجزء ضئيل من الإنتاج الفلاحي، وهذا راجع إلى أن جانبا كبيرا من مساحتها، ممتد على شريط ساحلي ذي طبيعة صخرية أو رملية، ولا يشكل الجزء الفلاحي إلا شريطا " انتقاليا" هو ما يطلق عليه اسم " الحصبة".

ورغم ذلك فلا نستطيع من خلال جدول خرص سنة (1307هـ/1889م) أن نقيم حجم الإنتاج الفلاحي لقبائل عبدة، نظرا لأن خرص هذه السنة حسب ما جاء في كناش خرص

---

291 - جائزة الحسن الثاني للوثائق - رسالة من السلطان على القائد بتاريخ متم محرم 1300.
292 - أخذت هذه المعطيات من كناش : خرص قبائل عبدة لسنة 1307 - خ. ح.ر. رقم 395/ص 42.

قبائل عبدة كان "... على قدر إجحاف هذه السنة المباركة، أعادها الله على المسلمين بخير فهو عليم بذلك..."[293].

ونظرا لهذا الاعتبار، نضع جدولا لآخر بخصوص حبوب سنة أخرى، يمكن اعتبارها سنة عادية بالنسبة لقبائل عبدة وهي سنة 1309هـ/1891م[294].

خرص قبائل عبدة لسنة 1309هـ/1891م

اسم القبيلة	القمح بالخروبة المراكشية	الشعير بالخروبة المراكشية
قبيلة الربيعة	2558	2180
قبيلة البحاترة	511	280
قبيلة العامر	048	046
مجموع ما ناب قبائل عبدة	3117	2506

من الواضح أن خرص هذه السنة (1891م) متميز بظروفه المناخية العادية، مما ترتب عنه محصول زراعي يفوق خرص سنة (1889م) بما يزيد عن ثلاث مرات، ويترتب عن هذا التفاوت عدة مضاعفات نذكر من بينها:

* انعكاس هذا التفاوت على مستوى معيشة الفلاح مما يؤدي إلى بروز بعض الظواهر داخل قبائل عبدة، كاللصوصية والنهب وغيرها..

* رغم ظروف الجفاف والقحط، فإن المخزن كان يلزم القبيلة بما ينوبها من خرص الحبوب مما قد يتسبب في تزايد أزمة الفلاحين ويدفع بهم إلى ممارسة شتى أشكال اللصوصية وغيرها.

* إن انخفاض نسبة الإنتاج في سنوات الجفاف أدى إلى انخفاض مداخيل المخزن المركزي، وهذا ما يدفع به أحيانا إلى ابتكار أساليب لسد عجزه وتعويض نقص مداخيله.

وإذا حاولنا المقارنة بين السنتين المذكورتين تأكد لنا حجم الخصاص الذي كانت تعاني منه قبائل عبدة من جهة، والمخزن المركزي من جهة أخرى.

خرص قبائل عبدة خلال سنتين متفاوتتين من حيث الإنتاج

اسم القبيلة	القمح		الفرق	الشعير		الفرق
	1307	1309		1307	1309	
قبيلة الربيعة	906	2558	1652	651	2180	1529
قبيلة البحاترة	94	511	417	37	280	243
قبيلة العامر	15	48	33	05	46	41
المجموع	1015	3117	2102	693	2506	1813

يتضح من خلال جدول المقارنة أن نسبة الفرق كانت مرتفعة جدا، وصلت بالنسبة للقمح إلى ضعف ما قدمته قبائل عبدة إلى المخزن في سنة الجفاف، وكذلك بالنسبة للشعير، وهو ما يؤكد حجم الخصاص الذي عانت منه عبدة خلال سنوات الجفاف.

293 - نفس الكناش.
294 - كناش خرص قبيلة الربيعة لسنة 1309- خ.ح.ر - رقم 406/ص119.

ويبدو من خلال ذلك أن قبائل عبدة، في عهد السلطان المولى الحسن، كانت تقدم واجباتها من الحبوب عينا لا نقدا، وكان تقدير هذه الواجبات يعتمد حجم الإنتاج، وقد اتخذ السلطان أحد أعوانه وهو ابراهيم بن أحمد بن الأحمر الغانمي الدكالي "...مراقبا على عمال بلده من عبدة وأمينا على خرص المنتوجات"[295].

- أما فيما يخص الزكاة على المواشي... فكان السلطان يحث القائد عيسى بن عمر على جمع ما ينوب إيالته ويؤكد في رسائل فيقول : "... وعليه فنأمرك أن تستوفي من إيالتك ما أوجب الله عليهم من الزكاة التي هي معلومة بالضرورة من الدين، وجاحدها لم يدخل ربقة الإسلام... وإن تقوموا على ساق الجد في حملهم على أدائها فورا وأن لا تقبل من أحد في التعجيل عذرا، لأنها من حقوق الله"[296].

ولم تكن زكاة المواشي خاضعة لقاعدة واحدة فكانت تقدم عينا، خصوصا من الإبل، وكان ما قدمته إيالة القائد عيسى بن عمر هو "واحد وعشرون جملا... التي نابتك وسط عمال عبدة"[297].

كما كانت تقدم نقدا، خصوصا على الغنم، كما هو الحال بالنسبة لفخدة آل غياث من قبيلة البحاترة، فقد انتدب القائد ابن عمه الطاهر بن القائد أحمد للوقوف على جمع ما ينوب هذه الفخدة من واجبات، وبعد قيامه بهذه المهمة، كتب للقائد عيسى بن عمر يخبره، بقوله : "... فقد وصلنا آل غياث... والأشياخ واقفين ومتشددين في متاع الفخدة ودفعوا لنا الزمامات على الغنم ومحصل في مجموع الجميع هذا بـ 12215... وكذلك الزكوات..."[298].

<u>ب - المشاركة في الحركات المخزنية:</u>

كانت إيالة القائد عيسى بن عمر تقدم ما ينوبها من الحراك للمساهمة في الحركات المخزنية. وفي سنة 13307 هـ/1889م ساهمت قبيلة البحاترة في الحركة التي قام بها السلطان من فاس إلى مراكش[299] ونعثر على رسالة يستنفر فيها السلطان القائد عيسى بن عمر بالنهوض للحركة، فيقول : "... فنأمرك أن تكون على أهبة واستعداد بالحركة المعتادة، ولتكن منتخبة من أنجد الرجال وأجود الخيل وحسن الحال بحيث تكون بها على جناح السفر متى نأمرك بالنهوض بها للمحل الذي نعينه لك[300] وإن هذه المشاركة، كانت تكلف القبيلة أعباء اختيار وانتقاء أجود الفرسان، وتوفير الخيل والعدة، فهي بذلك تدخل ضمن الواجبات المفروضة على القبيلة، والتي لها طابع "إلزامي".

كما شاركت إيالة القائد في الحركة التي قام بها السلطان من الرباط إلى فاس سنة 1310هـ/1893م بحيث صدر الأمر للقائد:

نأمرك أن تفرض عدد حركة إخوانك على العادة منتخبين من وجوه الرجال الأقوياء، والخيل الجياد المسومة الصحاح الجيدة... ذوي عدة واستعداد، يعتد بهم حال الكفاح

[295] - الكانوني، جواهر الكمال، ص 117.
[296] - الكانوني: كناش في حوزة الأستاذ الملوني: رسالة السلطان إلى القائد بتاريخ 15 محرم 1308.
[297] - جائزة الحسن الثاني للوثائق - رسالة السلطان إلى القائد بتاريخ 23 رمضان 1307.
[298] - رسائل خاصة بحوزتنا نسخة منها: رسالة من الطاهر ابن أحمد إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 29 جمادى الثاني عام 1307.
[299] - أعفيف محمد: الحركات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان - مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 7 السنة 1980/ ص 55 - أنظر جدول الحركات 16 و 17.
[300] - جائزة الحسن الثاني للوثائق: رسالة من السلطان إلى عيسى بتاريخ 10 رجب 1310.

والطراح، ولتكن بهم على بساط الأهبة بحيث إذا ورد عليك أمرنا الشريف في شأنها تجدك الحال ناهضا"[301].

وإذا كانت العادة في مثل هذه الحركات أن ينتقي القائد أحسن الفرسان وأقواهم، فإن الرسائل التي بين أيدينا، لم تفدنا في معرفة العدد الذي ساهمت به قبيلة البحاتر في الحركتين المذكورتين، ولعل نصيب قبيلة البحاترة كان يساوي مجموع ما تقدمه قبيلتا الربيعة والعامر، وذلك ما سيظهر واضحا في المراسلات الخاصة بالفترة العزيزية.

<u>ج ـ تكفل القائد برعاية وتربية مواشي السلطان:</u>

من بين الكلف التي كان يقوم بها القائد، الإشراف على رعاية وتربية المواشي المودعة لديه من طرف المخزن المركزي، وبالأخص منها، الخيول والبغال، حيث كان القائد يسهر على توفير الكلأ لها، ورعايتها وهذا ما كان يتطلب منه توفير المراعي الكافية أو البحث عنها. لذلك كان القائد بدوره يلجأ إلى فرض نوع من السخرة على أفراد القبيلة فيوزع عليهم الماشية قصد رعايتها[302]. وكثيرا ما كان السلطان يفاجئ القائد بطلب إرسال عدد منها، مما يدفع بالقائد إلى البحث عن أجودها، ولو من ماشيته الخاصة. وتتعدد الرسائل المخزنية في هذا الصدد وكلها أوامر صادرة عن السلطان بتوجيه عدد منها يقول :

"نأمرك أن توجه لوصيفنا الحاج أحمد أمالك ثلاث بغال من بغال جنابنا العالي بالله التي تحت يدك عزما"[303].

"نأمرك أن تنتخب خمس عشر بغلة من بغال هويرنا السعيد الذي عندك وادفعها لحملته الحمارة يتوجهون بها لمراكش صحبة من يوثق به من إخوانك وعجل"[304].

وإذا تأملنا العدد الذي كان يكلف القائد برعايته من ماشية السلطان، نستطيع أن نتصور مقدار التكاليف التي كان يتحملها القائد فقد تفوق أحيانا المائتي بغلة:

"وصل جوابك عما أمرناك به من توجيه مائتي بغلة وسبع بغال عما لجنابنا العالي بالله عندك والاحتفاظ بالباقي إلى وقت الاحتياج إليه"[305].

وكثيرا ما كان القائد يعوض الأعداد التي تتعرض إلى الضياع بسبب الموت أو غيره"... وعلمنا ما ذكرت وما ضاع من هوير أحمد العبدي من تسع بغال وما ضاع في وراء العسكري ثلاث بغال، وصار بالبال".

كما كان السلطان يتشدد في انتقاء واختيار أجود أنواع المواشي وبالأخص منها الخيول، وكثيرا ما كان يرفض المعيب منها:

"... وصل جوابك بتوجيهك ثمانية وثلاثين فرسا تحت يدك لجنابنا العالي بالله، وصار بالبال فالواصل منها، إثنان وثلاثون، وجد منها معيبا تسعة، ها هي ردت إليك فنأمرك أن تستبدلها بصحيحة سالمة وتعجل بتوجيهها مع الستة الباقية كما أمرناك"[306].

[301] ـ جذاذة الحسن الثاني للوثائق: رسالة من السلطان إلى عيسى بتاريخ 25 رجب 1310
[302] ـ جذاذة الحسن الثاني: رسالة بتاريخ 3 ربيع النبوي 1305هـ.
[303] ـ جذاذة الحسن الثاني: رسالة بتاريخ 3 ربيع النبوي 1305.
[304] ـ جذاذة الحسن الثاني: رسالة بتاريخ 24 جمادى الثانية 1307.
[305] ـ جذاذة الحسن الثاني، رسالة بتاريخ 20 رمضان علم 1305.
[306] ـ جذاذة الحسن الثاني: رسالة بتاريخ 20 رمضان علم 1308.

د - هدايا الأعياد:

عادة ما كان القائد، أو بعض " إخوانه" من أعيان القبيلة، أو خليفته، يفدون إلى حضرة السلطان بالعاصمة وذلك بمناسبة الأعياد الدينية الثلاثة لتقديم هدايا العيد، أو ما يطلق عليه أحيانا في المراسلات المخزنية اسم "عيادة".

وبمناسبة عيد الفطر، أرسل القائد عيسى بن عمر وفدا من أعيان إيالته، لتقديم الهدية، وبعد تأدية واجب الولاء، أخبر القائد بوصول:

"عيادة إخوانك وشهدوا معنا عيد الفطر... وأدوا الهدية التي وجهت وفق ما ذكرت، فعوضكم الله خلفا وبارك لكم أمين"[307].

وإن كنا لا نعرف مقدار الهدية التي قدمها القائد للسلطان، إلا أننا نعثر على بعض الإشارات التي تعطينا تقديرا تقريبيا لمبلغ هذه الهدية، بمناسبة قدوم السلطان المولى الحسن من إحدى حركاته إلى حضرة مراكش، فقدم عليه قواد عبدة، وأدوا الهدية، فكان مقدار ما قدمه القائد عيسى بن عمر بمناسبة التهنئة بالقدوم، هو أربعمائة ريال، وبمناسبة تعزيته في أخت السلطان قدم مائتي ريال، أيما مجموعه ستمائة ريال[308].

وهو نفس المبلغ الذي قدمه كذلك قائد ايالة الربيعة، الشافعي بن الحافظي، حيث قدم ثلاثمائة ريال للتهنئة وثلاثمائة للتعزية[309].

و - اهتمام السلطان بتخليص "رعاياه" من ديون الأجانب

كان السلطان المولى الحسن، حريصا كل الحرص على الحد من انتشار الحمايات القنصلية، وأصدر في ذلك أوامره إلى كل الجهات للحد منها، وفي هذا الإطار كان يعمل على إحصاء السماسرة والمخالطين لضبط عددهم فقد أصدر أمره للقائد عيسى بن عمر بإحصاء المحميين، فيقول "... ما للمركان من السماسرة والمخالطين بإيالتك"[310] وأمر بوضع قائمة يوجهها إلى النائب محمد بن العربي الطريس لدار النيابة بطنجة في أسرع وقت، وأن يخصص "رقاصا" للوقوف على تنفيذ ذلك"... ويتوجه لا بد الرقاص في غد اليوم الذي يصلك فيه كتابنا هذا ووجه نسخة منه لحضرتنا الشريفة"[311] ولعل ذلك ما كان يدخل ضمن محاولة السلطان لتصفية الديون التي كانت للأجانب على بعض المواطنين المغاربة وفي هذا الصدد، نعثر على بعض الرسائل التي تهم قيادة عبدة.

فقد أصدر السلطان المولى الحسن أمره إلى القائد عيسى بن عمر يطالبه "..: باستيفاء ما على إيالتك من ديون الأجناس"[312]. وقام القائد من أجل تنفيذ ذلك على " ,,, ساق الجد والاجتهاد حتى تخلص الجميع... وحاز ما عثر عليه من الرسوم[313] التي بلغ عددها مائة وعشرين رسما، استخلصها القائد وبعث بها إلى السلطان مع " ...رسم إبراء قونصو النجليز"[314] وقام القائد بكل التحريات لضبط ما تبقى للأجناس الأخرى من ديون على إيالته"

[307] - جائزة الحسن الثاني : رسالة من عثمان بن محمد إلى القائد عيسى بتاريخ 4 شوال 1306.
[308] - كناش خلاصة مكاتيب التوظيف الشريف المجاب عنها على يد الفقيه محمد الصنهاجي.خ.ح.ر/ الكناش الخامس رقم 166 ص 16.
[309] - نفس الكناش أعلاه.
[310] - جائزة الحسن الثاني: رسالة بتاريخ 15 جمادى الأولى 1303.
[311] - نفس الرسالة.
[312] - كناش رقم 551/خ.ح.ر ص 29 - رسالة بتاريخ فاتح شعبان 1302.
[313] - نفس الكناش
[314] - نفسه.

فلم يجد لهم دينا باقيا". وربما يكون القائد بذلك قد استوفى كل الديون التي كانت للأجانب على بعض الأفراد من إيالته وحتى يتمكن القائد من ضبط هذه العملية، كان على القاضي أن يقوم"... بإعلامه بكل من أراد تحمل دين من إيالته".

ولعل تصفية هذه الديون، استلزمت من القائد القيام بإجراءات من بينها، تكليف أحد أفراد المخزن بالإقامة في دار النيابة بطنجة قصد تصفية كل الرسوم، وفعلا فإن بعض الوثائق تؤكد"... إن الطالب محمد بن سليمان قد أقام بطنجة مدة مديدة، في الوقوف على ما كان على إيالتك من دين الإنجليز حتى صفى أمره وانحسمت مادته...[315].

وكانت الواجبات المترتبة عن القيام بهذه المهمة يتكلف بدفعها القائد بعد أخذها من الغرماء الموسرين: "... وعليه فنأمرك أن تدفع له سخرته على ذلك مائة ريال، وحزها من الغرماء الموسرين الذين أدوا ما عليهم من ذلك"[316]

كما توجه أحد أعوان المخزن، وهو الشريف سيدي عثمان ولد لالا نفيسة، "... لفصل قضية الديون التي كانت على بعض المخالطين من إيالة القائد عيسى ابن عمر، وقام في ذلك على ساق، وفاصل أرباب الديون ولم يبق إلا ما قل "[317]. ثم ورد بعد ذلك الكاتب المنيعي فأحضر بعض الغرماء، واستفهمهم بمحضر القاضي عما بقي بذمتهم، فوجد أن عددا منهم أدى ما عليه ومن تبقى منهم دفع جل ما عليه" فكتب العدول بذلك "شهادة مخالفة للواقع" وبعد رفع هذه القضية إلى السلطان المولى الحسن أكد في رسالد له بأن :

"... الحجة والشهادة هي حيازة الرسوم، بعد الكتب عليها والإبراء "[318]. وفي هذا الصدد تم إخبار باقي قواد عبدة، بأن الواجب في هذه القضية هو كتابة رسم البراءة بجميع أسماء الغرماء، وليس تمزيق الرسوم، وصدر الأمر إلى القاضي بالوقوف على تصفية باقي ديون إيالة قواد عبدة فامتثل القاضي للأمر، وأخبر"... بتصفية ديون إيالة ابن عمر والشافعي، ولم يبق على إيالة الحافظي إلا نحو 5000 ريال[319] ومقابل قيام القاضي بهذه المهمة، طالب الأجرة له وللأعيان والعدول ولأجرة الرقاص"[320].

وأصبح فيما بعد يتملص القضاة من كتابة رسوم المخالطة، بناء على التوجيهات السلطانية، وبعث الطريس في هذا الصدد، كتابا إلى عامل أسفي حمزة ابن هيمة، ومعه نسخة من شكاية تجار الإنجليز بأسفي، يذكر فيه أن القاضي والعدول يمتنعون من كتابة رسوم المخالطة، وذلك لأن القاضي كان يمنع العدول من ذلك، حسب ما صرح به العدول أنفسهم، ولما تكلم تجار الإنجليز باسفي مع " القاضي في ذلك أجابه بأنه ورد عليه كتاب شريف اشتمل على ضوابط هذا"[321] وتخوف الطريس من أن يؤدي "أمر منعهم من الضمان" إلى تأويلات تجر على المغرب بعض المشاكل وتتهمه بخرق الشروط[322].

---

[315] - جازة الصن الثاني للوثائق: رسالة بتاريخ 20 جمادى الثانية 1305.
[316] - نص الرسالة.
[317] كناش رقم م 152/خ.ح.ر/ص50 - رسالة بتاريخ 22 شوال 1306.
[318] - نص الكناش/ خ.ح.ر./50 - رسالة بتاريخ 22 شوال 1306.
[319] - نص الكناش: ص 79 رسالة بتاريخ 6 قعدة 1306.
[320] - نص الكناش/ ص79 - رسالة بتاريخ 2 حجة 1306.
[321] - نص لرسالة أعلاه.
[322] - كناش رقم 166/خ.ح.ر./ص 10 - رسالة بتاريخ 19 جمادى الثانية 1307.

الباب الثالث

عيسى بن عمر العبدي قائدا كبيرا
- فترة القيادة الكبرى -
(1908-1886)

الفصل الخامس
عيسى بن عمر العبدي قائدا كبيرا
- فترة القيادة الكبرى -
(1908-1886)

I- امتحان قدرة القائد، وتأكيد جدارته

1- انتفاضة كادت أن تنال من مكانة القائد

أ- الظروف العامة المحيطة بالانتفاضة

لما مات السلطان مولاي الحسن سنة 1311هـ/1894م دبر الحاجب أحمد بن موسى بيعة ابنه الأصغر مولاي عبد العزيز وتمكن الحاجب، بما كان له من نفوذ داخل القصر وعلى الجيش من " إسقاط الوزراء الجامعيين، والزج بهم وبأشياعهم في السجون"[323] ثم صار يظهر نفوذه لدى السلطان بحجبه له وتقدمه للأمور المهمة، حتى تيقن بذلك العمال وكبراء الجيش، فمالوا إليه[324] وتأكد للجميع ما كان للحاجب من أهلية للقيام بالأمر دون غيره"... من كون الملك لا يمكنه تنفيذ شيء إذ ذاك، ولا له معرفة وتبصر لصغر سنه، حيث لا يتجاوز اثنتي عشر سنة"[325] وإذ ذاك نصب نفسه وصيا على السلطان.

أما قبائل الحوز، وبالأخص منهم قبيلة الرحامنة "...فقد امتنعوا عن الدخول فيما دخلت فيه الجماعة معتلين بصغر سن مولاي عبد العزيز، واستبداد الوزير بالأمر لتعليه

[323] - غريط محمد: فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان - فاس 1947. ص 287.
[324] - الحجوي محمد بن الحسن: تقاييد تاريخية م.خ.ع.ر. رقم 128 ح/ص 21.
[325] - نفسه: تقاييد تاريخية نفس الصفحة.

عليه"[326] واتفق رأيهم على مبايعة مولاي محمد بن مولاي الحسن، وشقوا عصا الطاعة: "وامتدت أيدي القبائل لنهب ديار العمال بالبادية وتخريبها، وسبي نسائهم وأولادهم، وهتك عوراتهم في أخبار يطول شرحها ويتحاشى ذكرها"[327]. خصوصا وأن المخزن بفاس كان منشغلا بإعادة ترتيب جهازه، وأن جل قواد الحوز كانوا في غيبة عن قبائلهم، بصحبة السلطان في فاس، وهذا ما جعل" ... الحوز كله خاض في الفساد والإفساد، ولم يسلم أحد منهم من الدخول في زمرة الفساد"[328] ولما تأكد السلطان من خطورة الحالة، أرسل العمال والقواد"... بقصد أن يطفئوا نار الفتنة بالقبائل، فكان مجيئهم هو عين الفتنة"[329] إذ انتقلت حالة التمرد إلى قبائل دكالة وأزمور، فما إن وصل قواد الحوز إلى أزمور، حتى اعترضتهم القبائل "..ولم يكن الجواز لمخافة السبل جدا، فبعضهم قطع لمراكش على خطر عظيم، وبعضهم بقي بأزمور"[330] وكان من بين العائدين قواد عبدة، الذين صدتهم قبائل دكالة بأزمور، ومنعتهم من المرور، باستثناء"... القائد الحاج محمد بن الثمار العبدي (قائد قبيلة العامر) فإنهم تركوه جاء لداره في الأمان لما كان عليه من حسن السيرة والعفة، فلم يقع له ولداره شيء"[331] أما القائد عيسى بن عمر، فبقي محاصرا مع بقية القواد الآخرين، فعرج الطريف إلى أن وصل إلى إيالته.

ب - الظروف الخاصة بعبدة

كان طبيعيا أن تتأثر عبدة بالظروف العامة التي عرفها الحوز، من جراء انتفاضة الرحامنة، وأن تعرف بدورها أحداثا مماثلة، خصوصا وأن قوادها كانوا غائبين عن قبائلهم، وفعلا فقد قامت قبيلة الربيعة ضد قائدها الشافعي بن الحافظي، الذي كان غائبا إلى فاس" ... فهدموا داره وهتكوا حريمه وفعلوا الأفاعيل التي تستحيي منها الإنسانية"[332].

وكان القائد عيسى بن عمر، يتوقع أن يجد من قبيلته، وأن يقع بداره وأهله، ما وقع لأمثاله، لكن بعد عودته، وجد قصبته في أمان وعلى أحسن حال: "...فأظهر للقبيلة كل انعطاف ورضى، وجزى كبراءهم عن حسن استقامتهم خيرا... وسرح المساجين وألان الكلمة وخفض الجناح..."[333].

لكن سرعان ما ظهرت أحداث داخل إيالة القائد عيسى بن عمر بعد قيام أولاد زيد وهم فخدة من قبيلة البحاترة بتمرد ضد القائد، وذلك بتاريخ 12 محرم 1313هـ/يونيو 1895م.

ج - أسباب انتفاضة أولاد زيد

إذا حاولنا عزل أسباب هذه الانتفاضة، عن الأجواء العامة التي كانت تعيشها القبائل، من جراء سياسة القواد، وممارستهم لشتى أنواع التعسف والنهب والابتزاز، وتقصينا

---

326 - المشرفي محمد لغريسي، الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية م.خ.ع.ر. / رقم 1463د/ص339
327 - بناني عبد القادر بن محمد، تلخيص ما عليه المعول في أخبار من بالمغرب من الدول م.خ.ح. رقم ز 1027/ص 46.
328 - بن حمدون الحاج أحمد بن محمد: الدرر الإبريزية في المناقب العزيزية/ الظهير الخامس م.خ.ح. رقم
329 - بناني مذكور، ص 52.
330 - نفسه.
331 - الكانوني محمد بن أحمد: علائق أسفي ونواحيها بملوك المغرب. م. خاص (مرقون) ص 108.
332 - نفسه، علائق أسفي ونواحيها بملوك المغرب. م. خاص (مرقون) ص 108.
333 - الصبيحي السلاوي : فظائع عيسى بن عمر م. خ.ص/ رقم 463ص 3.

الأجواء الخاصة، التي كانت تعيشها إيالة القائد عيسى بن عمر، فيمكن حصر هذه الأسباب في تحول سياسة القائد إزاء قبيلته، بسبب الحالة التي أصبح عليها الوضع داخل القبائل، مما جعل عيسى بن عمر يقف موقف الاحتراس والحذر من قبيلته و"صار يقرب غير فرقته منه، بل غير قبيلته من دكالة واحمر، ويمدهم بالخيل والسلاح احتياطا، حتى لا تقع به وبداره يوما من الأيام ما وقع بغيره"[334]. ومعنى ذلك أنه أصبح يعتمد على غير قبيلته، وكان ذلك سببا في توثر العلاقة مع فخدة أولاد زيد، حيث حاول تهميش دورهم داخل القبيلة، خصوصا بعد أن أمر "...بتجريدهم من الخيل والسلاح..."[335] ولعل هذه المبادرة إن كانت تستهدف إضعاف أولاد زيد لكنها تتناقض مع الأعراف والتقاليد، التي كانت لدى القبائل، حيث أن الخيل والسلاح يعد إحدى دعائم القبيلة، ولا يمكنها التخلي عنها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن فرقة أولاد زيد، كانت قوية، بموقعها الممتد على طول الساحل المحادي للمحيط، وعلى اتصال بمدينة أسفي، ولها ميناء طبيعي هو كاب كانتان[336] وكانت تتوفر على ثروات فلاحية هامة بسبب خصوبة تربتها، وامتدادها على طول منطقة "الحصبة" هذه العوامل جعلتها مرشحة لمواجهة القائد عيسى بن عمر. فأعلنت العصيان، وانتفضت ضد القائد بزعامة الشيخ الحاج محمد ابن ملوك" فاجتمعوا بشاطئ البحر وتحصنوا بحصن كاسين.. فالتجأوا إليه"[337] وكتبوا إلىالسلطان المولى عبد العزيز يطلبون منه بواسطة عامل أسفي حمزة ابن هيمة، نزع القائد عيسى بن عمر من الولاية عليهم، وتولية غيره مكانه، وصاروا يغيرون على عزبان (ج. عزيب) أعوان القائد، ويتصلون كذلك مع الخارجين عليه... وحرق الزروع للجانبين يتكرر"[338].

د - المواجهة بين القائد وأولاد زيد

حاول عيسى بن عمر أن يواجه الموقف في البداية بنوع من الليونة، " فأرسل إليهم في الصلح والهدنة، فلم يقبلوا، فواجه انتفاضتهم بأن وجه لهم جموعا من دكالة، وإخوانه ثمرة... للاقتصاص منهم"[339] ووقعت بين الفريقين مقاتلات كانت بدايتها قرب مكان تحصينهم" بكاسين" "... فأذاقهم القائد أليم العذاب والنكال حتى أجلاهم عن السور المذكور، وهدمه بالفؤوس حتى صيره حصيرا..."[340] وفر شيخ أولاد زيد الحاج محمد بن ملوك لأسفي، واحتمى بضريح الشيخ أبي محمد صالح، فبعث له القائد وأمنه وعاهده بالضريح المذكور"[341] وتجب الإشارة إلى أن الحاج محمد بن ملوك هو صهر القائد عيسى بن عمر فقد تزوج القائد إحدى بناته وهي السيدة البيضة"[342].

لكن أولاد زيد اجتمعوا من جديد، وقرروا متابعة القتال ضد عيسى بن عمر فجاءوا لعامل أسفي "حمزة بن هيمة بثور هدية، على أن يأذن لهم في شراء البارود والرصاص من أسفي، فلم يأذن لهم في شيء" ومع ذلك استمرت انتفاضتهم، وتعددت المجابهات بين

---

[334] - نفسه: فظائع عيسى بن عمر م. خ.ص/ رقم 463 ص 3.
[335] - نفسه: فظائع عيسى بن عمر م. خ.ص/ رقم 463 ص 3.
[336] - أنظر الخريطة (موقع فخدة أولاد زيد ضمن قبيلة البحاترة).
[337] - "كاسين" عبارة عن سور مستدير وهو من بقايا التحصينات البرتغالية (أنظر الكانوني أعلاه ص 108).
[338] - الكانوني مذكور
[339] - الصبيحي فظائع مذكور، ص 3.
[340] - الكانوني: مذكور، ص 108.
[341] - الصبيحي: مذكور، ص 3.
[342] - رواية شفوية حدثنا بها السيد عبد السلام ابن عيسى.

الفريقين في عدة جهات من قبيلة البحاترة" منها وقعة فليفل هلك فيها من أولاد زيد العدد الكثير، ثم وقعة "المكادم" هلك فيها من شيعة القائد عدد كبير، ثم كانت له الكرة عليهم، حتى التجأوا لناحية أسفي..." ولما انتقلت المجابهة لضواحي أسفي، اضطر القائد إلى مكاتبة السلطان، وإخباره بعصيان وتمرد أولاد زيد، ودخولهم لرباط أسفي واحتمائهم به، وفي رسالة جوابية من السلطان ما يوضح فحوى رسالة القائد إذ يقول : "... وجهت خليفتك للربط قرب الفساد المذكورين، وصار يضرب عليهم كل يوم، وهم يتمتعون بالأجراف وأسفي، ويختفون لقطع الطرق... ولازالت توجه الخيل للضرب عليهم... وكان جواب السلطان هو، العمل من أجل وقف انتفاضة أولاد زيد.

هـ - تأثير الانتفاضة على سكان مدينة أسفي

لما انتقل مجال المعركة لضواحي أسفي، أصبح سكان المدينة على حذر، فعبأ العامل حمزة بن هيمة سكان أسفي، وجعل" العسة على الأبواب والأبراج..." لوقف أعمال النهب والسرقة، وكانت شيعة القائد عيسى بن عمر تذهب" بمواشي أهل أسفي وأموالهم، عدا مال الحاج عبد المالك الوزاني "فاختنق بفعل ذلك سكان أسفي، وقام أعيانهم مع عاملهم يلتمسون من أولاد زيد الصلح مع قائدهم، فلم يقبلوا صلحا، وصمموا على قتاله، فطالب منهم سكان أسفي الابتعاد عن ناحية أسفي، حيث نزولهم تسبب للأسفين في نهب أموالهم، فنهض أولاد زيد، ونزلوا موضعا من أسفي، وقامت جل الأفخاذ بأسفي، كآل غياث وأولاد سلمان، والمحارير وأولاد الحسن، وغيرهم بمضايقة أولاد زيد، مما جعلهم في وضعية مطاردة، فاشتد أمرهم، وشنوا الغارات على كل من لم ينخرط في انتفاضتهم، وفقدوا بذلك أي سند أو تعاطف مع انتفاضتهم، وهذا ما سهل مأمورية القائد في القضاء عليهم، فقام بمطاردتهم، وتوالت هزائمهم "بالضريضرات" وغيرها، وقتل العديد من رؤسائهم وتخاذل بعضهم، فكان ذلك من العوامل التي أدت إلى انتكاسة انتفاضتهم، وانحيازهم من جديد لناحية أسفي.

2 - المخزن المركزي دعم موقع القائد للقضاء على الانتفاضة:

أ - تدخل المخزن لوقف انتفاضة أولاد زيد

لم يكن المخزن المركزي ليقبل استمرار انتفاضة أولاد زيد ضد ممثليه المحليين، فكتب السلطان المولى عبد العزيز للقائد عيسى بن عمر، وأعطاه كل الصلاحيات لوضع حد للانتفاضة " حيث لم يحصلوا إلا على وقوع انكره عليهم، كلما قاموا للقتال"[343]. كما ورد الأمر السلطاني إلى عامل أسفي حمزة بن هيمة، والأمناء والأعيان، ليتوسطوا من أجل الصلح بين القائد وفخدة أولاد زيد.

قام عامل أسفي واحضر "..لذلك رؤساء عبدة وعمالها وحمير واستدعوا رؤساء الفتنة لحرم الشيخ أبي محمد صالح، فاصطلحوا معه، وتفرق الناس وآمنت السبل"[344] لكن ذلك لم يدم أكثر من شهر، حيث قام أولاد زيد من جديد، واعتبروا أن الصلح بمثابة خذلان أو تراجع عن موقف مبدئي، فقام فيهم رجل يدعى" الحاج عبد القادر البونيني" في ثمانية من عشيرته، فحرضوا أولاد زيد على القيام من جديد ضد قائدهم، وأوقدوا نار الفتنة مرة أخرى،

[343] - جائزة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات لسنة 1978/ إقليم أسفي ميكرو فيلم خ.ع ر. رسالة بتاريخ 24 جمادى الأولى 1313.
[344] - الكانوني: مذكور، ص 109.

وتذكر الرواية الشفوية، أن أولاد زيد استغلوا فترة الصلح فتزودوا بالسلاح عن طريق كاب كانتان، وهذا ما حركهم للعودة إلى القتال، فتجهزوا قاصدين الانتقام من عيسى بن عمر[345]. وزاد من حميتهم ما كانت تذكيه فيهم " الشيخة حويدة" [346]من حماس على الثبات والقتال:

أنـــا عـبـــد لعـــبــــــدة	وللــي عـيـــــــــــــــــى لا
نوضا نوضا حتى لبو كشـــور	نوضا نوضا حتى لدار السي قـــدور
دار السي عيسى كالو خـــلات	راهـا مـقـابلـــــة للمعاشـــــات

فلما رأى عيسى بن عمر أن أولاد زيد عادوا من جديد لانتفاضتهم وبحماس أكثر، كتب للسلطان المولى عبد العزيز يطلب منه الدعم والمساندة للقضاء على انتفاضتهم، وتركزت مطالبه على النقط التالية:

* الإنعام عليه بالعتاد الحربي من " قرطاس مارتيني: Martini Henry وساسبو Chassepot على أن يؤدى ثمنه في وقت اليسر.

* إصدار أمره إلى عامل أسفي بتثقيف دور أولاد زيد، التي بالمدينة وحسم موضوع صراعه مع " القاطنين منهم بحرم أبي محمد صالح".

* إصدار الأمر لعمال دكالة، بشد عضده وإعانته[347]. فأجابه السلطان لمطالبه، وكتب لأمناء مرسى الجديدة بتاريخ 19 ربيع الأول عام 1313هـ/1895م يأمرهم بتوجيه خمسين مكحلة، من نوع مرتيني، وعشرة آلاف قرطاسة بثمن قدره ألف وثلاثمائة ريال، على أن يؤديها القائد وقت اليسار[348] كما كتب لعمال دكالة بموازرته والوقوف معه ضد الفساد يدا واحدة، وأوعز لعامل أسفي حمزة بن هيمة، بتثقيف دور أولاد زيد بأسفي. وتوفر بذلك للقائد عيسى بن عمر إمكانية القضاء على الانتفاضة، فجهز حملة مدعمة بمحاربين من دكالة، وهجم على أولاد زيد، فالتجأوا مرة أخرى إلى أسفي، ونبحوا على الأبراج بأسفي، وبالمرسى، وعلى القائد حمزة ابن هيمة، طالبين الكتب للسلطان بأن يستعمل عليهم عاملا آخر غير القائد عيسى بن عمر، وتدخل مرة أخرى أعيان أسفي، ووجهاء عبدة، بمن فيهم القائد الحاج العربي الثمار، وطلبهم في الصلح مع قائدهم، فلم يقبلوا منه كلاما، بل شرعوا في إقامة الكمائن، وتفرقوا على خمسة عشر مكمنا وقاوموا بشدة"... فجعلوا يهجمون على الناس ويأتون بأموالهم، فتباع برباط أسفي بأبخس الأثمان ويرغمون الناس على مساعدتهم، فانسدت الطرقات، وانتشر الفساد، وحاصروا أسفي، وقطعوا عنه الواردات حتى ضاق الأمر بأهل أسفي، وخصوصا من فيه رائحة البادية، فإنهم يقبضون عليه ويأتون به إلى موضع سموه "بالمجزرة" ويقتلون الناس فيه صبرا إلا من فدى نفسه بالمال يطلقونه، و إلا فيقتلونه، ونهبوا دولة البقر لأهل أسفي، وانتهبوا كل ما يجدونه بأطراف المدينة[349]. وكتب عامل أسفي

[345] - رواية شفوية أفادنا بها أحد الرجال المسنين من قبيلة عبدة.
[346] - الشيخة حويدة: إحدى المغنيات التي كانت تحمس بأغانيها أولاد زيد وسميت بحويدة تصغير حادة ولا زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ ببعض قصائدها التي يطلق عليها اسم قصائد (الحصبة).
- بوكشور: بئر عزيز المياه كان يغذي قصبة القائد بالمياه.
- السي قدور: أحد حراس قصبة القائد وكانت داره خلف قصبة القائد
- المعاشات: إحدى الأضرحة المقابلة لقبة القائد.
[347] - الكانوني: مذكور، ص 109-110.
[348] - نفسه، ص 110.
[349] - نفسه، ص 110.

إلى السلطان المولى عبد العزيز يوضح له ما آل إليه أمر المدينة، فأصدر أمره بشد عضد القائد عيسى بن عمر للقضاء على انتفاضة أولاد زيد، وحسم مادتها فتم التنسيق بين عامل أسفي والقائد عيسى بن عمر لتطويق أولاد زيد داخل أسفي، فقام عامل أسفي بتعبئة أهل أسفي، فوزع خمسمائة مكحلة سباسبو فيمن يعرفه من أهل النجدة والحزم[350]، واتفقوا على ضرب أولاد زيد من داخل المدينة، في حين تولى القائد ضربهم من خارج المدينة، فما شعر أولاد زيد إلا والرصاص ينهال عليهم من كل جهة، إلى أن التجأوا إلى مقبرة رباط أسفي، فدامت المقاتلة بينهما مدة ساعات انهزم خلالها أولاد زيد، والتجأوا إلى حرم الشيخ أبي محمد صالح والمسجد، وانتهز القائد فرصة فرارهم وإجلائهم عن أماكنهم، فهدم منازلهم وأحرقها.

وتبرز إحدى قصائد "الشيخة لحويدة" درجة المعاناة التي عانى منها أولاد زيد، وإجلائهم:

اللي ما عزاني في كبيدتي انعرفوا يكرهنـــــــــي

اتعالى اتعالى نسولك أداك الغــــــــــادي

اشكون سبابي حتى خرجت بـــــــــلادي

ثم تزيد فتقول :

راعي الخاوة كلشي يفوت وتبقى العداوة أقايدي

ارجانا في العـــــــالي [351]

وبعد اشتداد الأمر تدخل عامل أسفي، ودعى الطرفين لإيقاف القتال والاحتكام إلى المفاوضة والصلح، فاقترح عليهم العامل بن هيمة أن يكون مكان اجتماعهم بمخزن لأحد التجار الإسبان وهو " خورخي الإسبان".

ب - تأكيد جدارة القائد بقضائه على الانتفاضة

صدر الأمر السلطاني للعامل بن هيمة على أن يستعمل السياسة والدهاء لإلقاء القبض على متزعمي الانتفاضة، فكانت خطته هي استدراجهم لمكان التفاوض، وأثناء ذلك يلقى عليهم القبض، فخرج هو والأمناء والأعيان والعسكر، وكان معهم " حوالي اثني عشر قيدا"[352] مخصصة لاعتقال زعماء انتفاضة أولاد زيد. ثم حضر الطرفان، فمثل أولاد زيد بعض أعيانها ومتزعمي انتفاضتها، وجاء القائد عيسى بن عمر وبمعية القائد بن علال والقائد الحاج مبارك بن بوشتة الدكاليان[353] وكان القائد عيسى بن عمر مصمما على الفتك بهم، وبينما هم مجتمعون وخطيب يخطب فيهم بالصلح الذي ندب الله إليه، إذ اخترط السيد عيسى سيفه من وسطه وضرب به رأس الخطيب... وعمد كل واحد منهم إلى واحد من زعماء أولاد زيد"[354] فحصل للحاضرين من أهل أسفي روع كبير إذ لم يكن عندهم علم بذلك، وظنوا أن القائد عيسى يريد الفتك بالجميع حتى أهل أسفي[355]. ففر عامل أسفي

---

350 - نفسه، ص 110.

351 - لا زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ ببعض هذه القصائد الشعبية.

352 - الكانوني مكور، ص 110.

353 - Antona, A. La région des Abda- Rabat 1931 p 46.

354 - الصبيحي: فظائع، ص 5

355 - الكانوني: مذكور، ص 111

والأمناء والأعيان من أعلى السور، ووقع ازدحام الناس على الباب من كثرة الفزع وتراكم الناس عليه، واختلط الحابل بالنابل حتى كان الناس بالباب على نحو أربع طبقات، ومات بالازدحام خلق كثير[356]. واحتفظت الذاكرة الشعبية بهذا الحدث تحت اسم " عام الرفسة" وزاد في الفتنة قيام أهل أسفي بالضرب على كل من رأوه من أهل البادية من أعلى الأسوار، وتم الفتك نهائيا بأولاد زيد، الذين حاصرهم القائد عيسى بن عمر من جميع الجهات إلى أن أباد الكثير منهم، وذلك في عشية 15 جمادى الأولى عام 1313هـ/أكتوبر 1895م.

وفر العديد منهم إلى جهات متفرقة من البلاد، فتابعهم القائد، واعتقل الكثير منهم، حيث بلغ عددهم ثمان مائة رجل، فرقوا بسجن أسفي ومراكش والصويرة والرباط وغيرها"[357] ومن بينهم الحاج محمد ابن ملوك" الذي بعثه إلى سجن تطوان، فبقي هناك إلى أن مات"[358] . وقد أمعن القائد في القتل وتفنن في التنكيل بالفارين من أولاد زيد.

ومازالت الذاكرة الشعبية تحتفظ بأصداء هذه الانتفاضة ونهايتها المأساوية، التي اعتبرت إحدى البصمات السوداء التي التصقت بالقائد عيسى بن عمر، ولعل هذا السلوك العنيف والمطلق الذي مارسه القائد ضد الانتفاضة، كان مدعوما بتأييد المخزن المركزي، حيث أصدر السلطان المولى عبد العزيز أمره ببيع دور أولاد زيد التي باسفي، وذلك بتاريخ 24 جمادى الأولى 1313 هـ/1895م.

كما كان لهذه الحادثة أثر في نفسية الأوربيين المقيمين باسفي، حيث تملكهم الخوف والفزع، وخافوا أن ينقلب الوضع ضدهم "... ولزم الأوربيين السكينة وقد يكونون انقدوا حياتهم بذلك"[359].

كما بادرت الدول الأوربية بإرسال أساطيلها البحرية إلى مياه طنجة، مترقبين ما عسى أن يحدث لرعاياهم... فكانت سفنهم راسية لذلك ببحر المغرب"[360].

لقد تحمل القائد عيسى بن عمر الكثير من المشاق للقضاء على انتفاضة أولاد زيد، كما تحمل الكثير من النفقات لمواجهتها، ويكفي أن نشير إلى مبلغ الديون التي أصبحت على القائد من طرف المخزن المركزي مقابل إمداده بالعدة العسكرية، والتي طالبه المخزن بتسديدها بعد مرور سنة فقط على انتهاء الانتفاضة، ففي إحدى الرسائل الصادرة عن السلطان المولى عبد لعزيز بتاريخ 2 قعدة 1314هـ/1896م يأمر القائد بتسديد هذه المبالغ وهي "... ثمانية وعشرون ألف وثماني مائة ريال وسبعة وخمسون ريالا ونصف (28857.5) وقد أثبتت عليك من ذلك في ورقة حسابك خمسة وعشرون ريالا وأربعمائة ريال وتسعة وخمسون ريالا (25459)..."[361].

ويبدو أن هذا المبلغ ضخم، وأن القائد ملزم بإرجاعه في وقت وجيز "... ويأمرك مولانا أعزه الله أن تدفع الثلاثة والثلاثين مائة ريال والثمانية والتسعين ريال

---

[356] - نفسه، ص 111
[357] - نفسه، ص 111.
[358] - أنطونا: مذكور، ص 46
[359] - بن جلون عبد المجيد: جولات في مغرب أمس (1901) ترجمة وتلخيص لكتاب فرنسيس مكنب، مكتبة المعارف (ب.ت) ص 103 و 104.
[360] - الكتاني: مذكور، ص 112.
[361] - كناش الرسائل الصادرة عن السلطان إلى بعض الأمناء والقواد بتاريخ 1314 خ.ح.ر./رقم 429 ص 109 رسالة من السلطان مولاي ع. العزيز إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 2 قعدة 1314هـ.

ونصف(33890.5) التي هي بقية العدة المتوفرة حالا، فوجه ذلك ليحل محله عاجلا عن الأمر الشريف"[362] .

ولعل هذا يوضح مقدار ما تحمله القائد عيسى بن عمر من نفقات في مسألة الذخيرة فقط دون الحديث عن بقية الخسائر الأخرى.

وعلى الرغم من حجم هذه المصاريف لم يصب القائد بالإفلاس النهائي بل توفرت لديه الإمكانيات المادية، وبالأخص منها السلاح الناري الذي أصبح لديه لمواجهة أي انتفاضة محتملة داخل القبيلة، لذلك يمكن القول بأنه رغم عنف الانتفاضة وما كلفته من مشاق، فإنها مع ذلك قدمت له فرصة مواتية لتدعيم موقعه، وتركيز جدارته وقوته، ومكنته من تحقيق مطمحين:

1- مطمح المخزن المركزي الذي كان يسعى لتهدئة الأحوال في اتجاه إقرار الأمن عن طريق قائد قوى يؤكد جدارته في الظروف الصعبة.

2- مطمح يخدم مصلحة القائد في توسيع نفوذه وامتداد قيادته، لتشمل كل قبائل عبدة، ولقد أكد فعلا جدارته بعدما توفرت له الشروط المعنوية والمادية، وأصبح يتمتع بثقة السلطان المولى عبد العزيز، وحظوة وزيره أحمد بن موسى - "أبا حماد - ".

II- اعتماد المخزن على القائد لمواجهة المهام الصعبة داخل عبدة وخارجها

1- ارتباط القائد بالوزير الوصي أحمد بن موسى

كانت فترة وصاية الوزير أحمد بن موسى، تتميز بنهج سياسة " تضعيف القبائل وإطلاق أيدي العمال بالسلب والنهب لأجل أن يأتوه بأيديهم عامرة ليعمر خزينته"[363] وتسبب ذلك في ظهور شتى أشكال الظلم والجور والتعسف. وكان على القائد بدوره أن يجمع الأموال، ويدفع أغلبها للوزير أحمد بن موسى:

"... لعلمه بأن الغرض لا يقضي إلا على يده وبإذنه... ومع ترامي الناس على بابه كل يوم... ولا يقبل إلا الذهب الخالص في ذلك أو ما يقوم مقامه من التحف..."[364].

وأكثر الحاجب من زبنائه، وبالأخص منهم قواد الحوز، وبسبب ذلك طغت سياستهم، وتزايدت شراستهم لتجميع الثروات قصد حماية مناصبهم، أو الإقدام على شراء مناصب أخرى لتوسيع دائرة نفوذ إيالتهم ومني الحوز آنذاك" ... بعمال مستبدين، فانصبوا على الرعية يرهقونها ظلما وجورا، ويمطرونها نهبا وتعسفا، فسفكت الدماء بسبب وبلا سبب"[365]

ونتيجة للعلاقة التي كانت للقائد عيسى بن عمر بالوزير أحمد بن موسى منذ عهد السلطان المولى الحسن، حيث"... كان القائد ملحوظا لدى الحاجب ومن بين حاشيته، وينعم بثقة كبيرة من طرفه... فكان عيسى بن عمر لا يبخل عن تقديم كثير من الهدايا التي كانت تبهر البلاط"[366]

---

[362] - نفس الرسالة أعلاه.
[363] - الحجوي: تقاليد تاريخية، ص 25.
[364] - المشرفي:الحلل، ص 412.
[365] - الكانوني: أسفي وما إليه، ص 156.
[366] - FRESNEAU – L'unification Makhzen, ou le Caid Aïssa ben Omar. (C.H.E.A.M.).

وصار يعتمده الحاجب في كثير من القضايا التي تهم قبائل عبدة، وأصبح القائد بعد ذلك يتصرف بشكل مطلق، خصوصا بعد نجاحه في القضاء على انتفاضة أولاد زيد، وما أصبح بيده من أسلحة نارية وصادف ذلك أن توجيهات المخزن المركزي كانت تؤكد على تحقيق هيبة المخزن، وذلك عن طريق تدعيم مركز القواد المحليين. وفي هذا الصدد أمر لسائر القواد والعمال، ومن بينهم القائد عيسى بن عمر وذلك سنة 1313 هـ/ 1895م يقول:

"... فطالما أصدرنا أمرنا الشريف لك ولغيرك من العمال بشد عضد بعضكم بعضا... ولن يكون كل عامل منكم إعانة للآخر... والكون معه يدا واحدة... دفعا للمضرة التي تلحقكم... لأن ذلك هو سبب ما وقع من انعكاس الأمر على بعض العمال التي مدت أيدي الفساد إلى ديارهم بانتهاب الحرمة وانتهاب الأموال... وأصل ذلك كله هو الركوب إلى سقاطة الطمع التي يكذبون بها على العمال فيدافعون عنهم لأجلها مدافعة تدليس وإخلال... فما زال العمال بخير ما تعاضدوا على الصلاح والنصيحة وتعاونوا بسيرة حميدة ونية صحيحة، وتظافروا على سد الذاريع، ودفع المضار وجلب المنافع فتباتكم على هذا هو الكفيل بحصول الاستقامة المقصودة فيكم وبكم، وإلا فمن تساهل في أمر وتراخى في فتح باب الضرر، فإنما فتح على نفسه..."[367].

ولا شك أن هذا التوجيه المخزني، كان بمثابة دعوة تسعى إلى إعادة تقوية جهاز المخزن المحلي الذي أصيب بهزة عنيفة من جراء الأحداث التي عاشتها مختلف جهات الحوز، بعد موت السلطان مولاي الحسن، وقيام انتفاضة الرحامنة وما تلاها. والمخزن بذلك كان حريصا على إعادة الاستقرار وتثبيت الأمن داخل القبائل، إذ لم تكن الحالة العامة بها، قد استقرت بشكل نهائي، حيث لم تزل أعمال النهب وقطع الطرق مستمرة، لذلك أصدر المخزن المركزي أمرا معمما إلى سائر قواد الحوز، ومن ضمنهم القائد عيسى بن عمر، وذلك سنة 1314هـ/1896م يقول فيه:

"... فمما شاع وذاع، وملأ الأسماع أن ... بعض صعالك إخوانكم اشتغل بالضرب على دواوير الضعفاء ليلا ونهب أموالهم أثاثا وأنعاما وخيلا، وربما أدى ذلك إلى قتل الرجل لأجل المدافعة عن حريمه وماله، زيادة على هتك عرضه في سائر أحواله وكل هذا بمرأى ومسمع من غير نكير ولا مدفع كأنكم آمرون لهم بذلك مغرون لهم على بشيع هاتيك المسالك، ومن رفع إليكم من الضعفاء ظلامته لم يحصل إلا على شماتته، وفنى إن لم يتغافل عن حقه بهيكلته لابد، ولن يعطى على رد متاعه عطية ربما أدى عنه ما لا يساويه، ان لو كان يباع، حيث أن كلا من السارق وواسطة مشدود العضد على حيازته ذلك المتاع، وكل ذلك محرم شرعا، ممنوع عقلا وطبعا... وعليه فنأمرك بالقيام على الجد في البحث عن هؤلاء الفساد، وإحصائهم بأسمائهم وأنسابهم والقبض عليهم وتوجيههم لأعتابنا الشريفة في أكبالهم، وهذا أول إنذار لك في هذه القضية، فإن قمت لتنفيذها على ساق بالكل والكلية، فقد استبرأت لدينك وعرضك، وإلا لم يبق فرق بين التابع والمتبوع وبحثت عن حتفك بظلفك..."[368].

[367] - كناش خلاصة الرسائل الصادرة إلى بعض الأمناء والقواد (1313-1314هـ) خ.ح.ز/رقم 422/ ص 25 رسالة عممت على سائر العمال والقواد بتاريخ 3 حجة عام 1313.

[368] - كناش: رسائل صادرة عن السلطان في شأن تعيين بعض الأمناء لسنة 1314 خ.ح.ر/رقم 229 الورقة 18 أنذاك 78 قائدا ومن بينهم القائد عيسى بن عمر وهي بتاريخ 4 رجب عام 1314

إن هذه الرسالة تبرز إلى أي حد استفحلت الفوضى وأعمال النهب داخل القبائل وأصبح الجهاز المخزني المحلي غير قادر على ضبط الأمن، بل كان أحيانا متورطا في مثل هذه الأعمال، حيث لم يبق فرق بين" التابع والمتبوع" ولعل صيغة الإنذار الواردة في النص استلزمت من بعض القواد ضرورة الاهتمام بالحالة الأ... داخل إيالتهم. و "...القبض على كل من هو معروف بالسرقة أو القطع وتوجيههم في السلاسل للحضرة الشريفة، فقبضوا على عدد كثير من ذلك ووجهوا لمراكش، فامتلأت السجون بهم"[369]، وبذلك عادت الهيبة من جديد إلى المخزن المحلي حيث سيطر القواد على الموقف داخل ايالتهم، وأدعنت الرعية لسطوتهم "حتى صار الرجل يبيع بيته ويأتي بما وجب عليه في الفريضة"[370].

لذلك يمكن اعتبار هذه الفترة بمثابة تركيز جديد لنفوذ القواد داخل جهات الحوز عموما، وفي هذه الفترة تألق نجم القائد عيسى بن عمر بصفة أكثر، حيث امتد نفوذه ليشمل كل قبائل عبدة وما جاورها.

2 - امتداد نفوذ القائد إلى كل قبائل عبدة

لا نتوفر على تاريخ مضبوط لنحدد من خلال ظهائر التعيين تاريخ توسع وامتداد نفوذ القائد عيسى بن عمر على كل قبائل عبدة، إلا أن لدينا من الإشارات ما يوضح أنه مارس سلطة واسعة، تجاوزت حدود قيادة البحاترة:

* فقد استطاع القائد بمساعدة المخزن القضاء على انتفاضة أولاد زيد، وتمكن بعدها من تهدئة أحوال عبدة بشكل نهائي، وهذا ما جعله مرشحا لبسط سلطته على قبائلها.

* إن القائد كان ملحوظا من طرف المخزن المركزي، وكان يتمتع بثقة الوزير الوصي أحمد ابن موسى، بل كان من حاشيته، وهذا ما يفسر كذلك انتشار نفوذه على كل قبائل عبدة.

فحوالي سنة 1896م امتدت إيالة القائد عيسى ابن عمر لتشمل قبيلتي الربيعة والعامر وأصبح بذلك قائدا على كل قبائل عبدة، ويشير "فايسجربر: Weisgerber" الطبيب الخاص للوزير أحمد بن موسى آنذاك والذي تعرف على القائد سنة 1898م أثناء إحدى حركات السلطان المولى عبد العزيز قائلا:

"...إن القائد كان في أوج قوته، وتمتد مناطق نفوذه من الوالدية إلى تانسيفت ومن البحر إلى مشارف مراكش على بعد ستين كلمترا، لكن إشعاعه كان يمتد لأكثر من ذلك على جانب من دكالة والرحامنة وشيشاوة والشياظمة وحاحا..."[371].

ومما تؤكده الوثائق المخزنية التي بين أيدينا أن القائد كانت له كلمة مسموعة لدى المخزن المركزي، وله رأي في كثير من القضايا التي كانت تطرح بالنسبة للمخزن المحلي، سواء داخل عبدة أو خارجها، وهو الذي كان يعالجها، وتبعث له الظهائر الرسمية لتصفيتها حيث"... أعطاه السلطان المولى عبد العزيز ظهائر على بياض لتسمية وخلع من يريد من القواد الخاضعين لسلطته..."[372].

---

369 - بناني: تلخيص ما عليه المعول، ص 69.

370 - الحجوي: تقاييد، ص. 25.

371 - Weisgerber, Dr : Au seuil du Maroc Moderne, Rabat 1947. P. 332

372 - نفس المراجع الفرنسية المذكورة أعلاه.

ولدينا نماذج من مراسلات، تبرز أن القائد عيسى ابن عمر كان هو الواسطة بين المخزن المركزي وبعض القواد في جهات أخرى، وهذا ما يؤكد امتداد نفوذ القائد خارج حدود عبدة، واعتماد المخزن المركزي عليه في فصل كثير من قضايا المخزن المحلي في جهات أخرى.

- فبعد قيام بعض الاضطرابات داخل إيالة القائد "احم بن سالم" بسبب سلوك أحد الأشياخ على فخدة أولاد علي والغوات، وهو الشيخ الحاج أحمد بن الطاهر الطوي، طلب القائد المذكور من القائد عيسى بن عمر أن يتدخل لدى المخزن المركزي ليأمره بالقبض على الشيخ المذكور، مقابل أن "... يؤدي لجانب بيت المال عمره الله ثلاثة آلاف ريال، يأتي بها في العيد..."[373] وفعلا أصدر المخزن المركزي أمره بالقبض على الشيخ المذكور وتوجيهه لسجن أزمور.

- ثم إن القائد قدور المولاتي، قدم عند القائد عيسى بن عمر قصد التدخل لدى المخزن المركزي من أجل التوسط لإطلاق سراح ابن عمه عبد القادر الذي كان مساعدا له في كل أمور القيادة، وهو الذي كان يتولى أمر القبض على " الفساد": "..وحيث رأت القبيلة القبض على ابن عمه وقع فيها القيل والقال بكونه غير مقبول عند المخزن" فأجابه القائد عيسى بن عمر بقوله : " أن تسريحه أولى لتسكين روعة إخوانه، وطلبت مباشرة تسريحه وصار بالبال بعد إطلاع العلم الشريف، وأمر مولانا أعزه الله بأن تواعده وحيث ترد في العيد إن شاء الله، يظهر..."[374]. وبذلك رجعت الهيبة من جديد إلى المخزن المحلي حتى سيطر القواد على الموقف داخل إيالاتهم وأذعنت الرعية لسطوتهم "حتى صار الرجل يبيع بيته ويأتي بما وجب عليه في الفريضة"

كما نعثر في رسائل أخرى، على مجموعة من القضايا، كانت تهم مشاكل قواد أخرين، عرضها القائد عيسى بن عمر على المخزن المركزي طالبا منه إصدار : "الأمر إلى القائد العياشي العبدي بأعمال الصلح مع ولده بوشعيب السعيدي، وتسريح السيد خلوق الغنيمي من سجنه، والأمر للقائد العربي ابن الشرقي المزابي بالكون على البال من إخوان القائد بو علي الفرجي، النازلين بإيالة بن خمليش، وصار بالبال بعد اطلاع العلم الشريف"[375].

وتوضح الرسالة أن الأمر بإقرار هذه المطالب كان يصل إلى القائد عيسى بن عمر، ليتولى هو الإشراف على تنفيذه "... والأوامر الشريفة بذلك تصلك صحبته"[376] وهذا تأكيد على أن القائد كان يمارس بالفعل سلطة واسعة، وكان"...على رأس إمارة حقيقية في الجنوب، وإن لم تكن القيادة ذات الأهمية القصوى في كل المملكة..."[377].

لقد كانت تدخلات القائد لدى المخزن المركزي تجد القبول دائما، فقد" طلب الإنعام على الطالب محمد بن مبارك الغندوري بجعله أمينا على إخوانه الغنادرة". ووافق السلطان على ذلك، وبعث للقائد بظهير التولية، ليتولى هو نفسه تسليمه للمعني[378] كما قدم شفاعته في

[373] - كناش رقم 429 ص 140/4 رسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 9 رمضان 1314.
[374] - نفس الكناش أعلاه مذكور ص 140/4 رسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 11 رمضان 1314.
[375] - كناش: خلاصة الرسائل الجوابية الصادرة من السلطان المولى ع. العزيز خ. ح. ر رقم 734. رسالة من السلطان إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ ذو القعدة 1315ه.
[376] - نفس الرسالة أعلاه.
[377] - أنظر فايسجربر - مذكور، ص 332 وكذلك أنطونا، ص 47 وكذلك فريزنو، ص 14.
[378] - كناش 429 مذكور رسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 23 قعدة عام 1314.

تسريح أحد المسجونين:... فقبل أعزه الله شفاعتك فيه، وأمر بتسريحه"[379] كما كان طلب شفاعة القائد في تسريح بعض المسجونين، مقبولا دائما لدى المخزن المركزي، فقد سرح عمر الطيموي بطلب من القائد. كما سرح الغندوري والمنقاري وأنعم عليهما بما تيسر من الزرع وفق طلب القائد[380].

3- علاقة القائد بالوزير المنبهي وما ترتب عنها

كان المهدي بن العربي المنبهي مقربا لدى الوزير أحمد بن موسى"...محظيا عنده وكأنه روحه، وقد جعله عاملا كبيرا على قبائل شتى، ينوب عنه في ملاقاة الناس العظام"[381]. ومنذ ذلك الحين بدأ المنبهي يطمح إلى تدعيم مركزه داخل الجهاز المخزني المركزي، وفعلا بعد موت الوزير أحمد بن موسى سنة 1318هـ/1900م عين المنبهي وزيرا للحربية وأخذ يتقرب من السلطان"... بمثل ما كان أحمد ابن موسى يمنعه منه، كأنواع الملاهي وإدخاله في إدارة الأمور، لأنه كان دائما لا يستشير سواه"[382] ثم شرع المنبهي في توسيع دائرة نفوذه داخل الجهاز المخزني، وأطلق يده في العطاء بسخاء لما كان بيده من الأموال وسرعان"... ما تكونت لديه حاشية طويلة تناهز حاشية أحمد بن موسى... وكان... يستكثر في صفوفه كل من تصل إليه قوته كقواد القبائل وغيرهم..."[383].

وكان القائد عيسى بن عمر من حاشية الوزير المنبهي، إن لم يكن من أهم دعائمه داخل قبائل الحوز، لذلك بمجرد غياب المنبهي في سفارة إلى أوربا سنة 1309هـ/1901م، وجد وزير البحر محمد المفضل غريط الفرصة مواتية لتقليص دور المنبهي وعزل كل من كان ينتمي إلى حاشيته. وفي يوم الثلاثاء 22 ربيع الأول من سنة 1319هـ/1901م ألقي القبض على القائد عيسى بن عمر وسجن بسجن مصباح، وصدر الأمر بمصادرة أملاكه، فتوجه قائد المشور قدور بن الغازي، ونزل على قصبته بعبدة في نحو"... ألف من العسكر والأمناء والعدول من أسفي والعامل حمزة بن هيمة وعمال دكالة وأزمور والجديدة...[384] ووقع بقصبة القائد النهب بعد أن فر عياله وأولاده، وتسلل المساجين من القصبة ليلا"... وانتهبوا أموالا ودخائر وذهب متاع القائد شذر مذر"[385].

ولما بلغ المنبهي خبر الانقلاب الذي وقع عليه وفي غيبته، عاد مسرعا من سفارته، وكانت تحبك مؤامرة لاعتقاله حين وصوله، لكن حاشيته بادرت إلى تحذيره قبل أن يقع في الفخ. وكان المولى عبد الحفيظ من شيعة المنبهي، فانتدب أحد أعوانه وهو إدريس منو الذي يقول: " فانتدبني مولاي عبد الحفيظ على أن أتصدى لملاقاته هناك لئلا يقع في الفخ"[386].

وبعد نزوله بالجديدة، يوم الجمعة 9 ربيع الثاني عام 1319هـ/1901م قابله إدريس منو وقت النزول وأخبره بكل تفاصيل المؤامرة، فرتبوا حيلة الدخول إلى مراكش ليلة يوم الأحد 12 ربيع الثاني من نفس السنة. "...وما علم به أحد حتى كان في داره بالقصبة، بجوار

---

[379] - كناش: خلاصة الرسائل الصادرة عن السلطان المولى عبد العزيز بتاريخ 1317 خ.ح.ر رقمه 442 رسالة رقم 54 رسالة من السلطان إلى عيسى بن عمر بتاريخ 4 جمادى الأولى 1317.
[380] - نفس الكناش أعلاه. رسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 15 جمادى الأولى 1317.
[381] - السوسي المختار: المعسول، ج 20/ص 31.
[382] - نفسه المعسول
[383] - السوسي المختار: حول مائدة الغذاء، ص 42 و48.
[384] - الكانوني: علائق أسفي مذكور، ص 112.
[385] - بليمني بوعشرين الحسن بن الطيب المراكشي: "التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب" م خاص، ص 69/ أنظر كذلك الكانوني: علائق أسفي، ص 112.
[386] - السوسي: حول مائدة، ص 43.

دار السلطان"[387] وبعد التقائه به أقنعه المنبهي بضرورة التراجع عن كل ما قرره في غيبته، وأخذ وعدا بإطلاق سراح صديقه القائد عيسى بن عمر، فصدر الأمر السلطاني بنقض كل ما أبرمه الوزير محمد المفضل غريط ومن ذلك "... تسريح عيسى بن عمر وأولاده الثلاثة. ورد أمتعته المأخوذة له كلها"[388].

وتشير بعض الكتابات الأجنبية، إلى أن القائد "... عرف كيف يجلب إلى قضيته اهتمام قناصل الدول الأجنبية، المقيمة بأسفي"[389] وإن ضغطا إنجليزيا مورس من طرف قنصلها بأسفي، لمطالبة السلطان بالإفراج عن القائد [390] فهل كان هذا الموقف بإيحاء من الوزير المنبهي لما كان في سفارته؟ أم أنه كان بسبب العلاقة التي كانت تربط القائد ببعض المؤسسات التجارية الإنجليزية بأسفي؟

ومهما يكن فإن الأمر بإطلاق سراح القائد عيسى بن عمر قد أصبح نافذا، ولما أمر بالخروج من السجن أبي إلا أن يخرج معه من كان من قبيلة عبدة المسجونين على يده، وعلى غير يده لما فعلوه معه من الخير عند سجنه[391] وتذكر الرواية الشفوية، أن بعضا من مسجوني قبائل عبدة حاولوا الاعتداء على القائد، والاستهانة به داخل السجن، إلا أن جماعة منهم، ومن بينهم بعض أولاد زيد تصدوا لهم، وقاموا برعاية القائد وخدمته طوال مدة اعتقاله التي دامت إحدى وعشرين يوما، لذلك كافأهم"... وسرحوا جميعا..."[392]. مما أعاد للقائد مكانته وسمعته داخل عبدة، وجددت له ظهائر التعيين بتاريخ 14 ربيع الثاني عام 1319هـ/1901م[393] وبعد التحاقه بقصبته، عمت الفرحة كل أرجاء عبدة، حيث لا زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ ببعض مظاهر هذه الفرحة وبعث القائد برسائل إلى كل جهات عبدة ومن بينهم جوار مدينة أسفي لأخبارهم بإعادة توليته، يقول فيها: "فإن مولانا دان علاه قد ولانا على جميع إيالتنا التي كانت عندي كافة"[394]. وتأكد للجميع بعد ذلك، أن القائد عيسى بن عمر أصبح أكثر قوة ونفوذا من ذي قبل وصار يمارس سلطة واسعة ومطلقة، مدعمة من طرف المخزن المركزي بمن فيه السلطان ووزيره المنبهي.

5- اعتماد السلطان على القائد عيسى بن عمر لمواجهة التمردات

كانت خطة السلطان المولى عبد العزيز تسعى إلى تقليص رقعة الخلاف وكسب المزيد من الأعوان خصوصا وأن الوضع الداخلي كان يعرف تأزما بسبب الضغط الأجنبي الخارجي، وما تولد عنه من اضطرابات كان أخطرها تمرد الزرهوني بوحمارة في الشمال وذلك ما دفع بالسلطان إلى اعتماد قواد الحوز لمواجهتها.

وتؤكد المراسلات المخزنية العديدة استنفار قواد الحوز، ومن بينهم القائد عيسى بن عمر.

فقد كان القائد عيسى بن عمر من أهم القواد الذين استنفرهم السلطان وبعث له سنة 1320هـ/1902م برسالة يأمره بالتعجيل في فرض العدة على قبيلة عبدة وهي:

---

[387] - بلبمني بوعشرين: مذكور، ص71.
[388] - المشرفي: الحلل، ص 423
[389] - فريزنو: مذكور، ص 14
[390] - أنطونا: مذكور، ص 47.
[391] - المشرفي: الحلل، ص 423.
[392] - نفسه: الحلل، ص 423.
[393] - وثائق خاصة بحوزتي من الظهير .
[394] - وثائق خاصة بحوزتي نسخة من الرسالة.

"... خمس عشر مائة نفر تامة كاملة مطابقة كلها للوصف المقرر لهم بقصد استخدامهم في عسكرنا السعيد، وتنظيم جميعهم على ضابطة المؤشر الحميد، وأمرناك أنت بحوز العدد المذكور منهم، وتوجيهه فورا لحضرتنا العالية بالله"[395]. وربما وجد القائد صعوبة في جمع العدد المذكور فلم يرسل منه: "...إلا إحدى عشر مائة، فبقي يخص أربعمائة" لهذا بعث له السلطان يستعجله في إرسال العدد الباقي ويأمره"... بالقيام على ساق الجد بتوجيه الخاص المذكور فورا من غير تأخير ولا توان"[396]. ووضع القائد على رأس هذه الحركة ابنيه: الهاشمي والعربي[397].

ولما توجهت معظم حركات القبائل لمنازلة بوحمارة، كان مآلها الفشل، فعلم السلطان بذلك وعاد إلى فاس، فعقد لمحمد الأمراني على حملة من جيش جرار يقدر تقريبا بخمسة آلاف مقاتل وثلاثة عشر مدفعا[398]، وأمر باللحوق بالمحلة التي هزمت ثم بعث للقائد عيسى بن عمر على وجه الاستعجال:

"فبوصوله إليك نأمرك أن تقدم لشريف حضرتنا عاجلا بجميع حركتك بحيث تبل رأسك هناك وتحسنه عندنا، فنحن في انتظارك"[399]

ولعل هذه الرسالة تطرح مسألتين:

- الأولى: وهي القدوم بحركة أخرى غير الحركة التي بعث بها القائد تحت إشراف ابنيه الهاشمي والعربي، مما كلف القائد عناء جمع حركة أخرى جديدة.

- الثانية: وهي مسألة الاستعجال بهذه الصفة وبهذه الصيغة، قصد الالتحاق بالحضرة السلطانية بفاس، وترك مقر قيادته، ولا شك أن ذلك كان من أجل مهمة مستعجلة وصعبة.

وفعلا، التحق القائد بالحضرة السلطانية بفاس واستخلف على قيادته، ابنه أحمد بن عيسى. وبمجرد التحاقه عقد السلطان: ".لعامله عيسى بن عمر على جيش من المحال الحوزية له بال ، وألحقه بهم أيضا"[400].

وهذا تأكيد على المكانة التي كانت للقائد وتقدير من السلطان لكفائته وإخلاصه، حيث وضعه على رأس كل حركات قبائل الحوز.

كما أكد القائد مرة أخرى جدارته في ساحة القتال، حيث أبان عن مقدرة وجرأة، وكان من الأوائل الذين جابهوا الزرهوني بوحمارة بعد أن: "... باداهم بالقتال أول النهار، فبعضهم ذهب إليه وهو العبدي والمنبهي، وبعضهم جلس وهم الأمرانيان ومولاي عبد الكبير"[401].

ورغم المشاق الصعبة التي تكبدها القائد ابن عمر، والحركات العديدة التي ساهم فيها بجانب بقية قواد الحوز للقضاء على تمرد الروكي بوحمارة، إلا أن فشل هذه الحركات، وعودة القواد غير المظفرة إلى قبائلهم، جعلتهم يتشككون في قدرة مخزن المولى عبد

[395] - كناش الكنوني: يضم مجموعة رسائل منسوخة وهو بحوزة الأستاذ الجليل سيدي محمد المنوني الرسالة بتاريخ 28 جمادى الثانية عام 1320.
[396] - نص الرسالة أعلاه
[397] - أنطونا: مذكور، ص 47.
[398] - الحجوي.: تقاييد مذكور، ص 33.
[399] - رسائل خاصة توجد منها بحوزة الأستاذ الجليل سيدي محمد المنوني. الرسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 22 جمادى الأولى عام 1321.
[400] - ابن زيدان عبد الرحمان: إتحاف، ج1 ص 403. انظر كذلك الحجوي: تقاييد، ص 33.
[401] - الحجوي: تقاييد، ص 33.

العزيز[402]، مما ستكون له نتائج ومضاعفات على سير الأحداث في الجنوب عموما، ومع ذلك بقي القائد عيسى بن عمر مخلصا للسلطان المولى عبد العزيز.

6-امتداد نفوذ القائد وتوسع سلطته

بمجرد عودة القائد إلى إيالته، كافأه، السلطان بتعيينه عاملا على مدينة أسفي، وأعاد له النفوذ الذي كان له على بعض قواد الحوز[403] وإذا كنا لا نتوفر على ظهائر تحدد بالضبط تاريخ توليه هذه المسؤوليات، إلا أننا نعثر على بعض الإشارات تؤكد ذلك:

- فبالنسبة لتوليته عاملا على أسفي، لدينا من الرسائل الصادرة عن دار النيابة بطنجة باسم محمد بن العربي الطريس ما يؤكد تسميته عاملا بأسفي، وأول رسالة عثرنا عليها بهذا الإسم ترجع إلى تاريخ 25 جمادى الأولى 1321[404] إلا أن رسائل أخرى اكتفت بتسميته قائد أسفي السيد عيسى ابن عمر العبدي[405]. ومهما يكن فإن سلطة عيسى ابن عمر، قد امتدت إلى مدينة أسفي، وأسند أمرها إلى ابنه أحمد بن عيسى، الذي عينه خليفة له على أسفي، وضمن بعض الرسائل العائلية الخاصة نعثر على هذه الإشارة:

"خالنا الأبر الأرضى الفقيه السيد الطاهر بن أحمد... وبعد وصلنا كتابك الأعز بأنه تطرق سمعك بالتولية على أسفي، وفرحت بذلك غاية لا شك عندنا في محبة الخير لجنابنا، لأننا وإياك من باب لا فرق، وعدم إخبارنا لك بذلك في الدار لأنك لم تبحثنا، وأنا ما قلت لك شيئا... ثامن شوال عام 1323هـ/ أحمد بن عيسى لطف الله به[406].

- كما تؤكد لنا بعض المراسلات المخزنية أن نفوذ القائد أصبح ساريا على جهات واسعة من الحوز، ومن بينها قبائل احمر ودكالة.

فبعد قيام أولاد سعيد ضد عاملهم واستفحال أمرهم، استنفر السلطان المولى عبد العزيز القائد عيسى بن عمر للنهوض بحركة قصد التضييق عليهم، إلا أن القائد تقاعس عن القيام بهذه المأمورية فكتب له السلطان يحثه على الإسراع في ذلك، ويقول: "...فقد كنا اعتقدنا منك المبادرة فيما يظهر من نصحك في تنضيض حركات القبائل التي التزمت نهوضها للربط على فساد أولاد سعيد والتضييق بهم حتى يرجعوا للجادة، ويستقيموا للخدمة مع عاملهم ولا زال لم يظهر أثر في جرأهم الإهمال والتراخي على استصحاب الفساد والتمادي في خوضهم وطيشهم... وما عهدنا منك التراخي في مثل ذلك... وعليه فبوصوله نأمرك أن تنهض بحركة معتبرة من إيالتك وتنزل على الفساد المذكورين..."[407].

وبعث السلطان إلى القائد بمجموعة من الظهائر لاستنفار قبائل أخرى كانت تحت سلطته وهي قبيلة احمر ودكالة، وهذا تأكيد على أن عيسى ابن عمر كان يمارس سلطته على هذه القبائل وكان يتولى استنفارها للحركات، تقول إحدى هذه الرسائل:

---

402 - الحجوي: تقاييد، ص. 33.
403 - فريزنو، ص 14.
404 - كناش تقييد المكاتيب الموجهة للعمال والقواد والأمناء (1319-1322)خ.ح.ر/ رقم 763 ص 257. رسالة الطريس إلى عامل أسفي عيسى بن عمر العبدي.
405 - نفس الكناش أنظر الرسائل، ص 456و514و516.
406 - رسائل داخلية خاصة بالأسرة، لدينا نسخة منها وهي من الخليفة أحمد بن عيسى إلى الطاهر ابن القائد أحمد بن موسى.
407 - جذاذة الحسن الثاني مذكور: رسالة من السلطان إلى القائد بتاريخ 4 ربيع النبوي 1322.

"... وتـزعج قبائـل دكالـة واحمـر للنهـوض بحـركتهم المـأمورين بهـا... وهـا مكاتبنـا الـشريفة للقبائـل المـشار لهـم تـصلك لتـزعجهم للنهـوض بفـور دفعهـا لهـم دون مهلـة ولا تأخير"[408].

ولعل هذا برهان على مدى اتساع حدود نفوذ وإشعاع القائد داخل قبائل الحوز، وذلك ما جعل بعض الكتاب الأجانب يصفون قيادته : "..بأنها إمارة حقيقية في الجنوب إن لم تكن القيادة ذات الأهمية القصوى في كل المملكة..."[409]

408 - جائزة الحسن الثاني نفس الرسالة.
409 - أنظر: فايسجربر مذكور، ص 332 / كذلك أنطونا مذكور، ص 47/ كذلك لويس أرنو، ص 121.

الفصل السادس

كيف مارس القائد عيسى بن عمر سلطة القيادة؟

I- مظاهر القيادة

1- نمط عيش القائد عيسى بن عمر العبدي

كان القائد عيسى بن عمر العبدي يمثل نموذجا للمخزن المحلي، فبجانب سلطته المطلقة داخل إيالته باعتباره"... المسؤول عن إقرار الأمن ومراقبة القبائل حسب الأعراف، والواسطة بين المخزن المركزي والقبائل..."[410] فإنه كذلك، كان يمثل من جانب آخر" ... صورة مصغرة من حياة البلاط المصغر، والعبيد والأعوان، والحريم، الزبائن..."[411].

فكيف كان يعيش القائد عيسى بن عمر العبدي؟

* من خلال الأوصاف التي ذكرها "فايسجربر Weisgerber حين اتصاله بالقائد، وهو آنذاك في سنه السبعين قال عنه: "... وجه جميل، محاط بلحية رمادية، قامته متوسطة ورشيقة، كان يلبس باستمرار عباءة كثيرة الطيات من الموصلي الأبيض، ويتخذ سلهاما أبيض ناصعا، يداه ورجلاه الأرستقراطيتان كانتا محط عناية فائقة، كان يعاني من مرض الروماتيزم، ومن جرح قديم في رجله، مما جعله يمشي بصعوبة، لكن مع ذلك، كان فارسا بارعا، ومحاربا مقتدرا، وصيادا ممتازا، يحب الخيول والأسلحة، ويربي كلاب للصيد "السلوقية" وكذلك الصقور، فيما عدا ذلك فإن ذوقه بسيطا، ومتشبث بالتقاليد"[412].

إن هذه الأوصاف تعطينا صورة عن حياة القائد الذي جمع من الصفات ما جعله نموذجا متميزا عن بقية أعيان قبيلته، فهو أقرب إلى أعيان المجتمع المديني.

* شخصيته كانت تجتمع فيها الصفات الضرورية لرجال السلطة، فهو رجل صلب وقوي في مواجهة المواقف الصعبة التي كانت تتطلب الحزم والصرامة قال عنه الصبيحي: "هو القائد السفاك الشهير، والحجاج بن يوسف الثقفي الثاني... إنه الإسم الذي كانت ترتعد منه الفرائص"[413]. كما كان رجلا طيعا ومرنا، وصفه البعض بأنه"... لطيف المعاشرة، صديق أمين وخصم عنيد..."[414].

كان محافظا على الأصول، يقدر مسؤولياته ويقوم بواجباته الدينية في وقتها، ويلزم أبناءه وحاشيته بمشاركته الصلاة، كان يحلو له أن يردد باستمرار أن قصبته تشبه الزاوية،

---

[410] - LAROUI.Abdellah. Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912) Masperro Paris 1977/P.160

[411] - المودن عبد الرحمان: إسهام في دراسة العلاقة بين المجتمع القروي والدولة في مغرب القرن التاسع عشر. حوض إيناون(1873-1902) بحث لنيل د.د.ع. الرباط 1984/ص280.

[412] - Weisgerber(Dr). Au seuil du Maroc moderne. Rabat 1947/p/330

[413] - الصبيحي السلاوي: عيسى بن عمر وفظائعه. م.خ.ص. سلا. رقم 418/ ص 1 و 2.

[414] - فايسجربر : مذكور، ص 331.

حيث منع دخول كل المحرمات إليها" فلم يسمح لأية شيخة أو راقصة بربرية بتجاوز عتبة قصبته سواء بعبدة أو بدوره الأخرى في مراكش وفاس"[415].

إنه"... شخصية قوية جدا، ويعتبره الجميع سيدا عجيبا"[416].

كانت هوايته المفضلة هي الصيد، وكانت مرابطه تضم "... أسرابا من كلاب الصيد، تزيد عن مائتين" سلوقي" زيادة على طيور الصيد"[417]باختلاف أنواعها من " الظهرى والنبلى"[418] كان يخرج للصيد في موكب ضخم، يتكون من حاشيته وخدامه وبعض ضيوفه أو مدعويه، وأحيانا تطول مدة الصيد، وقد تزيد على الأسبوع، وتمثل مناسبة الصيد فرصة يتفقد خلالها القائد بعض الجهات من قيادته، وأحيانا، يختبر ويعاين قوة فرسانه عن طريق إقامة استعراضات لألعاب الفروسية، وكثيرا ما كانت الأفخاد والدواوير التي كان يمر منها تتحمل إقامة الولائم الفخمة لموكب الصيد[419].

وتزداد هذه الصفات تبلورا أكثر، حينما نقف لنتأمل قصبة القائد، التي كانت تمثل مقر إقامته، فهي قد تساعدنا على استخلاص صورة عن الحياة الداخلية للقائد.

ـ قصبة القائد السي عيسى:

تقع قصبة القائد بفخدة التمرة من قبيلة البحاترة، على بعد حوالي خمسة وعشرين كلمترا من مدينة أسفي، وقد اشتهرت القصبة باسم القائد السي عيسى، رغم أن أخاه القائد محمد بن عمر هو الذي بنى بأرضها لأول مرة [420].. في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، تقريبا حوالي سنة 1283هـ/1866م، أي بعد انتقاله من داره القديمة بدوار الكوتات، ليقع اختياره على ذلك المكان بدوار النجارة، نظرا لما كان يتوفر عليه من مياه غزيرة متدفقة من بئر تسمى" بئر بوكشور" وهي التي منحت الحياة للقصبة، التي بنيت على امتداد منطقة، جعلتها بارزة للعيان بشكل متميز على بعد كلمترات وقد وصفها أحد المجاذيب بقوله:

"...عروسة بانت في بوكشـــور

دار النظرة المنظورة قبلة بوكشـور

انطق بها الساكن قبل مـا تكـون

حاسدها يبقى في سجنها مرهـون

ولو كان من مـواليـــــها

[421] ....

[415] ـ نفسه.

[416] -AUBIN, Engéne / le Maroc d'aujourd'hui/ Ed.Armand colin Paris 1922.p.26

[417] ـ فايسجربر، ص 333.

[418] - Doutté, E Marrakech. Paris 1905/P/266

[419] ـ رواية شفوية أفادنا بها السيد عبد السلام ولد القائد عيسى بن عمر العبدي.

[420] ـ الصبيحي: مذكور، ص 2/كذلك باكورة الزبدة، ص 43.

[421] ـ مازالت الذاكرة الشعبية داخل عبدة تحتفظ بهذه القصيدة التي أوردنا جزءا منها ونسبها البعض إلى أحمد الغنيمي من عبدة.

وازدادت أهمية القصبة، واشتهرت باسم القائد عيسى بن عمر العبدي، نظرا لما أضافه إليها من بناءات ومرافق أخرى، ما تزال بعض معالمها - رغم اندثارها- تشهد على مستوى العظمة والثراء اللذان تميز بهما القائد. كما أن بناءها المعماري يعبر عن عقلية القائد التي كانت تحاكي ما كان يراه لدى ارستقراطيي المدن.

فهي بلاط مصغر يضاهي باقي البلاطات المخزنية في المدن الحضرية، وهي المقر الرئيسي والدائم للقائد، والقصبة في شكلها العام، عبارة عن قلعة كبيرة، محصنة بأسوار عالية تحمي القائد وأسرته من أي تمرد أو عصيان محتمل ضده. ولا يمكن ولوج القصبة إلا من خلال مدخلها الرئيسي المحروس بدقة من طرف حراس القائد وأعوانه، وعلى رأسهم حارس الباب الخارجي "أبا حسين" الذي كان على اتصال بكل الوافدين على القصبة لقضاء أغراضهم ثم الباب الداخلي المؤدي إلى المرافق الداخلية للقصبة، وكان على حراسته "أبا رزوق" المعروف بإخلاصه وتفانيه في خدمة القائد ولا يسمح لأي زائر أجنبي عن الأسرة بولوج القصبة، إلا بعد الاستئذان، كما كان في اتصال دائم مع عريفة الدار" مسعودة الشاوية" وهي جارية القائد التي كانت قائمة بأمور الدار الداخلية، وفي الجهة الخلفية من القصبة، يوجد مقر للحراسة يقيم به أحد حراس القائد المشهورين وهو " السي قدور".

*مرافق القصبة

كانت القصبة تقوم بوظائف عديدة، فبجانب كونها قلعة محصنة للدفاع عن أسرة القائد من أي اعتداء محتمل من طرف القبيلة، فهي مع ذلك قوية تامة المرافق كالبلد الصغير[422] وهذا ما يمكن استخلاصه من خلال تفكيك مرافقها المتعددة:

- مرافق السكن والإقامة: وهو المجال الذي يغطي حوالي ثلث القصبة، وهو عبارة عن دور لسكنى أبناء القائد عيسى بن عمر ولأبناء أخيه محمد بن عمر وباقي أفراد أسرته، وتقدر هذه الدور بما يفوق العشرين دارا، كانت كلها متوفرة على المسلتزمات الضرورية للسكن، ومن أهم هذه الدور:

- دار القائد عيسى بن عمر: وهي الدار المخصصة لحريم القائد، وتتكون من ثلاث طبقات على النمط الفاسي. وبالأسفل روض مربع به أربع " قباب مقابلة كبيرة وعريضة لا زالا بها زليج ممتاز، وسقوفها الخشبية مزخرفة بالنقوش، وبوسط الدار نافورة تتدفق منها المياه، والطابق العلوي عبارة عن "مقصورة" به غرفتان تطلان على ممتلكات القائد الشاسعة.

وكانت الدار بها أجنحة مخصصة لاستقبال الضيوف وإقامة الولائم، حيث لم تكن تخلو منهم، فقد كان القائد" ... يذبح يوميا بقرة واحدة وعشرين خروفا والمئات من الدجاج..."[423].

---

422 - الصبيحي، ص 2.
423 - فايسجربر، ص 333.

إن القائد كان حريصا على أن يظهر بمظهر السخاء والكرم، وبدونها لا يمكن أن يكن سيدا، وهذا ما استخلصه ذ التوفيق حيث قال"... بأن القائد كان مضطرا إلى أن يكون مبذرا كبيرا، حتى تتحقق له الأبهة اللائقة"[424].

- مرافق القيادة: كانت القصبة مقرا رسميا لممارسة السلطة القيادية ومنها تصدر الأوامر والأحكام وقد اتخذ القائد محكمته داخل القصبة، وهي عبارة عن غرف ثلاث ما زالت بعض معالمها واضحة، خصوصا منها القاعة التي كان يجلس فيها القائد. وهي عبارة عن قاعة متسعة ومزلجة وسقفها مزخرف.

وترتبط المحكمة بالأماكن المخصصة للاعتقال والسجن وهي تمثل صنفين:

- صنف مخصص للاعتقال المؤقت "بنيقة" كان يتم فيها الاحتفاظ بالمتهم لمدة وجيزة.

- صنف آخر هو عبارة عن دهاليز مغلقة ومغطاة بسقف دائري ضيقة ومظلمة جدا يبلغ عددها خمسة ، كان يطلق عليها اسم" البردوز" وربما كانت تستعمل لحشد الخارجين عن طاعة القائد أو المحكوم عليهم بأقسى العقوبات.

- المرافق الدينية: وتضم على الخصوص مسجدا لا زالت بعض معالمه قائمة الذات، خصوصا منها الأقواس النصف دائرية، ومقصورة الإمام، ولعل المسجد كان يستعمل أيضا لتعليم أبناء القائد مبادئ القراءة وأصول الدين.

كما يوجد مقر للزاوية التيجانية، ويحكي أن ابنه إدريس هو الذي أقام هذه الزاوية ، ولعل بعض أبنائه الآخرين كانوا متأثرين بهذه الطريقة.

كما توجد مقبرة تسمى" مقبرة ابن الشتوكي" وبها قبور بعض أفراد أسرة القائد وشرفاء القبيلة. وبها دفن القائد بعد وفاته.

- المرافق الخاصة:

تضم اسطبلات خاصة لتربية المواشي على اختلاف أنواعها، وبالأخص منها الخيول، حيث كانت اسطبلات القائد تضم حوالي أربعمائة فرس[425].

كذلك خزائن التموين" المطامير" المخصصة لخزن الحبوب والتي كانت وحدها تكفي كل سكان عبدة.

كما كان بداخل القصبة مجموعة من " الحوانيت يقال أنها كانت مخصصة لبعض يهود مدينة آسفي جلبهم القائد ليقوموا ببعض الصناعات اليدوية كالخياطة وصياغة الذهب والفضة. ويذكر " دوتي - Doutté" أثناء زياراته لعبدة " أن لا وجود لليهود بعبدة فقط بقصبة القائد، حيث وجودهم حديث لا محالة" [426] ومن المحتمل أن يكون القائم بأمر الصرف والتموين داخل القصبة يهوديا، حسب رواية شفوية[427].

---

424 - التوفيق أحمد: المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912) منشورات كلية الآداب ط 2 1983 ص 476.
425 - فايسجربر، ص 332.
426 - دوتي مذكور، ص 189.
427 - هذا ما حدثني به عرضا أحد أشياخ فخدة الشرة من دوار الجارة وقد ذكر إسمه.

إن ما كانت تحويه قصبة القائد السي عيسى بن عمر العبدي من مرافق، تجعل كل زائر لها مشدوها ومنبهرا أمام عظمة هندستها وزخرفة بيوتها، وإذا أضفنا إلى ذلك ما كانت تحتويه من أثاث على اختلاف أنواعه ولوان فضية وكؤوس البلور... كل ذلك يجعل زائر القصبة منبهرا أمام مظاهر الثراء، إذ كانت هذه المظاهر إحدى شارات القيادة. وهذا ما جعل بعض الأجانب الذين زاروا القصبة يصفون القائد بأنه: "سيد إقطاعي كبيرة يدير اقطاعه وأملاكه من داخل قصبته، محاطا بأبنائه وإخوانه، وخدامه، الذين يكونون حاشية كبيرة لا تقل عن مائتي فارس تمطتي أجود الخيول المغربية"[428] .

- حريم القائد:

كان حريم القائد يتكون من زوجاته الحرات وجواريه على اختلاف أصولهن من إفريقيا السوداء خصوصا مالي والسنغال والسودان. فبالنسبة لزوجاته، كان القائد ينتقيهن من بين الأسر المخزنية العريقة، ذات المكانة الاجتماعية أو من القبيلته أو خارجها، والمعروف من زوجات القائد أربع، كلهن تزوجهن حسب الشرع الإسلامي، وقد ماتت اثنتان منهن فعوضهما وصار مجموع زوجاته ستا هن:

- زوجته الأولى : كانت إحدى بنات عمه القائد أحمد بن عيسى

- زوجته الثانية: (أم هاني) هي أرملة أخيه القائد محمد بن عمر، وفي نفس الوقت هي بنت القائد أوبلة الرحماني.

- زوجته الثالثة: (فاطنة) زوجها له السلطان المولى الحسن.

- زوجته الرابعة: (عيطونة) بنت القائد بن أبا، قائد قبيلة احمر.

- زوجته الخامسة: (البيضة) إحدى بنات الحاج محمد بن ملوك، أحد أعيان فخدة أولاد زيد من قبيلة البحاثرة.

- زوجته السادسة: (شوميسة) من بنات شيخ زاوية السي صغور البزيوي بقبيلة بزو.

كما كان له عدد من الجواري، ويقال أن إحداهن كانت له علاقة شرعية معها، وهي إحدى بنات " ملوك السودان"كما كانت تدعي بنفسها، وله منها ولد وبنت (عبد الكريم ومريم)[429].

2-جهاز أعوان القائد:

إذا كان القائد عموما منذ تولية" لا يحصل لأداء مهامه على أي عون عسكري أو إداري من طرف المخزن بل يعتمد في ذلك على قوته المحلية..." [430] فإن من حسن حظ القائد عيسى بن عمر أنه ورث عن أخيه جهازا قائما من الأعوان، يساعدونه في ممارسة وظيفة القيادة، والقيام بأعبائها، ولأنه كان يتمتع بصلاحيات واسعة لانتقاء مساعديه، فإنه

[428] -فايسجربر، ص 332.
[429] كل هذه المعلومات اعتمدتها على روايات من داخل أسرة القائد.
[430] - جاموس ريموندا: دور القواد على الصعيد المحلي: نص معرب مأخوذ من كتاب (العرض والبركة) المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي - السنة الأولى العدد 2 (مارس 1987) ص 76.

عادة ما كان يختارهم من أقرب أقربائه، ويتخذ منهم حاشيته ومرافقيه، كما كان يختار شيوخه ومقدميه من بين أعيان الفرق والأفخاذ.

وكان هؤلاء الأعوان يكونون جهازا تابعا للقائد يسخرهم في قضاء مهمات مختلفة، خاصة أو مخزنية فيبعثهم في الكلف كالقيام بالتحريات أو مصاحبة الموفدين من لدن المخزن المركزي أو الوقوف على إنجاز بعض الخدمات، وكان"... له زهاء مائة وخمسين" مشاوري" بالإضافة إلى خدام آخرين"[431].

ـ خليفة القائد: هو بمثابة اليد اليمنى للقائد كان يتم اختياره من بين أفراد أسرته، واختار عيسى بن عمر خلفاءه من بين أقربائه فكان أول خلفائه على قبيلة البحاترة، ابن عمه محمد بن القائد أحمد بن عيسى، وكان ينوب عنه في كثير من المهام، وكان يلقب ب " الحنزاز " لصلابته وشدته.[432].

ـ كاتبه الخاص: يعتبر الكاتب الخاص رجل السر بالنسبة للقائد، فهو الذي يتولى قراءة الرسائل الواردة على القائد من مختلف الجهات، وكان يقوم بالرد عنها، وبواسطته تصدر الأوامر المكتوبة من القائد إلى أعوانه، فهو على علم بكل ما كان يجري داخل إيالة القائد، لذلك كان اختياره من بين الرجال الثقاة. ومن كتابه المعروفين: الحاج عبد السلام الشعالي، الذي ينتمي إلى دوار الشعاعلة بفخدة الثمرة، بالقرب من قصبة القائد، وكان يستعين القائد كذلك بإبن عمه الطاهر ابن القائد أحمد ابن عيسى، وهو الذي أوصى عليه القائد محمد بن عمر قبل وفاته بقوله" تشاور مع الطاهر فهو حبيبنا" ابن عمنا[433].

ـ الحارس الخاص: هو الحارس المرافق للقائد في كل تنقلاته، وإليه كان يوكل تنفيذ المأموريات الخطيرة والمعروف من حراسه" القائد الجيلالي زعاطة" وكان اختياره من طرف القائد لحنكته وتجربته في الخدمة المخزنية، ولشجاعته وإقدامه وتشير الرواية الشفوية إلى أنه كان "قايدا" في المشور السلطاني بمراكش لدى المولى الحسن، ولأسباب مجهولة تم اعتقاله، وفر من سجنه والتحق بالقائد عيسى ابن عمر، فأعيد القبض عليه، وتدخل القائد لدى السلطان ملتمسا منه العفو عليه، ثم استخدمه حارسا خاصا له، وأصبح منذ ذلك الحين من أهم أعوانه وكان محبوبا لديه[434]

ـ حراس أبواب قصبة القائد: يسمون أحيانا "بالبوابين" وهم حراس أمن قصبة القائد، ولا يستطيع أن ينفذ إليها أحد إلا بأمرهم، وكان من أشهر حراس قصبته:

○ البواب الخارجي: واسمه " أبا حسن" وهو الذي كان يتولى حراسة الباب الخارجي للقصبة.

○ البواب الداخلي: واسمه " أبا مرزوق" وهو الذي كان يتولى حراسة القصبة من بابها الداخلي وكان من المقربين للقائد، لأنه اشتغل قبل ذلك مع أخيه القائد محمد بن عمر،

---

[431] - أوبان: مذكور، ص 26.
حنزاز : اللفظة مغربية : دارجة تفيد جحوض العينين، بمعنى حدة النظر، وهي ترمز إلى الغلابة والقوة.
[432] - رواية شفوية من نفس المحدث.
[433] - رواية شفوية من نفس المحدث.
[434] - رواية شفوية من نفس المحدث.

ولوصاه على استخدامه قبل وفاته، بالإضافة إلى انه كان أقرب إلى الأمور الداخلية لدار القائد وأعياله.

المخازنية: كان للقائد عدد من المخازنية يستعملهم في المأموريات المخزنية المتصلة بالقبيلة فهم عادة الساهرون على تنفيذ الأوامر الواردة من المخزن المركزي أو الصادرة عن القائد.

وما تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ بأسماء المشهورين منهم، والذين يتمتعون بصيت واسع داخل القبيلة، أمثال: المخزني "موسى" وهو الذي كان يكلفه القائد بالمهمات الصعبة وكذلك " السويلمي" الذي قربه القائد كثيرا وزوجه إحدى بناته، وكان مشهورا بشططه واعتداءاته على أفراد القبيلة وامتلك كثيرا من الأراضي باسم القائد، كذلك" بلخير التبات، ومولاي مبارك والعربي بن زعزاع..."[435].

- الأشياخ: كانوا يمثلون عمدة القائد في ادارة القبيلة، وكان اختيارهم من بين اعيان الافخاد، وإليهم توكل مهمة مراقبة أحوال القبيلة، وترصد كل المعلومات حول أفرادها، وعادة ما كان يقدم الشيخ عند تولية الشياخة هدية للقائد عربونا على المحبة والطاعة[436]. ومن بين شيوخ القائد عيسى بن عمر المعروفين من خلال المراسلات المخزنية نذكر منهم:

أحمد بن مسعود البحتري الزبيري، وحميدة بن الجيلالي الزروالي، والهاشمي، وسعيد بن عدي السوسي وابراهيم بن علي العطاوي، والحطوشي النبكي...

وكل هؤلاء الأشياخ كانوا يمارسون سلطة داخل الأفخاذ، وكان القائد يعتمدهم لأنهم أدرى بشعب أفخاذهم وبطونهم.

- الأعوان والمسخرون: اتخذهم القائد من أقربائه وكان يستعملهم في المهام التي تحتاج إلى الثقة كنقل أوامره إلى الأشياخ والمقدمين، أو تسخيرهم في المأموريات الصعبة كاعتقال أو مصادرة... إلخ وهم عادة مرتبطون بالقائد، ويعيشون من عطاءاته فهو مصدر عيشهم.

وكان من بينهم أبناء عمه القائد أحمد بن عيسى، فقد انتدب بعضهم، كمحمد بن أحمد والطاهر ابن احمد للقيام بمجموعة من المهام، نذكر من بينها، تكليفهما بمهمة القبض على " القائد أبيه ابن سهيم السوسي... القاطن بالعدير من الوليدية وذلك بعد أن صدر الأمر السلطاني للقائد بذلك فأنجزها وفق أوامر القائد، وقبضوا على القائد أبيه وأحصوا متاعه بمحضر العدول[437]

II- شطط القائد وعسفه وموقف المخزن المركزي منهما

1- تعسفات القائد عيسى بن عمر العبدي

كانت القصبة مقرا رسميا لممارسة السلطة القيادية، وبقاعة المحكمة كان القائد يعقد جلساته بمحضر الفقهاء والعدول للنظر في القاضايا المعروضة عليه[438].

---

435 - رواية شفوية من نفس المحدث.
436 - رواية شفوية من نفس المحدث.
437 - شهادة عدول: وثيقة خاصة لدي صورة منها بتاريخ متم ذي الحجة عام 1300هـ
438 - رواية شفوية

فعلى باب المحكمة، كان يقف مخزنيان من خدام القائد، مهمتهما إدخال المتقاضيين بالتتابع لقاعة الجلسات، فيقوم القائد باستفسارهما عن طبيعة الدعوى، ويستجوبهما لمعرفة كل عناصر القضية ثم يستعين بآراء الفقهاء والعدول، ومن خلالها كان يستقي حكمه، وقبل إصراره، كان يردد دائما "... اللهم اجعل التقليد على من قال لي : "[439] لذلك فإن القائد في أعين المتقاضين لم يكن مستبدا ولا جائرا، لأنه لم يكن يصدر الأحكام بمفرده. بل العدلان اللذان يمكنان بما تنص به الشريعة وبما يلائم الأعراف، وبهذه الطريقة كانت أحيانا تبرا ساحة القائد، لكن الصورة التي بقيت ملتصقة بالذاكرة الشعبية، كانت تنعث القائد دائما بالتعسف والظلم، ولعل هذه الصورة ترتبط أساسا بموقفه من انتفاضة أولاد زيد، وما نتج عنها من تنكيل بكل أفراد القبيلة.

تقول إحدى القصائد الشعبية في هذا الباب:

" أعيسى بن عمر أقتال أخوتو

أعيسى بن عمر أوكال الجيـــفة"

بالإضافة إلى أن أفراد فخدته من الثمرة، كانوا يمارسون تعسفا ضد باقي أفراد القبيلة، ويجدون حماية من القائد، فكان القول الشعبي يردد: **"مائة جمرة وجمرة ولا حر الثمـــرة"**

لعل في ذلك ما يصور السلطة التعسفية للقائد إزاء أفراد إيالته، وإذا كانت هذه الصورة ما تزال مرتبطة بالعنف، فإنها مع ذلك لا يمكن فصلها عن باقي الممارسات التي كانت تزاول من طرف باقي أفراد المخزن خصوصا منهم القواد، إذ عنوان قوة القائد هو مدى بطشه وقهره لكل أفراد إيالته، مقابل أن ينعم بالاستقرار والأمن، وإن ينصاع محكوموه للأوامر، ويقدموا واجباتهم بانتظام للمخزن، وهذا ما جعل" ... منطقة عبدة من بين الجهات الأكثر هدوءا في المغرب وقائدها السي عيسى كان يحكمها بحزم ونفوذ قوي جدا لدرجة لا يمكن احتمال أي تمرد ضده"[440].

لقد كان العنف من صلب ممارسة السلطة القيادية، والاختلاف كان فقط حول درجة استعماله أو المغالاة في توظيفه، أما ما يسمى أحيانا بالشطط فهل أفرط عيسى بن عمر في ممارسة العنف والبطش والجور؟

يشير المختار السوسي على لسان إدريس ولد منو حين حديثه عن القائد عيسى بن عمر، فيقول :

"... ولا عيب فيه إلا كثرة الفتك بأهل قبيلته. فما أسهل إزهاق الروح عنده... كان جاء إلى داره قائد صغير مع أصحابه، فتغذوا عنده، فخرج معهم إلى خارج القرية، ثم سقط الزائر برصاصة بعض أصحاب العبدي عن إذنه، فذهب ذلك كأن لم يحدث شيئا..."[441]

كما يشير الكانوني بدوره إلى طغيان القائد فيقول : "... سياسة القائد عيسى بن عمر على قبائل جوار أسفي القضاء على رجال بيوتات المجد والفضل"[442].

[439] - رواية شفوية ومع الأسف لم نضبط قضية شفوية محددة نستطيع أن نقدمها كنموذج لذلك.
[440]- BRIVES.A, Voyages au Maroc (1901-1908) Alger 1909 P. 245.
[441] - السوسي المختار : حول مائدة الغذاء مطبعة الساحل 1983/ص85.

ولعل هذه الإشارات تدفع بنا إلى التساؤل عن خلفيات سياسة العنف، خصوصا ضد أعيان القبيلة، فبالإضافة إلى أنها تدخل في صلب ممارسة القيادة، فإنها كذلك كانت وسيلة اعتمدها القائد لهدف آخر. ألا يمكن أن تكون إحدى الوسائل التي اعتمدها القائد لمصادرة أملاكهم؟

لدينا بعض النماذج من تعسفات القائد ضد أعيان القبيلة وفرارهم من طغيانه، تشير بعضها إلى ذلك فتذكر بعدما "... ابراهيم بن علي العطاوي والحطوشي النبيكي إلى اسفي، ضايقه القائد عيسى بن عمر... ولم يزل يفتل له الحبل والغارب حتى رجع إلى البادية وتخذيرا لأعصابه ولاه شياخة ذلك القبيل (أولاد سلمان) الذي به، ثم انقض عليه أخيرا وأودعه السجن حتى توفي به"[443].

كما قام القائد عيسى بن عمر بعزل الطاهر ابن البشير من قبيلة العامر، وجعله شيخا تحت سلطته[444].

و ذهب ضحية طغيان سياسة القائد"... الحاج أحمد بن السليماني البيهي العبدي وهو رجل مثري فلاح شهير بجوده ومكارمه، كانت له مدرسة علمية قرآنية يفد إليها الطلاب من كل أوب رتب لهم فيها الأساتذة والمئونة، وجميع اللوازم، فرق في آخر عمره من مطامير الحبوب الشيء الكثير، امتحن بالسجن ظلما وعدوانا... فاعتقل بسجن مراكش سنة 1320هـ وتوفي في اعتقاله بعد هذا التاريخ... واتبعه بولده السيد سلام الذي سلك مسلك أبيه"[445].

إن الأساليب التي اتبعها القائد من اعتقالات تعسفية لأسباب واهية، أو تركيع أعيان القبيلة لسلطته المباشرة، بعد تعيينهم في مناصب مخزنية، كل هذه الوسائل في العمق ليست إلا حيلا لإرغام الأعيان والفلاحين الميسورين على الاختيار بين التخلي عن ممتلكاتهم، أو تقديمها طوعا، وإلا الاعتقال والسجن إلى أن يتم تقديم فدية لإطلاق سراحهم.

فهل كانت تنحصر هذه الممارسات التعسفية في شخص القائد فقط أم أنها كانت تمارس من طرف أعوانه كذلك؟

2- تعسفات أعوان القائد

عادة ما كان جهاز الأعوان يقوم بتنفيذ مهمة مركزية وهي إقرار السلطة المخزنية المحلية للقائد، لكي يستطيع تنفيذ أوامر السلطة المخزنية المركزية وطالما أن القائد حريص على تحقيق هذا التكامل بين السلطتين المحلية والمركزية، فإن وضعيته تبقى مصونة، ولا تستدعي أي تدخل من طرف المخزن المركزي. لكن كثيرا ما كان أفراد هذا الجهاز يستغلون سلطتهم على أفراد القبيلة، فيمارسون الابتزاز والتعسف، مما كان يستدعى تدخل السلطة المركزية لتنبيه القائد من أجل وضع حد لممارستهم.

وتقدم لنا مادة الشكايات التي كانت ترفع على شكل رسائل إلى السلطان، صورة عن هذه الممارسات سواء من طرف الأشياخ أو أصحاب القائد ومعاونيه عموما.

---

[442] - الكانوني محمد بن أحمد العبدي: جواهر الكمال في تراجم الرجال ج 2 (ب.ت.) ص 81.
[443] - نفسه، ص 113.
[444] - أوبان: مذكور، ص 26-31
[445] - الكانوني: مذكور، ص 81.

ولم تكن اعتداءات وتجاوزات أعوان القائد مقتصرة على الأشياخ وحدهم، بل كثيرا ما كان التعسف والنهب يقع بتواطؤ مع خليفة القائد وتوضح احدى الشكايات ذلك، إذ تشير إلى أنه: " الضوء بن عبد الله البحتري العسكري أن خليفتك محمد والشيخ التهامي خاضا له خمسة عشر رأسا من البقر وخمسا وأربعين شاة من الغنم ومائة وعشرين حملا من القمح وذلك فيما قبل تاريخه لستة أيام"[446].

إن حجم ما نهبه الخليفة والشيخ يؤكد أن المشتكي ليس فردا عاديا داخل القبيلة، بل لا شك أنه من أحد أعيانها، وهذا ما يبدو من خلال عدد المواشي المنهوبة له، لذلك أسرع بتقديم شكواه إلى السلطان ليتدخل ويأمر القائد بأن " يرد عليه متاعه، وكفهما عن الترامي على أموال الناس"[447]

أما الأشياخ، فباعتبار انسياب سلطتهم على الأفخاذ، فإنهم كانوا يمارسون أحيانا عملية الابتزاز والنهب، فالشيخ حميدة بن الجيلالي الزروالي، سلب لأحد أفراد فخدته" أحد عشر رأسا معزا، وبقرتين، وعشرين خروبة من الشعير ظلما" [448] ولم يستطيع أن يقدم شكاية بالشيخ المذكور إلا بعد مضي ثلاث سنوات رحل خلالها إلى أيت سعادة بنواحي مراكش وأصبح بذلك خارجا عن سلطة الشيخ آنذاك أمكنه أن يقدم شكواه إلى السلطان، الذي أمر القائد عيسى ابن عمر " بإنصافه... وإلا فادفعه معه للشرع وما حكم به نفذه"[449].

وكان القائد يمتثل لأوامر السلطان، ويعمل على تنفيذها قصد الحد من خروقات وتعسفات أعوانه، وعادة ما كان القائد يتدخل لإنصاف المشتكي.

لكن الأشياخ بدورهم كانوا يخافون سطوة القائد، ويلتجئون أحيانا إلى شتى الوسائل للفرار من أحكامه، فبعد أن حاول القائد عيسى ابن عمر إنصاف أحد المشتكين امتثالا للأمر السلطاني، فر الشيخ واحتمى بدار البلجيك فأخذ القائد ولده رهينة، وأبقاه بالسجن، ووجه المشتكي لعامل أسفي الطيب بن هيمة".. ليكلمه في الفصال حيث هو بدار النصراني... فامتنع الشاكي، وأشهدوا عليه الامتناع بالعدول"[450] وألح السلطان على ضرورة إقرار الحق والشرع.

ورغم أن القائد كان يحاول أحيانا التدخل لإقرار الأوامر السلطانية، وإنصاف أفراد القبيلة، إلا أنه غالبا ما كان يصطدم بعراقيل، من بينها فرار الأشياخ إلى إيالات أخرى بعيدة عن متناول أحكامه، أو دخولهم في الحمايات الأجنبية.

ونستخلص من الرسائل العديدة في موضوع الشكايات أن المخزن المركزي كان يتدخل باستمرار للحد من تظلمات جهاز أعوان القائد بمن فيهم الأشياخ وغيرهم، ورغم ذلك فلم يصلنا من هذه الشكايات إلا ما كان يتصل منها ببعض الأعيان أو خدام المخزن الذين وجدوا الفرصة لتقديم شكاياتهم للمخزن المركزي وهي بذلك لا تقدم إلا صورة باهتة عن الأعمال التعسفية التي كان يعاني منها أفراد القبيلة.

---

[446] - خزانة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات إقليم أسفي 1978 - ميكرو فيلم بالخزانة العامة الرباط/رسالة بتاريخ 13 جمادى الأولى 1299 هـ.
[447] - نفس الرسالة اعلاه.
[448] - خزانة الحسن الثاني/ رسالة بتاريخ 2 ربيع الأول عام 1303هـ.
[449] - نفس الرسالة اعلاه
[450] - الخزانة / رسالة بتاريخ 13 جمادى الأولى 1299.

3- موقف المخزن المركزي من تعسفات القواد عموما والقائد عيسى بن عمر خصوصا.

أثارت تعسفات القواد عموما، ردود فعل من طرف المخزن المركزي، خصوصا في عهد السلطان المولى عبد العزيز، وقد أكدت بعض الرسائل المخزنية أن هذه التعسفات كانت من بين الأسباب التي أدت إلى انتفاضة السكان ضد قوادهم وعمالهم: "...لأن ذلك هو سبب ما وقع من انعكاس الأمر على بعض العمال التي مدت أيدي الفساد إلى ديارهم بانتهاك الحرمة وانتهاب الأموال... فما زال العمال بخير ما تعاضدوا على الصلاح والنصيحة وتعاونوا بسيرة حميدة ونية صحيحة. وتظافروا على سد الدرايع ودفع المضار وجلب المنافع"[451].

وكانت همة المولى عبد العزيز تطمح إلى إصلاح الأحوال بعد استفحالها، وتزايد خطرها ولعل في وثيقة الترتيب التي أصدرها بتاريخ 10 جمادى الثانية عام 1319هـ/1901م. ما كان يبرز رغبته في الحد من تعسفات القواد والعمال. تذكر الوثيقة: "...أما العمال فلم يبق لهم من سبيل على فرض شيء عليكم أو قبض شيء منكم، لأننا عينا له ما يكون يقبضه راتبا من بيت المال عمره الله، على أن لا يعود لمد اليد في متاع أحد من القبيلة، أو يتطاول لأخذ شيء بطمع أو حيلة، وإنما حسبه رد البال وتأمين الطرف وإجراء الأحكام وشد العضد على الصلاح والطاعة وحفظ النظام وإجلاس كل طائش عند حده وحمل كل واحد على اتباع معاشه ورشده"[452].

إن مطمحا إصلاحيا من هذا القبيل، كان يحتاج إلى إحداث تغييرات عميقة داخل الجهاز المخزني بأكمله، لذلك سرعان ما اصطدمت هذه المحاولة بالمصالح والامتيازات التي كانت لأفراد من الجهاز المخزني، وتفطن المولى عبد العزيز بعد مضي ثلاث سنوات، إن السبب الحقيقي وراء إخفاق هذه المحاولة، يرجع أساسا إلى ظهور معارضة قوية وسط مخزنه المركزي والمحلي. ونعثر على رسالة في هذا الصدد بعث بها السلطان إلى القائد عيسى بن عمر العبدي بتاريخ 19 جمادى الأولى عام 1332هـ/غشت 1904م يقول فيها:

"...ثبت عند جنابنا... أن السبب في تراخي العامة في أداء فريضة الترتيب هو ما عليه العمال من السعي في تعطيل إجراء العمل بذلك لكراهيتهم نجاح أمره... مع علمهم بأن جبايات القبائل هي العمدة في تعمير بيت المال... والمحقق عند العامة إنها مذعنة لأداء ذلك بفرح وسرور وإنما يمنعها وسوسة العمال المتلونة في كل قبيلة... وإذا كان العمال الكبار النصحاء لا ينفعون في ذلك سيما في هذا الوقت فمتى يرتجى نفعهم"[453].

ومن المحتمل أن تكون هذه المحاولة الإصلاحية إحدى الأسباب التي أدت إلى قيام تحالف موضوعي بين الفئات المحافظة، التي كانت تسعى لحماية مصالحها وامتيازاتها، وعرقلة كل محاولة تسعى للنيل منها، لأن هذه المحاولة من شأنها "... أن تحدث اضطرابات في عاداتهم وأخذهم للرشاوى فكانت مصلحتهم عرقلة الترتيب"[454].

---

[451] - كناش خلاصة الرسائل الصادرة إلى بعض الأمناء والقواد ما بين(1313--1314) خ.ح.ر./رقم 422 رسالة السلطان على سائر القواد والعمال ومن بينهم عيسى بن عمر بتاريخ ذي الحجة عام 1313هـ.

[452] - غريط محمد: فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان - فاس 1947/ص95.

[453] - الخديمي علال: مجلس الأعيان ومشروع الإصلاحات الفرنسية بالمغرب 1905م مساهمة في الأيام الدراسية حول الإصلاح في المجتمع المغربي في القرن 19/منشورات الآداب/ص 761 هامش 7.

[454]- HARRIS.W: Le Maroc disparu. Tr orient.Paris 1929p.63

لم تكن إذن هذه المحاولة كافية للحد من الممارسة التعسفية للقواد، وإثقال كاهل الرعية، إذ أصبح هذا النهج متجذرا داخل البنية القيادية ولم يعد سهلا زعزعته بمجرد قرارات صادرة من السلطان، فطالما ردد السلطان في رسائله بعض الضوابط التي كانت تحكم العلاقة بين القائد وإيالته، ونسوق رسالة في هذا الباب حول النموذج الذي يهمنا وهو القائد عيسى بن عمر تقول الرسالة.

"...فقد علمت أن الضابط الذي أسسناه لك ولغيرك من العمال في إيالات رعيتنا السعيدة ظاهر المصلحة وكفيل بتسكين الناس، وإقرارهم على الهناء والأمن وقطع مواد التشويش بسلامتهم من الأسباب التي تنشأ عنها ذلك من اتباع أغراض الطمع، ومن مد الأيدي على أمتعتهم بلا موجب، وغير ذلك من التعديات، وراعينا في ذلك المصلحة العائدة على الناس وعلى عمالهم وعلى جانب المخزن..."[455]

إن ما يمكن استخلاصه من هذه الرسالة هو أن المخزن المركزي، كان يدرك الأسباب الداخلية التي أدت إلى تفاقم الأوضاع. وكان يربطها بمختلف أشكال التجاوزات التي كانت تمارس من طرف القواد ضد السكان، خصوصا وأن هذه التجاوزات لم تعد تقتصر على القواد وحدهم، بل إن الخلفاء بدورهم أصبحوا يغالون في ممارستها وهذا ما دفع السلطان إلى تنبيه القائد عيسى ابن عمر العبدي للحد من تجاوزات خليفته، فيقول : "بلغ لشريف علمنا أن خلائف العمال... صاروا يمدون أيديهم في الإيالة بالفرض والقبض والتعدي حتى أفضى الحال بجل الناس إلى الركون للأجانب، وبيع زروعهم قبل إفراكها، من شدة ما ثقل عليهم من الالتزامات والمخالفة لما صدر به أمرنا الشريف. ومن العيب أن يخفى على العامل ما يفعله خليفته، أو يدعي وجها لالتماس العذر بجهله مع علمه بأن الدرك والعهدة في ذلك عليه. وها نحن جددنا لجميع عمال أمرنا الشريف بالفحص عن أعمال خلائفهم وانتقادها عليهم وكفهم عن ذلك وتوعدهم على اقتحام المخالفة، فإن هذا هو السبب في إحياء عرق الفتنة وإجراء الغوغاء.

وعليه فنأمرك أن تلزم خليفتك بالجريان على الظابط المؤسس لكم، والانكماش على مد اليد في متاع الناس وعدم العود لشيء يخالف المراد ولا تقبل منه رخصة فيما يرجع لذلك، فإن عهدته عليك، وها نحن وراء ما نسمعه عنكم بعد الاسترعاء"[456].

ولعل ما زاد من خطورة التجاوزات ظهور التهديد الأجنبي وما رافقه من فقدان المخزن لسيادته خصوصا بعد أن أصبح البعض يتخذ الركون للأجانب دريعة للهروب من تجاوزات أفراد المخزن.

وبسبب السياسة التعسفية التي مارسها القائد عيسى بن عمر العبدي ضد أهل ثغر أسفي، كثرت مهاجرتهم إلى طنجة، وغيرها من الموانئ بقصد الدخول في حماية الأجانب، وفي هذا الصدد كتب محمد بن العربي الطريس النائب السلطاني بدار النيابة بطنجة، إلى السلطان المولى عبد العزيز، رسالة يبين فيها دواعي وأسباب هذه الهجرة فيقول:

---

[455] ـ المنوني محمد: مظاهر يقظة المغرب الحديث، البيضاء 1985/ص145/ملحق 30.
[456] ـ نفسه، ملحق 30.

"... إن سببها معاملة عاملهم القائد عيسى ابن عمر بالقسوة والجفاء والغلظة، من استقصاء الأموال وجلد الظهور والسجن وغيره من عظائم الأمور، وبلغنا أن هجرتهم غير مقصورة على هذا الثغر (طنجة) بل ملأوا الصويرة والجديدة والدار البيضاء وغيرها من بلاد الإيالة السعيدة، ولم يقتصر على المعاملة المذكورة مع من معه في البلد (أسفي وعبدة) بل صار يكتب بأناس يدعي بأباطيل مزخرفة لا أصل لها، ولا يخفى أن هذا العمل مناف لنوايا سيدنا أعزه الله، ولعواطفه السانية نحو رعيته من سلوكهم بهم مسلك الإصلاح الديني والدنيوي..."[457].

ولم تعد هذه الممارسات التعسفية التي أفرط القائد في استعمالها ضد أفراد إيالته، محصورة في إطارها الضيق، بدون أن تثير فضائح، بل إن الأجانب كانوا يشهرون بها، ويتحدثون عنها في صحفهم، مما كان يعطي صورة مشوهة عن أطر المخزن سواء المحلي أو المركزي، وهذا ما أكده الطريس في نفس الرسالة، يقول :

"..وحيث كانت أعمالهم تشيع في الجرائد الأجنبية، ويطلع عليها العدو والصديق... ويملأ فاه بما يحب، فعلينا البلاغ ولسيدنا نصره الله واسع النظر..."[458].

<u>- بعض المبادرات الإصلاحية للحد من تعسفات القواد والعمال:</u>

لا شك أن المبادرات الإصلاحية التي حاول السلطان المولى عبد العزيز الإقدام عليها، كانت تعكس وعيه باستفحال الحالة الداخلية للبلاد، بسبب ممارسة القواد والعمال لسياسة التعسف والنهب والابتزاز، ورغبته الجادة للحد من انتشار نفوذهم الذي بدأ يتضخم خصوصا في الجنوب.

وقدم السلطان نموذجا في السلوك، من خلال ممارسة فعلية للتخفيف عن "الرعية"، وذلك بإعفائه الرعية من تقديم الكلف المخزنية بمناسبة حركته من مراكش إلى الرباط أواسط سنة 1319هـ/1901م فلم يطالب هذه الجهات التي مر منها بتموين حركته"[459] كما أن السلطان نفسه استقدم القواد"... وأمرهم بالكف عن إذاية الناس وأن لا يسمحوا - من جهة أخرى لأنفسهم - بأن يبتزهم أحد"[460].

كما أن المشاريع الإصلاحية، التي قدمت للسلطان المولى عبد العزيز، فيها من الإشارات ما كان يبرز الإحساس لدى النخبة بعمق هذه العلاقة التعسفية التي كانت تربط المخزن المحلي "بالمواطنين"، فمن خلال المشروع الذي اقترحه عبد الله بن سعيد السلاوي، نجد في الفصلين الثالث والرابع ما كان ينص على اقتراح تكوين:

"...مجلس مؤلف من أهل العلم والمروءة والجد والديانة والمعرفة، بقصد النظر في مصالح البلد، ويرجع إليه فيما عسى يصدر من العامل لرعيته... وإذا ثبت عنده جور العامل على الرعية، بعد البحث التام، يكتب له فيه، فإن أنصف فذاك، وإلا فيطلع به شريف علم مولانا نصره الله"[461].

---

[457] - كناش مكاتيب دار النيابة خ.ع.ر 2720 ك/رسالة رقم 236. رسالة من النائب الطريس إلى السلطان بتاريخ 16 قعدة الحرام عام 1324.
[458] - نص الرسالة أعلاه.
[459] - المنوني: مذكور/ص140 و141 - نقلا عن الكاتبة الإنجليزية: فرنسيس مكنب، ص 126.
[460] - نفسه: مذكور، ص 140.
[461] - نفسه: مذكور، ص 126.

ولعل هذا المشروع، كان يهدف وضع جهاز قار لمراقبة أعمال القواد والعمال، قصد الحد من جورهم وتعسفاتهم. وكان هذا التوجه العام من ضمن الأسباب التي دفعت بالقواد الكبار إلى البحث عن واجهة لإعادة تدعيم مركزهم، وإضفاء الشرعية على ممارستهم، خصوصا وأن الظرف لم يكن في صالح السلطان عبد العزيز، بعد أن استفحل التدخل الأجنبي، وأصبح السلطان عاجزا عن وضع حد له. كما زادت التمردات الداخلية من إنهاك قواه المادية والمعنوية، ولعل هذا ما سمح بظهور وضع جديد داخل الجنوب تمكن القواد الكبار من تفجيره.

III- موقف القائد عيسى بن عمر من الوجود الأجنبي داخل عبدة

1- بداية التسرب الأجنبي إلى عبدة

كانت مدينة أسفي من المراسي التي استقطبت التجار الأجانب، فاستقرت بها بعض المؤسسات التجارية الأجنبية، من بينها الشركات الإنجليزية والألمانية اللتين سيطرتا على تجارة أسفي خلال هذه الفترة، ويقدم " دوتي DOUTTE" الذي زار المنطقة حوالي سنة 1901م صورة عن هذا النشاط فيقول:

" على الأقل يوجد حوالي عشرين إنجليزيا وأربعة إلى خمسة ألمان، والمؤسسة الفرنسية الوحيدة يمتلكها يهودي بأسفي هو إسرائيل لالوز: ESRAELLALOUZ"[462]
ومن أهم المؤسسات التجارية التي تحدث أسفي مقرا لها، نذكر من بينها:

* المؤسسات الإنجليزية

1.	مردوخ	MARDOCH BULTER and
2.	هانوت	FERNAU ET HUNOT L.T.D.
3.	أندروز	W.H. ANDREWS __
4.	برودير	LAMB. BROTHERS

وكانت مؤسسة مردوخ من أقدمها حيث أنشئت منذ تاريخ 1860 باسفي وظلت تحتكر التجارة، وتهتم هذه المؤسسات باستيراد السكر والكحول والزجاج والورق... كما تصدر عن طريق ميناء أسفي القمح والشعير والجلود.

*المؤسسات الألمانية:

1.	وايس وماور	WEISS ET MAUR
2.	مانسمان	MAROKKO MANNESMAN
3.	ريخطر	H. RICHTER
4.	فريطاكت كرام	FREITAGET.W.KRAM

وكانت لها نفس الاهتمامات التي كانت للمؤسسات الإنجليزية.

462- دوتي، ص 184.

وعن طريق هذه المؤسسات التجارية بلشر الألمان تأثيرهم نحو مراكش[463].

وقد كان اهتمام هذه المؤسسات الأجنبية، بجانب احتكارها للنشاط التجاري، التوغل داخل عبدة عن طريق الاستفادة من استعمال المخالطين والوسطاء، أو تقديم الحمايات، مما ساعد على تنشيط التعامل لصالح الاحتكارات الأوروبية المستقرة بأسفي، خصوصا وأن الأجانب كانوا يرون بأن"... عبدة كانت من بين الجهات الأكثر هدوءا واستقرار في المغرب... فاستغل الأوروبيون هذه الحالة، واستثمروا بعض الأراضي التي كانوا يملكونها في نواحي أسفي"[464]

وشرع الأجانب في توسيع أملاكهم داخل عبدة انطلاقا من سنة 1878 حيث لم يكن لهم الحق في تملك العقار قبل سنة 1856 " وصار التسابق إلى استعمار الأراضي بالبوادي أمرا ممكنا بوسائل ملتوية بالرغم من تحذير السلطان، ومن التدابير التي كانت تتخذها السلطات الإدارية والقضائية لدى التسليم والإشهاد العدلي"[465]. وذلك ما يمكن استخلاصه من الجدول التالي:

مساحة الأراضي التي امتلكها الأجانب بعبدة

سنة التمليك	اسم المالك	جنسيته	المساحة الكلية	المحروث منها	الباقي
1897	KARRARA	إنجليزي	84	70	14
1900	ADOL	نمساوي	12	10	02
1903	KELLNER	إيطالي	245	245	00
1905	KARL	إسباني	40	38	02
1906	ZABBAN	إسباني	130	50	80
	EMILION	إنجليزي	26	26	00
	FANTOUN				
	PETRO				
	FANTOUN				
	THOMAS				
	MURDOCH				
	BULTER				
1907	ANDRE	فرنسي	100	70	30
1907	JOSEPH	فرنسي	30	20	10
1907	" "	فرنسي	61	61	00
1909	"	فرنسي	100	60	40
1911	" "	فرنسي	180	180	00
	"				
	ALLOUCH				
	GABRIEL				
	CHANEL				
	RAOUL				

463 - نفسه، ص. 184

464 - بريف: مذكور، ص 245.

465 - بوشعراء المصطفى: الاستيطان والحماية بالمغرب (1863-1894) المطبعة الملكية 1984 ج 1 /ص 349. ملاحظة في الهامش.

نستنتج من خلال الجدول أعلاه[466] :

- أن امتلاك الأراضي بعبدة من طرف الأجانب قد ظهر مبكرا.

- أن التغلغل الأوربي داخل عبدة اكتسى طابع التملك واقتناء الأراضي من طرف الشركات الاحتكارية الأروبية المقيمة بأسفي.

- أن مجموع المساحة التي تملكها الأجانب في الفترة ما بين 1897 إلى 1911 كانت تفوق الألف هكتار.

- أن المحروث من هذه المساحة كان يصل إلى 380 هكتارا مما يوضح أهمية الاستثمار الفلاحي بالمنطقة.

- أن امتلاك الفرنسيين للأراضي بعبدة لم يظهر إلا سنة 1907 ومنها بدأ احتكار تملك الأراضي من طرفهم.

ولعل ذلك ما جعل من عبدة منطقة للتسلل الأوربي نحو الجنوب قصد تطويقه، وضرب أي حركة مناهضة لتوسيع سيطرته. وقد وصل عدد الأوربيين آنذاك حوالي 700 أوربي[467] لذلك لا نستغرب إذا اتخذت طلائع الاستعمار الفرنسي، من أسفي وعبدة إحدى مواقع انطلاقها، لضرب حركة لأحمد الهيبة فيما بعد. ومن المؤكد أن هذا التسرب كان عن طريق المخالطين من جهة، وإغراق السكان بالديون من جهة أخرى.

2- مضايقة القائد للمخالطين

تسعفنا بعض الرسائل المخزنية على تكوين نظرة أولية حول مخالطة سكان عبدة للأجانب، وما كان يترتب عنها من الديون، وإلحاح المخزن المركزي على ضرورة تصفيتها خوفا من أن تؤدي إلى توسيع أملاك الأجانب عن طريق بيع الأراضي أو رهنها، وكانت" الخلطة الفلاحية أفيد من الإنتاج الفلاحي نفسه، ولا سيما عند الدكتور "ألار:ALLARD" نائب قنصل فرنسا، الذي وصل إلى مدينة أسفي دون وسائل مادية كافية، ثم اتخذ لنفسه خلطاء كثيرين خلقوا له مشاكل كثيرة، استفاد منها[468].

وقد حاول السلطان المولى عبد العزيز. الحد من هذه القضية عن طريق إصدار أوامر إلى كل قواد القبائل المجاورة لمراكش، وعددهم ستة وخمسون قائدا، من بينهم القائد عيسى بن عمر العبدي، وذلك في رسالة معممة يقول فيها:

"...فقد رفعت لأعتابنا الشريفة شكايات عدد من تجار الأجناس بمالهم من ديون على أناس من القبائل المجاورين لهذه الحضرة المراكشية طالبين استيفاءها، وقد اقتضى نظره الشريف جعل تأويل لمباشرة فصلها على وجه كفيل بإراحة المخزن من شغبها، والتسهيل على الغرماء في اقتضائها، وحسم مادتها، فأصدرنا أمرنا الشريف بتكليف ج عبد السلام الورزازي خليفة خديمنا ابن داوود بتلقيه كلام من يرد عليه من تجار الأجناس الذين لهم الديون والقبائل المذكورة. وتصفحه حجمها، وكتبه لعامل كل مدين بمقتضى الحجة الصحيحة المقبولة منها مع بيان إسم التاجر واسم المدينة وقدر الدين وبيان المخالطة أو المعاملة التي ترتب من أجلها بتاريخها.

[466] - اعتمدنا في وضع الجدول على المعلومات التي أوردها (أتطونا ص 116) بنوع من التصرف.
[467]- Deperigny. (st Maurice), Au Maroc, Marrakech et les ports du sud, Paris. 1918/p.223
[468] - بوشعراء: مذكور، ص 349.

وعليه فإذا كتب لك الخليفة المكلف في شأن ما تعلق من ذلك بإيالتك، فنأمرك أن تستخرج ممن تعلق بذمته بتوجيهه ليد الخليفة المذكور، ليكون الدفع والإبراء تاما على يده بموجبه، وأن نازع الغريم فيما ادعى من عليه، فلتبادر بتوجيهه لمقابلة خصمه بمراكش لدى المكلف المذكور... كما نأمرك أن تقوم على ساق الجد والاعتناء فيما يرد عليك به كتاب المكلف المذكور وألا تهمل شيئا من قضاياه لتريح وتستريح بالقيام بما عليك في إيانه، وإلا كانت عهدة التراخي والمماطلة فيها عليك...[469].

ولعل مساعي المخزن المركزي في هذا الباب كانت تصطدم بإرادة الأجانب في جعل هذه الديون مطية لهم، للنيل من سكان القبائل، فكثرت شكايات الأجانب واحتجاجاتهم، وتعددت المراسلات في هذا الباب واقدم بعض النماذج المتصلة منها بعبدة والموجهة إلى القائد عيسى بن عمر العبدي، تقول بعض هذه الرسائل:

1-"... وبعد فإن باشدور الطليان كتب لنا ذاكرا أن التاجر الياه بن دافيد وحايون ترجمان قنصلهم ثمة ديون على أناس من إيالتك، وطالما طلب التوصل بها لم يحصل على طائل، وعليه فلتوجه الغرماء ليد عامل أسفي المحاسبة من المدعي بعد أن تبين لك أسماؤهم بواسطة القنصل، ومن ثبت عليه الحق بموجبه وكان عنده ما يؤدى منه، فيشد العضد في استيفائه..."[470].

2- "... فإن باشدور الألمان كتب لنا معلما بأن لدار تاجرهم باب بأسفي دينا على مولاي هشوم السباعي الأغياطي التاجر المذكور توصله بما هو عليه، وعليه فبمجرد وصول هذا... وعجل بتوجيه المدعى عليه ويؤدي له ما ثبت عليه... ولتشد العضد فيما يكتب لك به العامل المذكور في استخراج ما ثبت على المدعى عليه من متاعه إن كان..."[471].

ولم يكن القائد عيسى بن عمر يستسيغ هذه المخالطة، وما قد يترتب عنها، خصوصا إذا تعلق الأمر بحماية المخالطين من طرف الأجانب، وخروج عدد من سكان إيالته عن طاعته، لذلك كان سلوك القائد إزاء التجار الأجانب ومخالطيهم تثير الدهشة.

فهل كان هذا السلوك من القائد موقفا من الأجانب ومخالطيهم؟

لقد كثر تشكي الأجانب من ممارسات القائد إزاء مخالطيهم، وأكثروا من الشكايات، مما جعل الرسائل تتعدد في هذا الباب ونقدم نماذج منها:

- "... اشتكى علينا مبارك بن الجيلالي العبدي صاحب التاجر شوى حسان البرطقيزي بأن أناسا من عبدة نهبوا له أربعة ثيران..."[472]

-"...فقد اشتكى إلينا التاجر دافيد الزلاي رعية الطليان بثغر طنجة بأن أولادك أخذوا له ما كان تحت يد صاحبه... القاطن بعبدة من الكسب... وذكر أن المأخوذ له هو: ستمائة رأس من الغنم وأربعة وعشرو رأسا من الثيران وأربعون رأسا من عروض السرحة وعليه

---

[469] - كناش خلاصة الرسائل الصادرة إلى بعض الأمناء والقواد ما بين (1313-1314) خ.ح.ر 422/ص24 . رسالة من السلطان إلى قواد القبائل المجاورين لمراكش بتاريخ 17 حجة عام 1313هـ

[470] - كناش تقييد المكاتب الموجهة إلى العمال والقواد والأمناء ما بين (1319-1322) خ.ح.ر 763/ص72 . رسالة من النائب محمد الطريس إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 8 جمادى الأولى عام 1320.

[471] - نفس الكناش أعلاه، ص 79. - رسالة الطريس إلى القائد عيسى بتاريخ 23 جمادى الأولى عام 1320هـ.

[472] - نفس الكناش أعلاه، ص 21 . - رسالة الطريس إلى القائد عيسى بتاريخ 24 حجة عام 1319هـ

فإن كان كذلك فلتقف على رد هذا المأخوذ على صاحبه حتى يتوصل به وتتحسم مادة الدعوى...[473].

"... فإن نائب المركان بثغر طنجة رفع إلينا شكاية صورتها أن لحمد بن التهامي من رعيتهم الذي هو بعبدة كان وجه خمسة جمال له بقصد ثغر أسفي فنهبت له واعلم أن الشيخ محمد بن العالية العبدي هو الذي أخذ تلك الجمال... وعليه فلا بد أن تبحث عن تحقيق الواقع في القضية..."[474]

تمكننا هذه الرسائل من معرفة نوعية المخالطة، وحجمها، بالنسبة للتجار الأجانب، كما تؤكد على أن عملية النهب كانت نابعة من بعض الجهات المقربة من القائد. فهل كان ذلك موجها بإرادة القائد؟

إن ما يمكن استخلاصه، هو أن القائد عيسى ابن عمر، لم يكن يستسيغ هذا التعامل، لما يترتب عليه من فرض حمايات شخصية يتمتع أصحابها بصلاحيات تجعلهم خارج سلطة القائد، لذلك كان يلجأ إلى خلق جو من الرعب لإفزاع المخالطين وتنحية مشاركيهم الأجانب عن التعامل معهم.

لقد كان الجو العام داخل عبدة ينفر من ظاهرة المخالطة مع الأجانب، ويعتبرها بدعة محرمة، وسواء كان للقائد عيسى بن عمر موقفا من ذلك أو لا، فإن ما تؤكده الوثائق هو أن التهديد والرعب كان يسود أوساط المخالطين، وهذا ما تؤكده الرسائل التالية :

"... فإن التاجر يوشعا حسان البرطقيزي أخبرنا بأن أصحابه المذكورين... كانوا متوجهين بعدد رؤوس من البقر إلى نواح من أحواز أسفي فإذا بأناس من إيالتك كلموهم بكلام أفادهم عدم الأمن على ما بيدهم من الرؤوس المذكورة..."[475]

كما كان يتعرض المخالطون إلى عملية الانتقام والضرب: "...فإن باشدور الاسطريالي كتب لنا بأن أصحاب القائد... هجموا مرتين على دار الهاشمي ابن المامون العبدي مخالط التاجر فريدريك كلز الاسطريالي القاطن باسفي وضربوا أمه وزوجته"[476].

وتصل العملية أحيانا إلى تكبيد المخالطين خسائر مادية فادحة عن طريق الإحراق أو الإتلاف وغيرهما. "... فإن نائب الألمان رفع إلينا قضية وهي أن الأناس طرته(...) عمدوا إلى محل سكن... صاحب التاجر وايس وماور كمبانية بأسفي وأحرقوه ومن جملة ما أحرق عدد من الجلد من حساب التجار المذكورين...[477].

إن كل هذه الأعمال تؤكد أن الجو العام داخل عبدة كان ينفر من ظاهرة المخالطة وما يرتبط بها من الوجود الأجنبي، وكان القائد بدوره يخنق هذه الظاهرة عن طريق الفزع أو الرعب الذي كان يسمح بانتشاره داخل القبيلة.

[473] - نفس الكناش أعلاه، ص 34 - رسالة الطريس إلى القائد عيسى بتاريخ 22 محرم عام 1320هـ.
[474] - نفس الكناش أعلاه، ص 85 - رسالة الطريس إلى حمزة بنهيمة بتاريخ 9 جمادى الأولى عام 1320هـ.
[475] - نفس الكناش أعلاه، ص 406 - رسالة الطريس إلى القائد عيسى بتاريخ 23 صفر عام 1322هـ.
[476] - نفس الكناش أعلاه، ص 142. - رسالة الطريس إلى حمزة بنهيمة بتاريخ 18 قعدة عام 1320هـ
[477] - نفس الكناش أعلاه، ص 304 - رسالة الطريس إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 22 شعبان عام 1321هـ.

3-معاملة القائد للتجار الأجانب

لقد كان سلوك القائد ومعاملته للأجانب مثار استنكار من طرفهم، فقد كثرت شكاياتهم بالقائد عيسى بن عمر لدار النيابة بطنجة فرفع النائب محمد بن العربي الطريس إلى وزير البحر عبد الكريم بن سليمان رسالة يقول فيها:

"...فيكون في علم السيادة أنه كثر ورود الشكايات على دار النيابة السعيدة من قبل نواب الأجناس في شأن القضايا التي تعرض لهم لدى القائد السيد عيسى بن عمر، من أنه لا يحسن السيرة في مباشرة أمرها، ويسلك سبيل الخرق للشروط في ذلك. وكررنا له عددا من المكاتب بالمتعين في موضوعها، والتنبيه بالمقتضى فيها، فلم يكترث، ولم يرفع لذلك رأسا، ولم يجب على غالب المكاتيب الموجهة له في تلك القضايا، وصار النواب يسترعون على جانب المخزن في شأن ذلك..."[478]

ولعل هذا السلوك المتميز بالتضييق على الأجانب وعدم الاكتراث بما يتصل بقضاياهم، يدفع إلى التساؤل عن خلفيات تلك الممارسات ألا تعكس هذه الأعمال موقف القائد من استفحال النفوذ الأجنبي بالمنطقة، وهل كان موقفه مناقضا للمخزن المركزي؟

إن ما تؤكده الوثائق، هو أن المخزن المركزي كان يحث القائد على ضرورة الالتزام بما حددته الشروط، فيقول : "وقد كثر تشكي نواب الأجناس لكونك لا تعامل تجارهم بحسن السيرة وترتكب في شؤونهم أمورا في ذلك، وعليه فنأمرك أن تكون على بال من تجار الأجناس، وتستيقظ في أمورهم، وتعمل بغاية الاحتياط فيها، وتحسن المصارفة معهم على طريق الحق، وتقف عند ما حددته الشروط حتى لا يجدوا ما يشتكون منه"[479].

ولكن القائد عيسى بن عمر، على ما يبدو، لم يعد يطيق ما وصلت إليه الحالة من خرق الأجانب لهيبة المخزن وتطاولهم على سيادته. وربما استصغر موقف المخزن المركزي، ولم يعد يبالي بما يصدر منه من أوامر، فقد أصم أذنه عن كل الأوامر التي كانت توجه له من طرف السلطان فيما يخص هذه القضية، لذلك أعاد السلطان أمره مرة أخرى بالكتابة إليه في نفس الموضوع، يقول:

"..وقد أخبرنا نائب الألمان بأنك تعامل مخالطي تجارهم الذين في إيالتك بغير الجميل، وبما فيه خرق للشروط، وكلما كتب لك في ذلك... فتصلهم بأسفي لاتجيبه ولا تظهر أثر اعتناء بأمره، وقد كتب لك خديمنا النائب الحاج محمد الطريس بإجراء الأمر معهم على القواعد المقررة، فلم يظهر أثر لذلك، وبعده قبضت على ... المخالطين للتاجر ريخطر الألماني من غير تقديم إعلام وطالبتهما بأداء ألف ريال لتسريحهما، وحصل ضرر للتاجر المذكور بسبب سجنهما، ثم قبضت على... مخالطي التاجر وايس وماور الألماني وطالبتمهما بأداء خمسة عشر مائة ريال لتسريحهما، وقد حصل الضرر الكبير لتجارهم وتعذرت أمورهم، وعليه فقد استغربنا صدور ذلك منك، ونأمرك أن كان الأمر كذلك أن تعجل بتسريح المخالطين المذكورين، ثم إن كانت عليهم تباعة لجانب المخزن أو لأحد من الرعية، فوجههم مسرحين لدى خديمنا النائب الحاج محمد الطريس، ليقف في استخراج الحق منهم على

---

[478] - كناش مكاتب دار النيابة خ.ع.ر 2720 ك/ص 129. رسالة النائب الطريس إلى الوزير بن سليمان بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 1324هـ

[479] - كناش مكاتب الطابع الشريف خ.ع.ر - 1695 د / ص 19. رسالة السلطان إلى القائد بتاريخ 25 جمادى الأولى عام 1324هـ

وجهه، بعد أن تبين لهم ما متبوعون به بحجة، ومثلك لا يجهل ما ينشأ على التراخي في تسريح المقبوضين وما يعظم به أمر القضية إن تساهلت فيها..."[480].

وعلى العموم فإن معاملة القائد للأجانب كانت محفوفة بنوع من الحذر، وأحيانا بنوع من الاحتقار، فلازالت الذاكرة الشعبية تتحدث عن بعض عادات القائد الذي كان لا يتسلم رسالة من الأجانب إلا بعد أن يضع على يده قطعة من القماش(طرف من سلهامه أحيانا). وإذا كان مضطرا لمصافحة أجنبي، فإنه يبادر إلى غسل يديه بسرعة، حيث، كان صاحب" الطاس" يرافقه دائما في مثل هذه المناسبات[481] . ولعل هذا ما لاحظه " فايسجربر Weisgerber. واعتبره اعتناء دائما بيديه الأرستقراطيتين[482].

[480] - نفس الكناش أعلاه، ص 43 - رسالة السلطان إلى القائد بتاريخ 8 شعبان 1324هـ.
[481] - رواية شفوية من نفس المحدث.
[482] - فايسجربر بمذكور، ص 330.

الفصل السابع
عيسى بن عمر العبدي وزيرا للخارجية
1911-1908

I- قواد الحوز يؤطرون الهيئة الحفيظية

1- عيسى بن عمر وزيرا للخارجية ضمن الهيئة الحفيظية

أ- ظهور الحركة الحفيظية بتدعيم قواد الحوز.

كان المولى عبد الحفيظ ، إبان خلافته بمراكش في موضع شك وحذر من طرف أخيه السلطان المولى عبد العزيز، وذلك بعد أن تأكدت الشبهات حوله بسبب موقفه الذي اتضحت معالمه، على إثر توقيع السلطان على وثيقة الجزيرة الخضراء. فقد أورد مراسل جريدة " مورنينغ بوسط" تصريحا نسبه إلى المولى عبد الحفيظ: قال فيه:

"إننا سنراعي المعاهدات القديمة، وإني لطمح إلى ربط علاقات ودية مع جميع القوى، وإلى رؤية تجارتكم وتجارتنا في ازدهار لكن ماذا أعرف عن معاهدات الجزيرة الخضراء، فنحن لم نستشر ولا يمكنكم تحديد مصير سبعة ملايين من المسلمين الذين يشكلون وطنا موحدا – دون أخذ مشاعرهم العرقية والدينية بعين الاعتبار " [483] وأدى هذا التصريح الخطير، الذي كان يعبر في عمقه، عن موقف كان سائدا وسط عديد من فئات المجتمع، إلى ظهور حذر شديد ومراقبة مستمرة لكل تحركات الخليفة مولاي عبد الحفيظ فكان ابن كبور الدمناتي باشا القصبة بمراكش "...على الخليفة عينا وأذنا، ولا يساعده فيما لم يعط فيه رخصة وإذنا، حيث لوعز إليه أن يحول بين الخليفة وبين أي تظاهر"[484] ولذلك كان باشا القصبة، يكتب إلى السلطان عن كل تحركات الخليفة، ويترصد كل علاقاته خصوصا مع الأجانب، إذ كانت الملاقاة معهم لا تتم إلا بإذن خاص، وأحيانا كان الخليفة يخرق العادة، فبعث له السلطان ينبهه إلى خطورة ممارسته، فيقول :

"... على أن العادة المقررة عند جميع من تقدم له التكليف في منصبك منذ حياة سيدنا المقدس وقبلها، إنهم لا يتلاقون مع لجنبي قط إلا بإذن خاص ولا سيما من لهم توظيف في خدمة دولهم، وعليه فنأمرك أن تحافظ على منصبك من مثل هذا، وأن تتحرى كل ما يجر إليه"[485].

وكانت علاقة الخليفة المولى عبد الحفيظ مع الأجانب تزيد من تخوفات السلطان خصوصا وأنهم أصبحوا يطلعون على حياته الداخلية ولا يكترثون بنشرها فكتب إليه مرة أخرى ينبهه ويقول :

---

[483] - عياش، ألبير: المغرب والاستعمار : حصيلة السيطرة الفرنسية ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين العوفي منشورات دار الخطابي : 1985، ص 81 نقلا تادريو :TARDIEU

[484] -غريط محمد: الجمان، ص رقم 120.

[485] - كنانيش مكاتب الطابع الشريف خ.ع.ر 1695 د/ ص 100. رسالة السلطان إلى خليفته بتاريخ 17 صفر 1325 ه.

"بلغ علمنا الشريف تحدث بعض الأجانب عنك بما يطلعون عليه من أحوالك الداخلية، التي لا يتناسب إطلاع الخاصة عليها، فضلا عن الأجانب، لكون منصبك يأتي ذلك، ومن المعلوم أن الأجانب لا يكترثون بنشر ما شهدوا وسمعوا، بل يولدون من ذلك أكثر"[486].

واستفحلت مخلوف السلطان بعد أن، تم استقطاب باشا القصبة ابن كبور الدمناتي من طرف المولى عبد الحفيظ وسار يكتب للسلطان بعكس ما كان يذكره سابقا إذ كان يوهم السلطان بأن نواياه إزاء المولى عبد الحفيظ كانت خاطئة: "... فأكثر من ذلك حتى شك السلطان... فأراد أن يعرف الحقيقة فبعث لجنة تحقق الأمر كما هو... وتلقاها الخليفة بكلتا اليدين... ثم رجعت وقلوبها مرفرفة حوله، فأنهت إلى السلطان أنها استيقنت كل ما يرمي به الخليفة بهتان...[487]

وجد المولى عبد الحفيظ آنذاك في تدعيم مركزه داخل الجنوب، بعد أن استفحل أمر المخزن المركزي بسبب تأزم الأوضاع الداخلية واستمرار تمرد بوحمارة، وتزايد الهيجان الشعبي بعد الهجوم على الدار البيضاء واحتلال الشاوية.

"... فثارت القلوب وجحظت العيون وتغلغلت الصدور من الحكومة وقد ذهبت سمعتها وانكشفت قوتها الأدبية...[488].

فاستغل المولى عبد الحفيظ الظرف العام "...لما كان بإيالة من الارتجاج وسلوك سبيل الاعوجاج..."[489]. وبدأت معالم التحضير لقيام حركة عبد الحفيظ بالجنوب. فاجتمع أعيان وقواد الحوز "... يريدون رتق ذلك الفتق عسى أن ترجع المياه لمجاريها..."[490] واتفق رأيهم على مبايعة المولى عبد الحفيظ الذي كان بين أظهرهم بالحضرة المراكشية في ذلك الحين، بعد ضعف أمر المولى عبد العزيز، فبايعوه يوم الجمعة 5 رجب عام 1325 ه / 16 غشت 1907 م. بمسجد بريمة الكائن بالقصبة عوض مسجد الكتبية واعتبرت هذه البيعة بمثابة حل للأزمة و البديل للمولى عبد العزيز، على اعتبار أن المولى عبد الحفيظ كان أكثر احتراما للتقاليد وأكثر مقاومة للضغوط الأجنبية، وبذلك كان" ... قواد الجنوب الكبار هم المفجرون لحركة مولاي عبد الحفيظ الذين أعطوها قاعدة بدوية وطاقة عسكرية ..."[491].

ب- عيسى بن عمر العبدي وزيرا للخارجية ضمن الهيئة الحفيظية (1908 – 1911).

مازلنا نجهل الكثير عن ملابسات هذه المرحلة[492] ولا نعرف كيف تم استقطاب القائد عيسى بن عمر لحركة عبد الحفيظ، وإن كان المختار السوسي على لسان ادريس منو، يذكر كيف وزعت الأدوار لاستقطاب القواد لهذه الحركة، حيث ذهب بعضهم لإقناع القائد عيسى بن عمر العبدي[493]. وتؤكد الرواية الشفوية أن الهاشمي ولد القائد عيسى بن عمر، هو الذي كان واسطة بينه وبين المولي عبد الحفيظ، فاقنع أباه القائد عيسى بضرورة الاندماج

[486] - نص الرسالة الكناش أعلاه.
[487] - السوسي المختار: حول مائدة الغداء، الرباط 1983 / ص 49.
[488] - السوسي: نفسه ص 51.
[489] - غريط: مذكور، ص 49.
[490] - ابن زيدان عبد الرحمان: إتحاف أعلام الناس، ج 1 ص 372.
[491] - Rivet .Daniel. Lyautey et l'institution du protectorat au Maroc. 1912-1925 2 VOL. P. 101
[492] - مع الأسف ما زالت وثائق هذه المرحلة بالخزانة الحسنية غير مرخص الاطلاع عليها، وكان بالإمكان أن تفيد موضوعنا كثيرا، نظرا للدور الذي تقلده آنذاك.
[493] - السوسي: مذكور، ص 51.

في البيعة الحفيظية، وتزيد الرواية الشفوية، فتذكر أن المولى عبد الحفيظ وعد الهاشمي ولد القائد عيسى بباشوية مراكش، لكن أباه القائد عيسى تحفظ من ذلك ...[494] وبعد اندماج البيعة في إطار حركة دعمها كل قواد الجنوب الكبار، انحاز القائد عيسى بن عمر لهذه الحركة، وأصبح ضمن التشكيلة المخزنية للمولى عبد اللحفيظ، وتتكون أساسا من القواد الكبار الثلاث وهم :

1- المدني الكلاوي : الصدر

2- عبد المالك المتوكي : الشكايات

3- عيسى بن عمر العبدي : البحر[495]

ويظهر من تركيبها انها وزارة " مصبوغة بصبغة الجنوب، فوزراؤها وكتابها وتفكيرها، كلها من الجنوب[496] .

وقد نتساءل عن الخلفيات التي دفعت بالمولى عبد الحفيظ إلى إسناد وزارة الخارجية لعيسى بن عمر العبدي، هل لاتصاله ومعرفته بالجاليات الأجنبية المستقرة باسفي ؟ أم لتجربته الغنية واطلاعه على أحوال البلاد ومعرفته لمشاكلها؟

من المؤكد أن القائد عيسى بن عمر العبدي كان المرشح الوحيد داخل هذه الهيئة المخزنية لوزارة البحر، لسبب وجيه، كان يتصل بتحكمه في مدينة أسفي، باعتبارها مقرا لبعض الجاليات الأجنبية، ومنها كان يباشر الحوار مع النائب الألماني، حسب ما رواه إدريس منو، الذي كان " محور المداولات بين برلين وبين السلطان عبد الحفيظ".فيقول: "... فوجدنا من قونصو ألمانيا كل تنشيط... ثم اقضى المقام أن يكون هو في أسفي ليكون دائما على الاتصال التام ببرلين...[497] .

ومهما يكن، فإن عيسى بن عمر العبدي ارتقى لمستوى وزير، يصفه صاحب الدرر اللفظية بنوع من الإطناب فيقول عنه:

"... صدر الوزارة البحرية ... محرز سياسة الحواضر والبوادي، ومقرى الروائح والغوادي ، أبو الأبطال والليوث، ومصب مسيل الاكرام والغيوث، من قامت بحسن تدبيره الخلافة على أقوم الأركان، وصارت به جموع الضلال في خبر كان، الفقيه الوزير، الرئيس الأجل الشهير ، الذي لم يزل في أمحاض النصيحة يعيد ويبدى، السيد عيسى بن عمر العبدي، لازالت ترقيه في مراقي التكريم، وتلحظه في مراتب الإجلال والتعظيم، أعين العناية المولوية والهمم الحفيظية المصطفوية...[498].

واستلزمت منه مسؤولية الوزارة الانتقال إلى الحضرة المراكشية، فاسند لإبنيه أحمد ومحمد مسؤولية النيابة عنه وخلافته،الأول بأسفي وقبيلة البحاترة وربيعة، والثاني بقبيلة العامر.[499]

---

[494] - رواية شفوية أفادنا بها السيد عبد السلام ولد القائد عيسى بن عمر العبدي.
[495] - السوسي: منكور، ص 52 .
[496] -السوسي: منكور، ص 52.
[497] - نفسه، ص 51 و 57.
[498] - مؤلف مجهول: الدرر اللفظية في المملكة الحفيظية، م.خ.ح. ر 3640/ص31.
[499] - Antona.Armand La Région des Abda – Rabat 1931/p.47

2- ظهور اضطرابات داخل أسفي وعبدة

تفطن المولى عبد العزيز إلى الدور الذي كانت تقوم به اسفي لصالح حركة المولى عبد الحفيظ، فأرسل عددا من جنوده قدموا من الرباط على متن سفن فرنسية أرست بميناء اسفي، وأعادتها إلى طاعة المولى عبد العزيز.[500]. وفر الخليفة أحمد ولد القائد عيسى بن عمر وكل أفراد أسرته وحاشيته من أسفي، والتجأوا إلى القصبة بداخل عبدة وقد ابتهج مؤيدو المولى عبد العزيز بهذا الفتح ".. وزادهم سرورا افتتاحهم (أسفي) من غير سيف ولا قتال، مما برهن عن خلوص الحب من جميع الإيالة الشريفة، واستعداد الجميع للأوبة* إلى طاعة مولانا المؤيد بالله بمجرد سنوح فرصة تمكنهم من التمسك بعرشه السعيد المبارك، واللياد بركابه السعيد[501]."

وكان مخزن المولى عبد العزيز يسعى إلى الإسراع بتعيين فرقة بوليسية فرنسية بأسفي، لكي يضمن استقرار الأوضاع، فكتب "القائد جيش الاحتلال السعيد باسفي ليهيئ أسباب ترتيب البوليس المخزني، فأجاب بأن السياسة تقضي تأخيره الآن شيئا ما..."[502] ولكن بعد حين عين، "شولتز –Schultz" على رأس فرقة بوليسية تتكون من 30 بوليسيا وبعض ضباط الصف من المدفعية[503]. كما عين القائد ابن عيسى البخاري باشا على مدينة أسفي.

أدى هذا الوضع الجديد إلى قيام قبائل عبدة ضد جيوش الاحتلال، فقاموا بمحاصرة أسفي وقطعوا عنها المواد[504] وتذكر إحدى البرقيات المستعجلة أن :

"... الحالة بمدينة اسفي مضطربة، وأبناء السي عيسى قطعوا كل اتصال بواسطة قوة فرسانهم المحيطية بالمدينة، وأن الباشا ابن عيسى لا يتوفر على الوسائل الكافية لصدهم، ويطلب امدادات من الصويرة التي ستبعث له 300 بندقية بذخيرتها... ومن أجل فك هذا الحصار، سيكون من اللازم القيام بمجهود لتدمير قصبة السي عيسى، ولا يمكن القيام بذلك، إلا عن طريق تعزيز قوة أسفي بنحو 900 جندي"[505].

كما تم تخريب وإتلاف الأملاك التي كانت في حوزة الأجانب بأحواز اسفي وعبدة وتذكر إحدى البرقيات المستعجلة:

"... ورد عليهم تلغراف من فركاطة فرنسوية بأن عزايب بعبدة قرب اسفي نهبت يوم السبت الفارط، وخرج صاحب الباشا والعدول لأعمال البينة بمشاهدة ذلك، فردهم أهل المحل الواقع فيه النهب بالبارود، وبسبب ذلك أرست فركاطة فرنسوية بالمرسى"[506].

وفي هذه الأثناء، ورد على أسفي عن طريق البحر، القائد الناجم الأخصاصي مع جماعة من أصحابه، عائدين من حركة ضد بوحمارة، فوجد الأحوال قد تغيرت، وسجل المختار السوسي ذلك على لسانه بقوله:

---

[500] - أنظر أنطونا، ص 47 وكذلك الكانوني العبدي: علائق أسفي بملوك المغرب، ص 115.
[501] - كناش مكاتب دار النيابة خ.ع.ر. 2721ك/ص197. رسالة الطريس إلى السلطان المولى عبد العزيز بتاريخ ربيع الأول 1326.
[502] - نفس الكناش ص 206- رسالة الطريس إلى الوزير ابن سليمان بتاريخ 14 ربيع الثاني 1326 هـ.
[503] - أنطونا: مذكور، ص 47.
[504] - الكانوني العبدي: علائق اسفي ونواحيه بملوك المغرب: مخطوط على الآلة/ ص 115.
[505] - وثائق وزارة الدفاع الفرنسي، برقية مستعجلة إلى قنصل أسفي بتاريخ 27 يوليوز 1908- تحت رقم 1/87-33.754.
[506] - كناش 2721/ص 245 – رسالة محمد الجباص إلى العباس الفاسي بتاريخ 20 قعدة 1326 هـ.

"...حتى إذا سامتنا هذه المدينة... فإذا بقارب اتصل بسفينتنا، فقال لي أصحابي، اذهب أنت لولا حتى نتلاقى مع باشا المدينة(أحمد) ولد عيسى بن عمر صاحبك، لتهيئ لنا عنده النزول... فلما نزلت من سلم السفينة، ووصلني القارب، قلت لسائقه: كيف حال الباشا ولد عيسى بن عمر؟. فقال لي: وأين ذلك الباشا؟ لقد غادرنا منذ أسبوع... وهذا الباشا الجديد وهو ابن عيسى العبدي(البخاري) ظالم جبار، يضرب ويسجن، ويذر الفلفل في أعين كل من ينكل بهم ممن فيهم غيرة على الإسلام... فحيكت لأصحابي ما سمعت... وأعلمتهم بأن القائد ابن عيسى الذي في مليلية هو الباشا هنا، ومعه جنده ذلك، وأريتهم عسكر متهيئا أمام المرسى..."[507]

ولما بلغ الباشا ابن عيسى بن عمر البخاري خبر وصول القائد الناجم الإخصاصي، أرسل له مرسولا يطلب منه العودة: "...وطلب مني على وجه الأخوة أن لا أرجع وأن لورطه هو وأهل أسفي قائلا: - أن كل من هنا من جندك، وأنهم متى رأوك فسيقفون بإزائك ويقتلونني، فتثور الفتنة في المدينة، فلا يعلم إلا الله ما سيقع، فقلت له : ... أبلغه أني ذاهب إلى حال سبيلي، ولكن لماذا بقي هو إزاء النصارى ضد المسلمين، ولماذا يبيع آخرته بدنياه ...[508]

وبسبب استفحال الأوضاع، وتزايد الضغط من طرف قوات المولى عبد العزيز على أسفي وعبدة، تخوف الخليفة أحمد ولد القائد عيسى بن عمر العبدي، والتجأ إلى طلب الحماية الإيطالية، خوفا من أن تنقلب عليه الأحوال بعد تزايد النفوذ الفرنسي. فكتب النائب محمد بن العربي الطريس إلى نائب وزير البحر في حكومة عبد العزيز آنذاك وهو ادريس البوكيلي يخبره بالأمر، بقوله : "... بلغ العلم الشريف أن أحمد ولد عيسى ابن عمر العبدي اتخذ حماية طليانية، وصير عليها نحو سبعة آلاف ريال، وأمرنا مولانا دام علاه بالكتب لقديم جماعة النواب بأن لا تسوغ حماية المتوظف المذكور بعد مفاوضة باشدور الفرنسيس في ذلك"[509].

وفاوض النائب محمد بن العربي الطريس الباشدور الفرنسي، فأشار عليه بالكتابة إلى باشدور إيطاليا، لطلب إسقاط الحماية على الخليفة أحمد ولد القائد عيسى بن عمر العبدي، ولظهر الباشدور الإيطالي: "...تساهله التام في قضية احتماء ولد عيسى بن عمر العبدي، وإسقاطه من الحماية لأول وهلة"[510]

كما كتب الباشدور الإيطالي"... لجميع النواب بلزوم رعاياهم ومحمييهم حدود الحياد، وكف الألسنة عما هو مشغول به غيرهم مما لا يعنيهم"[511].

---

[507] - السوسي المختار: المعسول ج 20/ص53- 54.
[508] - نفسه ، ج 20/ص 54.
[509] - كناش 2721 / ص 236 – من الطريس إلى ادريس البوكيلي بتاريخ فاتح رجب 1326 هـ.
[510] - نفس الكناش أعلاه/ ص 239- رسالة من الطريس إلى إدريس البوكيلي بتاريخ 12 رجب 1326 هـ.
[511] - نفس الرسالة من الكناش أعلاه.

3- سفارة الهاشمي ولد الوزير عيسى بن عمر إلى بعض العواصم الأوربية للتعريف بالسلطان المولى عبد الحفيظ.

لم تكن بيعة مراكش كافية لتثبيت شرعية السلطان المولى عبد الحفيظ، خصوصا وأن الدول الأوربية تذرعت بعدم الاعتراف إلى أن يتم دخول السلطان لفاس ويشير إدريس ولد منو إلى ذلك بقوله "... برلين قالت لنا أخيرا أن الاعتراف لا يتم إلا بعد دخول فاس"[512] وفي انتظار أن يفتح للسلطان الطريق نحو فاس لأن الشاوية كانت محتلة من طرف الجيوش الفرنسية، فقد بادر السلطان إلى إرسال سفارة لبعض العواصم الأوربية قصد التعريف بحركته. وعين على رأس هذه السفارة الهاشمي ولد القائد عيسى بن عمر العبدي، الذي كان من مؤيدي حركة المولى عبد الحفيظ، وكما سبقت الإشارة. فهو الذي أقنع أباه بضرورة الانخراط في البيعة الحفيظية، وربما كان ترشيحه سفيرا لباريس وبرلين مكافئة لعمله.

وتفيدنا الوثائق الصادرة عن بقايا المخزن العزيزي ببعض المعطيات حول هذه السفارة. فقد كتب النائب محمد بن العربي الطريس إلى وزير البحر ابن سليمان يخبره بوصول السفارة، بقوله : "..وصل ساعته ابن عيسى بن عمر وسبعة من أصحابه من ثغر أسفي متوجهين لباريس... من قبل الثائر..."[513].

وكان وصوله من أسفي إلى جبل طارق بتاريخ 21 ربيع الأول عام 1326هـ/أبريل 1908م. وتذكر إحدى الرسائل أسماء أعضاء السفارة وهم:

1. الهاشمي ولد القائد عيسى بن عمر العبدي.
2. التهامي الحبابي
3. ابن عبد الغني القباج
4. محمد بن الطاهر المسفيوي
5. الكاتب بن عزوز
6. ابن عبد القادر بنيس[514]

ولم تشر الرسالة إلى العضو السابع ولكن يبدو حسب رواية شفوية، أن هذا العضو كان هو ترجمان البعثة، وهو من أفراد الجالية اليهودية المقيمة باسفي، وقد أكد ترجمان السفارة، أن حفلا أقيم لأعضاء السفارة من طرف الحكومة الفرنسية، وصرح خلالها مسئول حكومي بأن الحفل هو تقدير من الحكومة الفرنسية للقائد عيسى بن عمر في شخص ابنه الهاشمي.[515]

وقد عادت السفارة بعد قضائها مدة شهر تقريبا، وكانت حكومة المولى عبد العزيز تترصد عودتهم "..ورد الخبر اليقين لشريف الحضرة بأن الاشخاص الذين وجههم القائد لباريس وبرلين بصفة السفراء... قد أقبلوا خائبين..."[516] فرصدت العيون لهم في كل

---

[512] - الموسي المختار : حول مائدة الغذاء، ص 57.
[513] - كناش: 2721- ص 186 - رسالة من الطريس إلى الوزير ابن سليمان بتاريخ 21 ربيع الأول عام 1326ه.
[514] - نفس الكناش ص 209- رسالة من الطريس إلى شريف الحضرة بتاريخ 26 ربيع الثاني 1326 هـ.
[515] - رواية شفوية أفادني بها السيد عبد السلام ولد القائد عيسى بن عمر العبدي.
[516] - كناش 2721 ك ص 209 نفس الرسالة.

المراسي بقصد اعتقالهم، وتشير الرسائل إلى: "... أن الأوامر الشريفة صدرت لعمال المراسي السعيدة بالتيقظ، ونصب العيون لترصدهم بكل مرسى وضواحيها، وترتيب الحراسة المقنعة في عدم تغفلهم بالحيلة وتثقيفهم عند الظفر بهم... بادرنا بالكتابة لعامل العرائش وتطوان، وأكدنا عليهما غاية التأكيد في أعمال التعيين، ونصب الأرصاد عليهم، كما نبهنا هنا في طنجة من تعين تنبيهه، ونحن على غاية التنبيه لهم والمولى يظفر بهم وبكل فتان...[517].

4- عودة الوزير عيسى بن عمر إلى الحوز لضبط الأمن

كانت الظروف الداخلية والخارجية تستدعي انتقال المولى عبد الحفيظ إلى فاس، ولكن لاحتلال الشاوية من طرف القوات الفرنسية كان يحول دون ذلك "...لذلك أبطأ السلطان كثيرا هناك(في مراكش) قبل أن يفتح له الطريق إلى فاس "..وعزم المولى عبد الحفيظ أن يتقدم إلى الغرب"[518] مخافة أن تتقطع الطريق بينه وبين فاس.

"وقدم عليه صهره محمد وحمو الزياني بقصد الإعانة والجهاد... ونصح له أن يتوجه لفاس عن طريق بلاده" [519] وفي الطريق انسحب القائد المتوكي رغم تسميته وزيرا للشكايات في الهيئة الحفيظية، والتحق بمعسكر المولى عبد العزيز، وأصبح من أهم مؤيديه داخل الحوز."... ومن الصعب معرفة أسباب ذلك التراجع، هل لعامل السن باعتبار أن المتوكي تجاوز آنذاك الستين سنة؟ وإن عاد من جديد لتأييد عبد العزيز، أفلا يكون من وراء ذلك سر، قد يعود لخلافة مع عبد الحفيظ و مع أفراد الحاشية أو الهيئة المخزنية؟"[520]

خلق هذا الوضع الجديد نوعا من الإضطراب داخل الحوز، وأصبح يكون تهديدا لمراكش مركز نفوذ الهيئة المخزنية الحفيظية، وكان سببا كافيا لحمل المولى عبد الحفيظ على إرسال "محلة بقيادة المدني الكلاوي وعيسى بن عمر العبدي مع المتطوعين، وخمسة مدافع للالتحاق بمراكش عن طريق زعير"[521] وكانت مهمة هذه الحركة هي مقاومة القائد عبد المالك المتوكي، وحين وصول المحلة إلى مراكش، تأكد لكل من المدني الكلاوي وعيسى بن عمر العبدي، أن القائد المتوكي أصبح أكثر قوة وصلابة داخل الحوز، وأنه أصبح على مشارف مدينة مراكش، لا يفصله عنها إلا واد نفيس، حيث ربط على أهل مراكش. "..وساقهم خسفا، ونسف نواحيهم نسفا، حتى ينسوا من الانتصار، وأيقنوا بالحصار، وأراد الجل أن يتحول على طاعة الإمام الأول... وكتب القائد المذكور إلى السلطان المولى عبد العزيز بأن يمكث بجيشه ولا يعجل بتقدمه، حتى يرد عليه بأهل مراكش مبايعين ولأوامره طائعين..."[522]

ويذكر ادريس منو، الذي كان ضمن المحلة:"..بأن المتوكي وصل وادي نفيس، فذعرنا ذعرا هائلا، ولو كان المتوكي مشى قدما، بمثل هذه السرعة لاحتل مراكش"[523].

---

[517] - نص الرسالة من نفس الكناش أعلاه.

[518] - السوسي: حول مائدة الغذاء، ص 57 و 59.

[519] - الحجوي: تقاييد تاريخية، خ.ع.ر. 128ح/ص43

[520] -. Michaux Bellaire un rouage du gouvernement Marocain, La Beniqat éch chikaiat de My Abdel Hfid. Revue de monde Musulman. Vol V, 1908/P.242.

[521]- Arnaud Louis: Au_temps des mehallas ou le Maroc de 1860-1912 Edit. Atlatide, Casa/ 1952-/P. 255.

[522] - المؤقت محمد بن محمد بن عبد الله: الاستبصار في ذكر الأعصار: ضمن مجموعة اليواقيت العصرية مطبعة حلبي مصر 1349هـ/ص80.

[523] - السوسي: حول مائدة الغذاء، ص68.

لكن وصول نبأ بيعة فاس، وتوالي انهزامات الجيش العزيزي في عدة جهات، وبالأخص في الرحامنة، جعل مؤيدي المولى عبد العزيز يتراجعون، فبدأ"... الاتباع يتسللون وكبراؤهم يتعللون..."[524] وأصبح موقف المتوكي محرجا.

ولعل قواد الحوز كانوا يقفون موقف التحفظ والحذر في مجابهة القائد المتوكي، وكانوا يبحثون عن فرصة للتفاوض، وكان القائد عيسى بن عمر يؤيد فكرة استمالة القائد عبد المالك المتوكي ويقول:

"...ليس علينا إلا أن نقيم السلم، فبإمكاننا أن نتفاهم، ونمتلك الجنوب بكامله لصالحنا نحن الثلاثة، يجب أن نتفق ونذهب جميعا إلى فاس"[525].

وفعلا وقع الإتفاق، ومال المتوكي من جديد لجانب المدني والعبدي بعد أن ضمنا له رضا السلطان المولى عبد الحفيظ، وقد تقاعس بعضهم على الالتحاق بفاس لأنهم"... استمرأوا* البهجة ومغارم الحوز"[526] فاستعجلهم السلطان بالنهوض فخرجوا من مراكش مع المتوكي"... في مركب كبير مزدحم بأصحاب الوزير والمتوكي وعيسى العبدي"[527].

II- ظهور التنافس والخلاف داخل الهيئة الحفيظية

1- بداية تهميش الوزير عيسى بن عمر من المهام الخارجية:

بعد انتقال عيسى بن عمر العبدي إلى فاس، بوصفه وزيراً للخارجية في حكومة المولى عبد الحفيظ، أصبح يعيش في جو آخر، مخالف لما كان ألفه في عبدة داخل إيالته، وكان عليه أن يواجه مشاكل من نوع خاص، وأن يتقن لغة الحوار الديبلوماسي مع قناصل الدول الأجنبية، وأن يستوعب السياسة العامة للمخزن المغربي، وأن يرعى المصالح المغربية.

لقد ارتقى بذلك إلى مستوى مركز القرار في السياسة الخارجية، وفي ظروف صعبة وحرجة، تصاعدت فيها المؤامرات الأجنبية ضد السيادة الوطنية. لكن الحصار المضروب على الوثائق الوطنية المتصلة بهذه المرحلة، تجعلنا نفتقر إلى كثير من المعطيات حول هذه الجوانب، وإن كانت بالمقابل التقارير والمراسلات الأجنبية قد بدأت تأخذ حيزا لملأ هذا الفراغ.

- كان بجانب الوزير نائب يباشر أمور الوزارة، وذلك منذ"...سفر ناظرها القائد عيسى بن عمر العبدي في السنة (1326/1908) عين (عبد الحفيظ الفاسي) نائبا عنه في أشغال وزارة الخارجية، فقام بمباشرة أشغالها أتم القيام... وهو الذي كان ينوب عن جلالة السلطان في أجوبة السفراء... على خطبهم المعتادة"[528].

وكان القائم بدار النيابة بطنجة هو الطالب محمد بن محمد الجاص.

[524] - غريط محمد : فواصل الجمان، ص 107.
[525] - أرنو لويس: مذكور/ص258.
[526] - السوسي: حول مائدة الغذاء، ص 70.
[527] -نفسه، ص 70
[528] - الفاسي عبد الحفيظ: رحلة تاريخية خ.ع.ر. رقم 4401د/ ص 144.

كما عين على رأس البعثة التي أرسلها السلطان إلى باريس سنة 1327 هـ/1909م الحاج محمد المقري، وعين عضوا ثانيا فيها عبد الحفيظ الفاسي.

- فكيف مارس الوزير الشؤون الخارجية؟ وما هي طبيعة القضايا التي عرضت عليه، وكيف عالجها؟

إن كثيرا من التساؤلات تبقى مطروحة إلى حين توفر شروط الإجابة. لكن المؤكد أن تناقضات عديدة برزت داخل الهيئة المخزنية الحفيظية، ربما قد أثرت على نشاط وحيوية الوزير عيسى بن عمر، الذي ظل محافظا على نمط رفيع من الحياة، كان يميزه عن بقية الوزراء، فقد ذكر القاضي ابن العربي الدكالي الذي كان من كتاب وملازمي الوزير الصدر المدني الأكلاوي. "... إن السلطان تصيد يوما، فبلغ وقت الغذاء، وكان غذاءه أبطأ، فاستأذن الكبار الذين معه في إحضار ما تيسر مع أصحابهم، فأحضر المتوكي دجاجا وشيئا من لحم مطبوخ، فإذا بالعبدي لحضر الشيء الهائل من أنواع الطواجين من الدجاج واللحوم والشواء وكل شيء، فتعجب كل من حضر.

قال: وكان العبدي من أكثر الناس أطعمة ومن أنداهم يدا، ولا يعرف القليل من أي شيء"[529]

ولعل احتفاظ الوزير عيسى بن عمر بهذا النمط من الحياة، كان يجلب عليه حقد منافسيه، خصوصا وأن الدسائس والمنافسات قد بدأت تتسرب للهيئة المخزنية، وتنخر جسمها.

فالسلطان المولى عبد الحفيظ، سرعان ما دخل في خلاف مع وزيره الصدر المدني الكلاوي، الذي كان له نفوذ وتطاول على السلطان. وكان السلطان يتهمه بأنه استأثر، بمداخيل الحوز.

والوزير الصدر، أصبح بدوره غاضبا من السلطان لما أصبح يقرب غيره، خصوصا المقري الذي أصبحت له حظوة متزايدة لدى السلطان.

كما كان الوزير الصدر في علاقة حذر واحتراس من الوزير المتوكي والعبدي، وعمل على تقليص دورهما داخل الهيئة المخزنية، ولعل السلطان المولي عبد الحفيظ، تفطن لذلك واستغل هذا التنافر بينهما، لإضعاف قوتهما، لذلك قرب منه أعوانا وخداما آخرين من أهمهم المقريين.

- أما بالنسبة للوزير عيسى بن عمر العبدي، فمن المؤكد أنه أصبح يهمش تدريجيا، وأبعد شيئا فشيئا عن كل المداولات والقرارات التي كان السلطان يباشرها مع فرنسا منذ سنة 1909م. حيث كلف الحاج محمد المقري بمباشرتها. وقد نتساءل عن أسباب هذا التهميش، ألا يمكن إرجاع ذلك إلى موقف صادر عن الوزير عيسى بن عمر؟

إن ما تحفظ به الذاكرة الشعبية نقلا عن عيسى بن عمر نفسه، أنه كان يقترح على السلطان عبد الحفيظ استغلال التنافس الفرنسي الألماني حول المسألة المغربية، والعمل على

[529] - السوسي: حول مائدة الغذاء، ص 74.

تعميقه واستغلاله، قصد الاستفادة منه، للتخلص من الهيمنة الفرنسية[530]. ومن المحتمل ان يكون هذا الموقف من بين الأسباب التي دفعت بالسلطان إلى اعتماد المقري في مفاوضته مع فرنسا، عوض الوزير الرسمي للخارجية، لذلك لوفد إلى باريس الحاج محمد المقري سنة 1909م على رأس بعثة كان من بين أعضائها عبد الحفيظ الفاسي الذي"... باشر أعمالا خطيرة، وأظهر مقدرة عجيبة، واكتسب حظوة عند الدولة الفرنسية..."[531].

وقد طالت إقامة هذه البعثة في باريس لمدة تزيد عن السنة (1909-1910) ولعلها كانت كافية لاستمالة المقري لصالح فرنسا، حيث عقدت البعثة أخيرا : "... الاتفاقية الفرنسوية المغربية مع السلطان ذي المائة مليون وشروا ذلك، وفقد المغرب شروطا من الأرض وجل النفوذ، وزاد من تداخل فرنسا..."[532].

إن غياب عيسى بن عمر العبدي بوصفه وزيرا رسميا للخارجية، عن عقد اتفاق من هذا الحجم، وبهذه الخطورة، قد برأ – إلى حد ما – ساحة الوزير، وألقى بالمسؤولية على عاتق الحاج محمد المقري الذي كان مساعدا على انتشار النفوذ الفرنسي داخل المغرب، واتهمه الحجوي بشكل صريح بقوله: "...مد المقري يد فرنسا في المغرب إلى الساعد، وقدمها كثيرا، وخان بلاده ووطنه بسبب نواله حمايتها، خوفا على نفسه ومنصبه من جبروت مولاي حفيظ"[533].

ونظرا للتقارب الواضح بين السلطان والحاج محمد المقري، فمن المؤكد أنهما كانا يخططان لإبعاد عيسى بن عمر عن الوزارة، وربما استغل السلطان التناقضات التي كانت تنخر الهيئة الوزارية، فأوحى إلى الوزير الصدر بحبك مؤامرة ضد الوزير عيسى بن عمر قصد الإيقاع بينه وبين أبنائه وتجريده من كل أملاكه، وهكذا دفع الوزير الصدر المدني الكلاوي بابن القائد عيسى بن عمر وخليفته على أسفي، وهو أحمد بن عيسى إلى شراء عمالة أبيه: "...إن الكلاوي وسوس لولده(أحمد) الذي كان خليفته في العمالة في قبيلته عبدة، حتى اشترى عمالة والده بمائتي ألف ريال، وأباح السلطان له دار والده وأملاكه، وكل ما عد ونسب إليه في عبدة، فحاز ذلك"[534].

والواضح أن أهداف هذه المؤامرة، كانت تسعى إلى تجريد الوزير من كل أملاكه وثرواته، أي عزله عن كل موارده المالية، حيث أصبح الوزير بفعل ذلك "... فقيرا وهو وزير..."[535].

ولا زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ ببعض الأصداء عن هذا الموقف المشين، الذي سلكه أحمد إزاء أبيه، فقد أطلق علي صنف من الأثواب السائدة في أسواق أسفي آنذاك، اسم ثوب" بائع بوه"[536].

530 - رواية شفوية حدثنا بها السيد عبد السلام ولد القائد عيسى بن عمر.
531 - الفاسي عبد الحفيظ: رحلة، ص 114.
532 - الحجوي: تقاييد، ص 48.
533 - نفسه، ص 45.
534 - نفسه، ص 47.
535 - نفسه، ص 47.
536 - رواية شفوية من نفس المحدث.

ولعل موقفا من هذا القبيل، داخل جو مشحون بالمؤامرات والتناحر، كان يدفع بالوزير عيسى بن عمر إلى البحث عن مخرج من هذا المأزق، لذلك تقرب من فرنسا، وعقد علاقات شخصية مع قنصلها بفاس" كايار Gaillard" ونائبه "ميرسي Mercier" ويؤكد "فايسجربر Weisgerber" أن الوزير عيسى بن عمر:

كان لمدة طويلة صديق فرنسا المخلص داخل مخزن المولى عبد الحفيظ، ويعتقد بأن ذلك هو الذي جر عليه حقد الوزير الصدر المدني الأكلاوي.[537]

2- تخلي المولى عبد الحفيظ عن وزرائه من قواد الجنوب

استفحل أمر الخلاف بين السلطان ووزيره الصدر المدني الأكلاوي. "...الذي تجبر وطغى بنفسه في الغرب وبإخوته في الحوز، وصارت له دالة وهيبة على السلطان، وصار كل ما ظهر له فعله، وولى على القبائل مباشرة، ونصب أبناء عمه مثل بويبرين وبوقدور نوابا عنه، فساموا القبائل أنواع الخسف والظلم، ومن ذلك أنه ولى نفسه عاملا على حجاوة وبويبرين نائبا عنه[538]. ولم يكن السلطان راضيا على ممارسة وزيره، لكنه كان يتحين الفرص لقص جناحه، وتسربت أصداء الخلاف إلى خارج الحاشية، وبدأ كل فريق يخطط الدسائس، وذهب بعضهم إلى التفكير في إجراءات قاسية[539].

فالسلطان كان يبحث عن وسيلة للتخلص من وزيره الصدر، فاستغل قيام قبائل أحواز فاس في أواخر صفر عام 1329هـ/1911م ووجه لهم القائد عبد المالك المتوكي(وزير الشكايات) ليستفهمهم عن مطالبهم، وكان من بينها، عزل الوزير الكلاوي"... وتعللوا في عزله بأمور، كجوره، وبيعه الوظائف.. والاعتناء بعمال الحوز عند الملاقاة في العيد دونهم، واحتقارهم لعمال الغرب..."[540].

وتخوف المتوكي من سريان الأمر إلى الوزير الصدر الكلاوي، وعرض عليهم الصلح مع الوزير لكنهم رفضوا، فأرسل إليهم السلطان مرة أخرى مع الشريف إدريس بن عبد السلام الأمراني لما له من نفوذ عليهم خصوصا بني مطير.. "..وقبل منهم جميع المطالب من غير تعديل عدى عزل الوزير، فإنه واعدهم أن يجعل بينه وبينهم واسطة، وذلك مراعاة لما للوزير من النفوذ، وخبرة إخوته، وخصوصا في الحوز فلم يساعدوه على شيء وقالوا له: لا ترجع مرة أخرى، ولا يقبل إلا عزل الوزير"[541]. واستغل السلطان هذه الوضعية للتضييف على وزيره الصدر. كما أحس المدني الكلاوي بأن مؤامرة ما تحبك ضده، وبدأ ينتهز كل فرصة لتأكيد مكانته، والتقرب من أعوان السلطان، فقد خصص للحاج محمد المقري استقبالا رائعا رغم غيرته الشديدة منه، كما أظهر نواياه الحسنة لجانب فرنسا، وأخذ يظهر كثيرا من الود والمجاملة لقنصل البعثة الفرنسية[542]. لكن استفحال التنافر بينهما جعل الوزير الصدر يتغيب عن حضور المناسبات ذات الطابع الرسمي. فقد أقام السلطان حفلا حضره القنصل الفرنسي والجنرال مونيه « Moinier » وأركان حربه، وكانت مقابلتهم رسمية، تقلد خلالها السلطان نيشانا فرنسيا، وكان أول أمير في المغرب يتقلد ذلك،

537 - Weisgerber. Dr: Au seuil du Maroc moderne- Rabat – 1947/P. 334.

538 - الحجوي: تقاييد، ص45.

539 - Généralité sur la politique française au Maroc (Rapport: situation politique 1910) A.M.G. (Vincennes) carton n° 3H.70.

540 - الحجوي: مذكور، ص 46.

541 - نفسه، ص 46.

542 - تقارير فانسن (الحالة السياسية سنة 1910) (70H31)

وكذلك، وزيره الطيب المقري. إلا أن الوزير الصدر المدني الكلاوي لم يحضر هذا الحفل، فعلم الناس أن وراء الأكمة ما وراءها"[543].

كما أصبح السلطان بدوره يتحرى الاجتماع به، وعالج بعض المشاكل معه بواسطة المراسلة[544].

ولما اشتدت الضائقة المالية بالسلطان عبد الحفيظ بسبب قيام أحواز فاس ضد سياسة المخزن عموما، والوزير الصدر خصوصا. أرسل له مع إحدى" خادمات القصر" يطلب سلفا فأجابه الوزير الصدر بقوله: "...لما بايعناك بمراكش لم تكن بيننا النساء..."[545] وكان ذلك إيذانا بالقطيعة النهائية. وفي اليوم الموالي أقدم السلطان على إجراءات لتنحية الوزير الصدر، وإبعاده من منصب الوزارة. ومن أهم هذه الإجراءات:

1- أصدر أمره بعدم دخول أي أحد من كلاوة دار المخزن.

2- القبض على كاتبه الخاص وأمين سره أحمد الزموري، وأهين غاية الإهانة، وثقف ببنيقة دار المخزن.

3- القبض على جليسه وصاحبه ابن الخياط (أمين فندق البخاريين) وأودع السجن، وأخذ عياله لدار المخزن.

4- أصدر أوامره بتغيير ولاة مدينة مراكش فعزل التهامي الكلاوي من باشوية مراكش وأرسل بدله إدريس منو، كما عزل كثير من ولاة الحوز...[546].

ولعل هذه الإجراءات، كانت تستهدف إضعاف نفوذ الكلاوي داخل الحوز بعد تنحيته من الوزارة، ووقع نتيجة لذلك تحول كبير داخل الهيئة المخزنية الحفيظية، حيث استبد المقري بالسلطان، وأصبح رسميا على رأس وزارة الخارجية بعد عزل الوزير عيسى بن عمر عنها، كما أضيف للمقري منصب وزارة الأشغال العمومية، وهو أول وزير عليها بالمغرب، وأسند منصب وزارة المالية للطيب المقري وبذلك استبد آل المقري من أهل فاس بالهيئة الحفيظية وأبعدت عنها كل العناصر المنتمية إلى أهل الحوز.

3- احتماء عيسى بن عمر بالحماية الفرنسية

استغلت فرنسا الظروف الصعبة التي كان يعيشها أعوان المخزن، بسبب الجو المشحون بالتآمر والخوف من نقمة السلطان. فأعطت لممثليها الأمر. بتعميم الحمايات على كل أعضاء الهيئة المخزنية، من وزراء وموظفين وأمناء وقواد وغيرهم "...لذلك رخصوا لقناصلهم في التساهل بإعطاء الحماية، ولذلك لم يبق بفاس بل بالقبائل القريبة من فاس والثغور ومكناس وغيرها من المدن، إلا وقد نال الحماية الأجنبية"[547].

بل أن حمى الحمايات الشخصية كانت منتشرة في كل أنحاء البلاد، وشملت مختلف الفئات، فقد لاحظ أحد مسيري اتحاد المعادن بمنطقة عبدة، مثلا: "...أن سكان دوار بأكمله تقدموا إليه طالبين منه أن يبيعهم بطاقة الحماية، فقال لأحدهم الذي كانت تبدو عليه علامات الفقر

[543] - الحجوي: تقاييد، ص 57.
[544] - التقارير الفرنسية بفلتسين (الحالة السياسية سنة 1910) (70H31)
[545] - الحجوي: نفسه، ص 57.
[546] - الحجوي: نفسه، ص 58 انظر كذلك السوسي، حول مائدة الغذاء، ص 80
[547] - الحجوي: نفسه، ص 47.

الشديد ماذا تملك حتى تريد أن تكون محميا؟ فأجابه: ضد قائدنا أو سيدنا السلطان، نحن دائما في حاجة إلى أن نحمي أنفسنا..."[548].

لكن التهافت الحقيقي كان من طرف القواد الكبار، الذين نعتهم رئيس الاستعلامات الفرنسية بالشاوية" فيرلي هانوس "Verlet HANUS". بقوله:

"... أنه كانت لهم رغبة واحدة، وهي صيانة الثروات التي جمعوها على حساب رعاياهم إزاء التقلبات السياسية، والمنافسات القوية، التي بدأت تظهر بينهم"[549].

وفي هذا السياق العام، كان عيسى بن عمر العبدي بدوره يبحث عن حماية لتأمين مركزه كذلك.

"... احتمى بدولة فرنسا لما عزل وولى مكانه المقري في شعبان 1328هـ/1910م. لذلك ركن لدولة فرنسا، وكان من أول مساعدي سياستها وأوفاقها* التي عقد المقري بباريز، ولذلك أعطته حماية خصوصية، وعقدته حتى بقي في الوزارة، وشغل وزارة الشكاية، وألزم المخزن بتعويض كل ما ضاع له[550].

إن احتماء عيسى بن عمر بالحماية الفرنسية ضمن له الاحتفاظ بمنصب وزير الشكايات (العدلية) مكان ابن كبور الدمناتي، رغم أنه لم تكن له رغبة في تقلد المنصب الجديد، بل كان همه الوحيد هو العودة إلى قصبته بعبدة، وهذا ما توضحه إحدى التقارير الفرنسية التي جاء فيها:"...إذا كان السي عيسى بن عمر قد تخلى عن وضعيته كوزير للشؤون الخارجية على أمل العودة إلى بلاده، وإذا كان قد رفض قبول المهمة الجديدة التي كانت ستناط به، فإنه ألح بحدة على أن يسمح له بالعيش في عبدة في مأمن من كل هم سياسي، وقد عارض الكلاوي ذلك مصرحا، أنه هو والمتوكي سيغادران فاس في حالة ما إذا عاد السي عيسى لأسفي، وكان المدني يخشى أن يرى قائد عبدة يتدبر في الحوز سياسة معادية لمصالح عائلة الكلاوي، وأخيرا بقي السي عيسى في منصب وزارة الشكايات، لكن كان يظهر عليه الاستياء مما أضعف صحته، وأصبح منذ ذلك الحين مريضا جدا"[551]

تخلى أخيرا المولى عبد الحفيظ عن هيئته المخزنية الأولى، بعد أن عزلهم عن وظائفهم واستأصل سلطتهم على الحوز وبعدها أذن لهم بالعودة"... فقدم الوزير المدني معزولا إلى داره بمراكش، وقد أذن له السلطان، كما كان المتوكي وعيسى العبدي أيضا جاءا إلى دارهما"[552]. ولم يعد أمر الحوز بيد أي أحد منهم بل أصبح تحت تصرف ادريس منو، وبعد هذه النكبة لم يكن في استطاعة هؤلاء القواد العودة إلى مناصبهم الأولى، إلا بعد شرائهم لها بمبالغ مالية مرتفعة جدا، حيث رفع السلطان من قيمتها."... ويحكى أن عيسى بن عمر بعد نكبته داخل المخزن المركزي، استعاد قيادته على عبدة مقابل ستين ألف دورو... وكل هؤلاء القواد استعادوا وظائفهم بعد إقتراضهم من التجار البنكيين الربويين الذين كانوا غالبا من يهود فاس أو مراكش، على أمل أن يعوضوا ذلك من ابتزازهم لفلاحيهم"[553]

[548] - ريفي دانيال: مذكور، ص 115.
[549] - نفسه، ص 103.
[550] - الحجوي: مذكور، ص 47.
[551] تقرير حول الحالة السياسية لسنة 1910م
[552] - السوسي: مذكور، ص80.
[553] - ريفي دانيل: مذكور، ص 107.

الفصل الثامن

عيسى بن عمر ضمن خطة القواد الكبار (1914-1912)

I- تدعيم القائد عيسى بن عمر العبدي للمخطط الفرنسي في الجنوب:

1- الخطة الفرنسية لمواجهة حركة أحمد الهيبة

بعد توقيع معاهدة الحماية بتاريخ 30 مارس 1912، رفض المولى عبد الحفيظ تسهيل المخططات الفرنسية، غير إن المقيم العام الجنرال ليوطي أرغمه على التنازل عن العرش يوم 12 غشت 1912، وأعلن في اليوم الموالي عن تولية أخيه المولى يوسف سلطانا على المغرب، وأصبح بإمكان المقيم العام، أن يستصدر الظهائر بإسم السلطان، الذي كان يتحدث عنه بأنه اختراعه الجميل[554].

وقامت بالمغرب حالة من الغليان الشعبي، حيث انتصب المغاربة للدفاع عن استقلالهم، وتجددت الدعوة للجهاد، وكان الجنوب مرة أخرى، هو المجال المرشح لاحتضان هذه الدعوة التي تبلورت في حركة أحمد الهيبة بن ماء العينين الشنقيطي، الذي نادى بالجهاد والزحف نحو مراكش، فاجتمع حوله الأتباع والمجاهدون، وكان الطريق المؤدي إلى مراكش يمر عبر فجاج جبال الأطلس الثلاثة، وهي أمسكرود وكندافة وآكادير. فكتب له ولاتها على أن يقوموا بنصرته. "..وكانت لهم في ذلك أغراض حملتهم على ذلك، منها بقاؤهم مستبدين بفوائد جباية ولايتهم، والأمن على أنفسهم من العزل.[555]

ولم تكن لولاة هذه الفجاج أية رغبة في مرور المجاهد الهيبة من أراضيهم، فأشار عليه كل واحد منهم بالمرور عبر أراضي غيره. فكتب له القائد عبد المالك المتوكي يشير عليه بالمرور عبر طريق أكادير، وكان غرضه: "...أن لا يمر على إيالته فيفسد ما عليه وأن يمر على أكادير ليناوشه العسكر الفونسوي هناك ويستريح من غليله، وإن مر دون مقاتلة هناك، يمر على أعدائه حاحا"[556]

كم كتب له قواد حاحا بعكس ذلك، وأشاروا عليه بالمرور عبر طريق أمسكرود، وكان قصدهم في ذلك نفس ما ذهب إليه المتوكي، فاختار هبة الله اختراق طريق أمسكرود، وتهيأ المتوكي لاستقباله، ووجه أخاه لملاقاته لو محاربته إن كانت له قدرة على ذلك وشعر الهبة بذلك فأمر "... أتباعه برميهم بالحجارة ففطوا، ونزع منهم نحو أربعين فرسا... ثم عفا عنهم، وأرجع لهم خيلهم..."[557] وأصبح الهيبة على مقربة من مراكش.

كانت قوات الاحتلال الفرنسي آنذاك في البداية تسعى إلى وضع خطة لربط الجسور مع قواد الجنوب الكبار الأكثر تحضرا وتمدنا، والذين أبدوا استعدادا لمساندة المخططات

---

[554]- Rivet, Daniel, Lyautey et l'institution de protectorat au Maroc.(1912-1925) Thèse pour l'obtention du grade de docteur P .213.

[555] - ابن ابراهيم عباس بن محمد المركشي: رسالة حول ثائر سوس لحمد الهيبة .(ضمن مجموع) خ.ع. رقم 45320ك/ص 506.

[556] - نفسه، ص 506.

[557] - نفسه، ص 507.

الفرنسية، ومنهم القائد عيسى بن عمر والكلاوي وانفلوس، وعلى العكس من ذلك فقد كان المخطط يسعى لتنحية المتزمتين منهم كالمتوكي والكندافي والعيادي[558] إلا أن ظهور حركة الهيبة، طرحت أمام قوات الاحتلال الفرنسي مشاكل صعبة وعويصة، أرغمتها على التفكير في مراجعة الخطة، لمنع وصول أحمد الهيبة إلى مراكش، واقترح الضابط الفرنسي" فيرلي هانس. وضع حزام وقائي، أساسه، إقامة حلف دفاعي مع قواد جبال الأطلس لمنع اجتياز أحمد الهيبة لفجاج الأطلس مقابل تدعيم السلطات الاستعمارية لمركز ونفوذ هؤلاء الأسياد (المتوكي- الكندافي). وقد اعتمدت هذه الخطة، على اعتبار أن جبال الأطلس كانت تعرف خصوصية تتجلى في سيادة عائلات قديمة كانت تمتلك منذ القديم سلطة واسعة، لذلك فمن الصعب تفويتها إلى أياد أخرى بدون إثارة الحساسيات، وزرع بذور حرب أهلية.[559]

ورغم ظرفية هذه الخطة، فقد نبه" فيرلي هانوس" إلى سلبيتها، إذ كان يعتقد أنه مهما بلغ تأثير سلطة هؤلاء الأسياد فسيبقى بسيطا، إزاء الحركة الشعبية الكبرى[560]. ومع ذلك فقد اعتبرها، الاختيار الوحيد أمام القوات الفرنسية المرابطة بالمغرب، فإما تبني هذه الخطة، وإما إخلاء الداخل، والانسحاب نحو الشمال، والتراجع إلى المراكز الأطلنتيكية[561].

واقتنع المقيم العام الجنرال ليوطي بهذه الخطة لأنها كانت تنسجم مع مخططه السياسي العام، المبني على ممارسة الحماية، وليس الإدارة المباشرة، لذلك رأى فيها نموذجه المثالي الذي يسعى حسب قوله إلى :

"... إقرار سلطة المخزن بواسطة المخزن نفسه وبمساعدة القواد الكبار... والقيام بعمليات مخزنية بوسائل أهلية فقط تحت توجيهنا الحقيقي، لكن الخفي، وبواسطة دعمنا، لكن تحت قناع شريفي، أي مغربة الغزو الذي بلغ درجة الكمال في منطقة الحوز"[562].

وكان هذا المخطط يخفي حقيقة الوضع الذي كانت عليه قوات الاحتلال من نقص في الأعداد والتجهيزات والأطر، والخوف من التورط في مجابهة عسكرية غير مضمونة النتائج، فبادر المقيم العام بإرسال مبعوثين للتفاوض مع القواد الكبار، فانتدب "فيرلي هانس:Verlet-Hans لمفاوضة الكلاوي والمتوكي، كما انتدب " فايسجربر: Weisgerber لمفاوضة قائد عبدة عيسى بن عمر.

ولم تحل الخطة الفرنسية دون جواز أحمد الهيبة لفجاج الأطلس، ودون وصوله لمراكش بتاريخ 19 غشت 1912م. فتغيرت الأوضاع داخل الجنوب بشكل سريع ومفاجئ "وارتجت القبائل وثارت العامة على رؤسائها، والهيبة ينادى أن لا قائد ولا شيخ"[563] ولم يكن آنذاك باستطاعة قواد الحوز والأطلس فعل أي شيء، سوى الخضوع ومسايرة الركب. وشرع أحمد الهيبة في إرسال الوفود إلى كل الأحواز القريبة من مراكش للجهاد، واتجهت إليه الأنظار كمحرر للبلاد، وانضمت كل قبائل الحوز إلى حركة الهيبة، وبالأخص قبائل أحمر والشياظمة وحاحا المحيطة بقبائل عبدة، وأرسلت متطوعين للجهاد ولم يبق منهم إلا

558 - ريفي دانيل: مذكور، ص 243.
559 - نفسه، ص 232.
560 - نفسه، ص 233.
561 - نفسه، ص 234-242.
562 - السوسي المختار: حول مائدة الغذاء، ص 91
563 - ابن ابراهيم: مذكور، ص 512.

قبائل عبدة، وجزء من دكالة. "... فقال أحمد الهيبة لمرافقيه: أرسل إلى دكالة يأتون، وإلى السيد عيسى بن عمر.

فقال له، لا أستطيع ذلك، أن هؤلاء الولاة لم يعطونا ذهبا، ولا فضة.

فقال له: أن الأولى بك إن تعاملهم بالرحمة" [564].

لقد كان عيسى بن عمر في مأمن من حركة أحمد الهيبة، نظرا لبعد قبائل عبدة عن مجريات الأحداث لذلك وقف موقف الحذر والاحتراس من هذه الحركة واختار منذ البداية أن ينحاز للجانب الفرنسي.

2- موقع القائد عيسى بن عمر ضمن المخطط الفرنسي

إذا كانت خطة استعمال القواد الكبار في مجملها تركز على قواد الأطلس، فإن جانبا من هذه الخطة، كان يسعى لاستعمال باقي قواد الحوز الكبار ضمن حزام وقائي ودفاعي يعتبر قاعدة خلفية للمجال الأطلسي، وذلك لاعتبارين:

- أولهما : إن المجال الممتد من عبدة إلى الرحامنة، اعتبره المقيم العام الجنرال ليوطي، هو البوابة الرئيسة للأطلس، والقاعدة الخلفية للمواجهة، لذلك أدمج قواد هذا المجال ضمن إطار خطة استعمال القواد الكبار. وقد عبر ذلك ليوطي في إحدى رسائله بقوله : "...بما أنه استحال علينا منع الهيبة من الدخول إلى، فعلى الأقل يجب أن نقيم سدا منيعا بين عبدة ودكالة ومشرع بن عبو، سدا يمكن أن يتقدم شيئا فشيئا نحو مراكش... [565]

- ثانيهما: إن استعمال قواد هذا المجال كان يساعد على التحكم في لعبة التوازنات "...فالعيادي (قائد الرحامنة) والسي عيسى بن عمر (قائد عبدة) رغم أنهما بعيدان جدا، إلا إنهما يشكلان معدلين ثمينين للتحكم في النزاعات والمنافسات بين قواد الأطلس الكبار: الكلاوي والمتوكي والكندافي [566] فالتعامل معهما كان من أجل ضبط التوازن في العلاقات بين قواد الأطلس وقواد باقي جهات الحوز، واستعمال التناقضات لصالح القوات الفرنسية.

وفي هذا الإطار، كان التعامل بين قوات الاحتلال الفرنسي، وبين القائد عيسى بن عمر العبدي، رغم تحفظ قائد القوات العسكرية "مانجان: Mangin". فقد ذكر في إحدى رسائله:

"... إن اختيار السي عيسى لمنصب القيادة الجديد ليس ضروريا، لكن اعتبارا لانعدام أية شخصية مهمة، لو مماثلة له في الظرف الراهن، فإننا سنتعامل معه، علما بأننا سنكون ملزمين بتدعيمه أكثر من الاعتماد عليه، إن كل الظروف الحالية لصالحه، تبعا للحوادث الأخيرة، وإن تأثيره في تزايد مستمر... وقد بدأت أعتقد بأنه أخذ يبعد نفسه إلى حد كبير، وأظن أن من المستحسن أن نشعره بذلك دون إثارة انتباهه... لكنه إذا أشعرناه أنه خصم لنا، فسينقلب ضدنا..." [567]

---

[564] - Weisgerber. (Dr): Au seuil du Maroc moderne, Rabat 1947 P. 346.

[565] - ريفي دانيال، ص 243.

[566] - فايسجربر، ص 340 و 341: رسالة من مانجان إلى فايسجربر بتاريخ 7 غشت 1912.

[567] - فايسجربر، ص 330.

وضمن هذا السياق كانت تدخل مهمة فايسجربر الذي انتدبه المقيم العام لينسق مع القائد عيسى بن عمر حول طرق مواجهة حركة أحمد الهيبة، وضبط الأمن داخل عبدة وكل الجهة الساحلية للحوز.

وقد أبرز فايسجربر في كتابه" على أعتاب المغرب الحديث: Au Seuil du Maroc moderne" المهمة التي انتدب من أجلها، ويمكن تلخيصها في أربع نقط هي:

1. أخذ الموافقة المبدئية من القائد عيسى بن عمر للعمل وفق المخطط الفرنسي.
2. العمل على ضبط الأمن داخل عبدة، واستعمال نفوذ القائد على المناطق المجاورة(دكالة- احمر- حاحا- الشياظمة).
3. الموافقة على القيام بعمل عسكري موحد مع بقية القواد الكبار ضد الهيبة.
4. التنسيق مع القنصل الفرنسي بأسفي لصيانة الأمن في كل الجهة الساحلية من الحوز.[568]

وبعد مهلة من التفكير المتأني في هذه المقترحات، قدم القائد عيسى بن عمر رأيه بشكل متكامل في المخطط الفرنسي ككل، ويمكن تركيزه في هذه النقط.

1- أعرب عن استعداده لتحمل مسؤولية ضبط الأمن داخل قبيلة عبدة، ومد نفوذه إلى قبيلة دكالة، وحتى يكون لنفوذه فعالية، اقترح تعيين قواد جدد قابلين للانصياع لأوامره.

2- أبرز أن القبائل المحيطة بعبدة (أحمر- الشياظمة- حاحا) أصبحت لها ميول نحو الهيبة، لذلك فإن نفوذه ضعيف عليها.

3- تحفظ من صدق موقف قواد الأطلس (الكلاوي- الكندافي-المتوكي) إزاء حركة الهيبة. فالمتوكي لأنه لا يريد، أما الآخران فإنهما لا يستطيعان، وأكد أن منع الهيبة يجب أن يكون من الجبل.

4- أعرب عن استعداده للقيام بهذه المغامرة إذا توفرت له الأسلحة بشكل كاف، وإذا ضمن حماية قصبته من أي هجوم، وأبدى استعداده للانطلاق بعد يومين من توصله بالأمر"[569]

والواقع أن موافقة القائد على المخططات الفرنسية، كان من أجل صيانة موقعه، وحماية مركزه، فقد كان هو بدوره في حاجة إلى تزكية فرنسية، وبالمقابل كانت فرنسا في حاجة إليه لضبط الأمن والاستقرار داخل عبدة وغيرها، لذلك كان التعامل على أساس صفقة، وصفتها إحدى التقارير بأنها:

"صفقة شبه تلك التي أمضيناها مع قواد الأطلس... السي عيسى كان يقدم لنا إمكانية تغلغلنا، وتحرك جيوشنا، وحماية مصالح جاليتنا... مقابل ضمان امتيازاته وتعزيزها"[570].

[568] فايسجربر، انظر الصفحات 335-336-337.
[569]- FRESNEAU: L'unification makhzen ou le Caïd si Aissa ben Omar C.H.E.A.M./P.22.
[570] فيسجربر، ص 347.

لذلك انحاز القائد لجانب فرنسا، وأعطيت له كل الصلاحيات لتدعيم مركزه، وأصبحت قصبته مركزا لتجميع القوات التي بلغ عددها ألفي فارس، وبمحضرهم بايع القائد عيسى بن عمر السلطان المولى يوسف بتاريخ 12 غشت 1912م.[571]

وبعد أيام قلائل توصل بظهائر تعيينه على مدينة أسفي وقبيلة أحمر، ومما جاء فيها : "خدامنا الأرضين أهل أسفي... فقد ولينا عليكم خديمنا الأرضى القائد عيسى بن عمر العبدي وأسندنا إليه النظر في أموركم، فنأمركم أن تسمعوا عليه وتطيعوا فيما وليناه من الأمر في النهي أمور خدمتنا الشريفة... 15 رمضان 1912/1330" [572].[573]، وبعث بظهير مماثل إلى قبيلة أحمر في نفس التاريخ.

ومارس تأثيره على قبيلة دكالة، حيث انتدب القائد عيسى بن عمر ابنه إدريس للتنسيق مع محمد الأمراني، الذي كان مكلفا من طرف المقيم العام الجنرال ليوطي، لإعادة ترتيب الأوضاع داخل قبيلة دكالة وتبرز لنا رسالة الأمراني إلى القائد عيسى بن عمر هذه المهمة تقول الرسالة:

"...إن المعتبر المقيم السيد الجنرال اليوطي قلدني وكلفني بمباشرة قبيلة دكالة، وإصلاح الأمر فيها... ونحن وإياك يد واحدة وقلوب متحدة... ومن أجل ذلك اجتهدت غاية الاجتهاد في إصلاح قبيلة دكالة، فأفلح ذلك من عيناهم للولاية بعد رضي إخوانهم وقبولهم، والكل بمحضر الولد السيد الحاج إدريس أصلحه الله، وقد تعين أعلام إخوتك بذلك، لتكن سيادتك بالبال... والدولة الفخيمة منك ومن خدمتك ونصيحتك لها ببال فوق ما تظن" [574].

وأصبح القائد عيسى بن عمر يؤمن الوضع في كل الجهة الساحلية من الحوز بمساعدة رجاله وأعوانه، وبتدعيم من القوات الفرنسية، وبمساعدته كانت قوات الاحتلال تتحرك بدون مشاكل داخل عبدة "..ولأول مرة تظهر الفرق الفرنسية في عبدة تحت رئاسة الكلونيل بيلتي PELTIER : وتخترقها بدون إطلاق رصاصة واحدة [575].

ورغم أن صرامة القائد وقوته ردعت كل تحرك داخل قبيلة عبدة، إلا أن الجو العام كان لا يخلو من بعد التحركات، فقد تعرضت قصبته للهجوم من طرف دكالة، بتحريض من ولد محمد العوني، لكن أعوان القائد صدوا الهجوم وقتلوا محرضهم وأتباعه[576]. كما قامت فخدة المويسات من عبدة بإرسال متطوعين عنها إلى الجهاد، بجانب حركة الهيبة، كما دخلت قبيلة احمر تحت طاعة احمد الهيبة، وأرسلت متطوعين كذلك عنها إلى الجهاد.

وأصبحت قبيلة عبدة تحت ضغط القائد عيسى بن عمر، وحدها خارجة عن تأييد حركة أحمد الهيبة، لذلك رأت فيه الأوساط الفرنسية الصديق الأول لها لأنه"... أعلن موقفه لصالحنا في وقت كانت مؤسستنا مثار شك وشبهة، ويحكى أن ليوطي قال متحدثا عن السي

[571] - جلزة الحسن الثاني للوثائق خ.ع نسخة من الظهير.
[572] - وثيقة خاصة: رسالة من الأمراني إلى القائد عيسى بن عمر بتاريخ 26 رمضان 1330هـ/1912م.
[573] - Antona/A – "La région des Abda "/ Rabat 1931/ P/49.
[574] - فايسجربر، ص 357.
[575] - فريزنو، ص 22.
[576] - وثائق وزارة الدفاع الفرنسي (باريس) رسالة ليوطي بتاريخ 6 أكتوبر 1912 تحت رقم 1955.

عيسى أن يده كانت من بين الأيادي الأولى التي مدت لفرنسا"[577]. لذلك كان يحظى بشهرة لدى الأوساط الفرنسية، سواء في باريس أو في الرباط.

3- تعديل الخطة الفرنسية بعد اندحار احمد الهيبة

أسرع المقيم العام ليوطي إلى تأليف قوة عسكرية بقيادة الكولونيل مانجان Mangin لتحول دون تقدم أحمد الهيبة نحو الشمال، ونجح في إيقاف زحفه، ولحرز انتصارا ضد الهيبة في سيدي بوعثمان، وانسحب الهيبة إلى تارودانت وفتحت الطريق أمام قوات الاحتلال الفرنسي لتحل بمراكش يوم 8 سبتمبر 1912م. وبدخول القوات الفرنسية إلى مراكش أصدر المقيم العام تعليمات صارمة إلى القيادة العسكرية بمراكش، تنص على المبادئ التالية:"...ان احتلال مراكش يجب أن يعتبر وإلى إشعار آخر كمنتهى لتحركنا نحو الجنوب، ويجب ألا يؤدي إلى اشتباكات جديدة تحت أية ذريعة، و إلا يدفع إلى توسع احتلالنا... إن العمل الذي ينبغي إنجازه.. هو إخضاع المنطقة الواقعة بين الساحل والأطلس لسلطة المخزن وفرض النظام والطمأنينة فيها، وذلك باعتبار أن الأطلس يمثل سور ومنحدر لا يجب تجاوزه... وسنعتمد سياسة أهلية قائمة على المراقبة بكيفية متزنة، لكنها دائمة ودقيقة، ومن غير الممكن أن يكون حضورنا بأية حجة رجوعا إلى التجاوزات القديمة، خشية إثارة أعصاب السكان من جديد..."[578].

إن هذه التعليمات تكشف حقيقة الوضع الذي كانت عليه قوات الاحتلال الفرنسي، من نقص في الأعداد العسكرية، والأطر السياسية، لذلك كانت تتخوف من أي تورط أو مجابهة عسكرية قد لا تتحكم في نتائجها، خصوصا وأن الأوضاع في أوربا كانت تعرف توترا وهي على أبواب الحرب الأولى. كما أن هذه التعليمات كانت تسعى لملأ الفراغ السياسي بأطر محلية، تستطيع بواسطتهم التحكم في مختلف جهات الجنوب، لهذا لجأت إلى استعمال قواد الأطلس الكبار، في فترة تفسخ هذه الظاهرة وانهيارها، وقد حاولت سلطات الإقامة العامة إحياءها من جديد، وإعادة الاعتبار إليها قصد التحكم فيها. وقد عبر ليوطي بوضوح عن هذه الفكرة بقوله: "...عليهم تتوقف إمكانية تحكمنا في البلاد بأعداد محدودو من القوات، وذلك بمساعدتهم وإعادة الاعتبار لنفوذهم، والإخلاص في مساندتهم وإعطائهم الفعالية، للتحكم في زمام الأمر في الأطلس"[579].

وكانت مناسبة حلول ليوطي بمدينة مراكش فرصة للتدشين الرسمي لهذه السياسة. وقبل حلوله بالمدينة قام بزيارة تفقدية لمدينة أسفي بتاريخ 16 سبتمبر 1912م، واستقبله هناك القائد عيسى بن عمر العبدي في موكب يضم حوالي ثمانمائة فارس، وأبدى ليوطي إعجابه بشجاعة القائد، وشكره على مواقفه الوفية إزاء فرنسا، وكلفه بتأمين الطريق الرابط بين أسفي ومراكش، وتمكن القائد فعلا من إنهاء هذه المهمة في ظرف أسبوعين حيث أمن بوصوله إلى مراكش في موكب يتألف من ثلاثمائة فارس، حرية وأمن مرور القوافل التجارية من أسفي إلى مراكش.

[577] - وثائق وزارة الدفاع الفرنسي (باريس) برقية ليوطي إلى دبلوماسية بارمسي بتاريخ 7 أكتوبر 1912.
[578] - فايسجربر، ص 353.
[579] - فايسجربر، ص 353.

وبوصوله إلى مراكش، كانت وضعية بقية القواد الكبار في حالة من الارتياب والحيرة، وتوافدوا على زيارته بداره الفخمة "دار السي عيسى" والتمس بعضهم منه التوسط لدى المقيم العام الجنرال ليوطي[580].

وخلال اللقاء الذي خصه ليوطي للقواد الكبار في قصر الدار البيضاء بمراكش بتاريخ 11 اكتوبر 1912م، تحت الرئاسة الإسمية لمولاي بوبكر الذي تأكدت خلافته على مراكش، وبحضور القائد عيسى بن عمر العبدي، والمدني الكلاوي والحاج التهامي الكلاوي، وعبد المالك المتوكي والطيب الكندافي، والعيادي الرحماني، وعدد آخر من الأعيان. أبرز ليوطي خلال هذه المقابلة استعداده لصيانة وضعية القواد المكتسبة وحمايتها، وأعطاهم ضمانات كاملة لتحقيق سلطتهم، وتضامن مصالحهم مع المصالح الفرنسية، وإقامة التوازن بينهم.

ثم انتدب الحاضرون القائد عيسى بن عمر ليرد على المقيم العام بإسمهم، فقدم له الضمانات الكافية والاستعداد الكامل للتعاون مع سلطات الإقامة العامة[581].

وأبرق ليوطي بعد انتهاء المقبلة إلى الحكومة الفرنسية يخبرها بالنتائج وقال في برقيته:

"...إن هذا الاجتماع التلقائي بمراكش لأغلب كبار القواد بمناسبة قدومي، أحدث بلا منازع انطباعا يستحق الذكر... فالصعوبة هي تسخيرهم مع المحافظة على توازن عادل بينهم بسبب التنافس العميق والحقد اللذين يضمرهما البعض للآخر". وطلب ليوطي في آخر البرقية، عدم السماح للصحف بنشر الفقرة المتصلة باستعدادات لقواد الكبار، حتى لا تثار حساسيتهم ولا توجسهم"[582].

وبذلك يكون المقيم العام ليوطي، قد تأكد من مساندة القواد الكبار لمخططه، وشرع في تكوين سد قوي لمنع أي احتمال لعودة أحمد الهيبة. ثم شرع في تنظيم المناطق الخاضعة لسلطات الحماية الفرنسية.

II- انفصال عيسى بن عمر عن المخطط الفرنسي

1-انتقادات فرنسية، ونفور من القائد:

كانت عبدة بعد إقرار التنظيم الجديد لسلطات الحماية الفرنسية، بتاريخ 6 أكتوبر 1912م، تابعة لقيادة إقليمية واسعة تشمل كل من دكالة وعبدة واحمر ويتولى المقدم "بيلتي Peltier, مسؤولية هذه القيادة بجميع سلطاتها السياسية والعسكرية، وحدد القرار التنظيمي المهمة المستعجلة للمقدم بيلتي في النقاط التالية:

- إعادة تنظيم قيادة دكالة
- مساعدة وتوجيه عمل قائد عبدة واحمر السي عيسى بن عمر.

[580] - فايسجربر، ص 357.
[581] - وثائق وزارة الدفاع الفرنسي: برقية ليوطي تحت رقم Bm.2.1818 (A.M.G.)
[582] - قرار تنظيم من ليوطي للقائد ناحية مراكش تحت رقم Bm.2/1951 (A.M.G.)

- فتح التجارة، وتأمين العبور بين أسفي ومراكش، وبن الصويرة ومراكش بتنسيق مع "مانجان Mangin".[583]

وقد نص القرار على جعل قبيلتي عبدة واحمر تحت إشراف السي عيسى الذي يتلقى توجيها مباشرا من المقدم بيلتي قائد المنطقة.

إن القائد عيسى بن عمر قد أصبح بمقتضى هذا القرار، خاضعا لتوجيه وإشراف قائد المنطقة وبذلك أصبح مجردا من حق ممارسة سلطاته القيادية، وفق المعايير المخزنية القديمة، حيث أصبحت وظيفته مركبة، فهو الوسيط بين إيالته من جهة، وبين سلطتين، سلطة فعلية قائمة وهي سلطة الحماية الفرنسية، وسلطة وهمية وهي سلطة المخزن. ولا شك أن هذا كان يثير حساسية القائد الذي أبت نفسه المتشبعة بالتقاليد المخزنية أن تنصاع للتوجيهات الفرنسية، لذلك ظهر نوع من الفتور في سلوك القائد عيسى بن عمر، مما أدى إلى احتراس السلطات الفرنسية منه.

وتتحدث العديد من التقارير الفرنسية، عن ظهور حالة غير عادية داخل عبدة وتتهم القائد بسوء النية والتماطل: كما تشير إحدى هذه التقارير إلى الأوضاع العامة فتقول:

"...إن الوضعية السياسية تعرف ترديا منذ مدة بشكل خطير في منطقة عبدة واحمر نتيجة لسوء النية، وتماطل الجهاز القائدي... إن خلفاء القائد(عيسى بن عمر) في كل الجهات لا يكتفون فقط بتعكير الجو وإهمال القضايا التي من اختصاصهم معالجتها بل يغدون الفوضى وانعدام الأمن بتورطهم في المصائب... إنهم ينهبون العزل ويوزعون الغنائم مع الأشياخ وذلك كله بعلم القائد السي عيسى الذي يتجاهل هذه التصرفات، بل يزكيها أحيانا، ونتج عن هذه التصرفات في كل القبائل عبدة واحمر، جو من انعدام الأمن والتذمر الذي لا يطاق...".[584]

إن هذه الانتقادات الموجهة إلى القائد عيسى بن عمر، كانت تضفي عليها سلطات الحماية الفرنسية نوعا من الشرعية، وتربطها بظهور معارضة ضد القائد. فقد أكد" مانجان في تقرير له: "...إن قبائل ما بين واد نفيس والمزوضية وهي طرف من قبائل احمر والشياظمة والرحامنة... والمزوضية وجزءا من أولاد فرجان، قدموا شكاية ضد رجال القائد عيسى بن عمر، ورفع بدوره هذه الشكاية إلى قائد منطقة دكالة وعبدة".[585]

وأصبحت هذه الصيغة تتردد في معظم التقارير الفرنسية كما يصف تقرير آخر الحالة المتأزمة بقوله: "... لقد لفت انتباهي تزايد عدم الاستقرار والصعلكة بإقليم دكالة عبدة... وبالتأكيد فإن لحالة الفقر نصيب في تطور هذه الوضعية الوخيمة، ولكن أرى بأن سياسة المعارضة المنظمة ضد السي عيسى، ساهمت أيضا وبكثرة في ذلك، فقد تورط القائد علانية في تحقيقات، وكان موضوع تدابير حذر ربما لها ما يسوغها، ولكنها لا تدع مجالا لشك مرؤوسيه في التقليل من الثقة الممنوحة إليه. كل هذا يقوض سلطته، ويلوث سمعته، بكيفية خطيرة... ".[586]

---

583 - Courrier expédié par la colone mangin 1912/carton n° 3H. 1065(A.M.G.)
584 - Rapport mensuel du protectorat 1912- c/N° 3H 576/(A.N.G.°
585- Rapport mensuel du protectorat 1913-1920 c. n° 3H 154/
586- Rapport mensuel du résident général 1912-1913. N.S. 262 .(A.D)

وكانت سلطات الحماية تحاول بكل الوسائل أن يقلص من فرص تأثيره على إيالته، وأحيانا تفضل إبقاءه بعيدا عن مقر قيادته بعبدة، ربما لتحفظها من موقفه، أو كما عبرت عنه إحدى التقارير "بسوء النية" ولعل وجود القائد بمقر قيادته كان يحول دون التصرف المطلق لسلطات الحماية الفرنسية لذلك كانت تتحين الفرص لإبقائه بعيدا عن قيادته لأن: "...لإبقاء المؤقت لسي عيسى بن عمر بمراكش قد يساهم في إبقاء عبدة في حالة هدوء...[587].

فهل هذا معناه أن عبدة كانت تعرف فعلا حالة من الاضطراب؟. إن ما تؤكده التقارير الشهرية المرفوعة إلى وزارة الخارجية الفرنسية، أن حالات من الاضطراب كانت تظهر في جهات" محلية محدودو بناحية أسفي دلخل فخدتين هما الكرامة والمويسات. ومحاولتهما التملص من دفع الضرائب ولعل التملص من دفع الضرائب قد يكون عاديا لأسباب مختلفة، إلا أن التقارير تربط هذه الظاهرة بعاملين، هما:

العامل الأول: وهو المواقف المريبة لخلفاء القائد عيسى بن عمر من جمع الضرائب[588].

العامل الثاني: ادعاء السكان الاحتماء بالحماية الأجنبية، وتزايد عددهم بسبب النشاط الدعائي لكل من إسبانيا وألمانيا.

وازداد موقف الحذر والاحتراس من القائد عيسى بن عمرن، بعد استفحال الأوضاع في الجهات المجاورة لقيادة عبدة على إثر تصاعد مقاومة القائد الجلولي وأنفلوس لقوات الاحتلال الفرنسي, وقد ساهمت قبيلتا عبدة واحمر بجانب القوات الفرنسية لإخماد هذه المقاومة، وعين القائد عيسى إبنه الطيبي قائدا على رأس هذه الحركة. لكن بعد محاصرة الضابط الفرنسي"مسوتي" MESSOUTIوحاميته العسكرية بدار القاضي، انسحب الطيبي وعاد إلى أسفي بحركته: "..ولم تقم " الحركة" المقدمة من طرف" عبدة واحمر" والموضوعة تحت قيادة السي الطيبي ابن عيسى بواجبها، وبدون أن يتأكد أن رجال الحركة انضموا إلى المعتدين على حامية مسوتي إلا أنهم فروا بصفة جبانة أمام العدو، رغم أنهم وعدوا فعلا بمحاربته، لكنهم تراجعوا إلى بيوتهم دون تنفيذ مهمتهم..." [589].

لعل هذا لموقف الذي وقفه الطيب ولد القائد عيسى بن عمر، قد زاد من إثارة الشك والريبة لدى سلطات الحماية الفرنسية، وجعلها تطرح بحدة إمكانية تجريد القائد مما تبقى له من سلطة ونفوذ تحسبا لأي تحول قد يحدث في موقفه، أو فعل يصدر منه، لذلك بدأ التفكير في القيام بإجراء إداري قصد تقليص حجم سلطته وتشير التقارير التي رفعها قائد منطقة دكالة وعبدة أن : "... موقف الشك الذي وقفه السي عيسى وأولاده من حركة عبدة واحمر أثناء أحداث دار القاضي وسوء نية هذا الشخص وقلة إرادته وإرادة خلفائه، تجعلني أعيد التفكير في الإصلاح الإداري الذي سبق أن وافقنا عليه بعبدة ولحمر. واقترح أن ندر الأموال على السي عيسى بن عمر وفي نفس الوقت نسحب منه كل سلطة فعلية على السكان، والتي تمكنه وخلفاؤه من ابتزاز السكان وإشاعة الهلع في أوساطهم... وحتى أستطيع القيام بهذه

[587] - وثائق وزارة الدفاع رقم 154 H3 (مذكور) أكتوبر 1913.
[588]- -Opération dans les région de Doukkala-Abda 1912-1913 c.N° 3H 580.
[589]- -Opération dans les région de Doukkala-Abda 1912-1913 c.N° 3H 580.

الأعمال على الوجه الأكمل ودون إثارة أي عصيان. فسوف لن أبادر بفعل ذلك إلا على أساس توفر قوات كافية ومهمة تمكنني من خنق أي محاولة في مهدها"[590].

هذه الإجراءات التي كانت تفكر فيها سلطات الحماية الفرنسية، لتنحية القائد عيسى ابن عمر لم تكن سهلة، بل طرحت عليها مشاكل سياسية، قد تمس بعلاقتها مع باقي القواد الكبار، وإن التفكير في القيام بأي إجراء ضد القائد قد يؤدي مباشرة إلى انزعاج باقي قواد الجنوب بالإضافة إلى ضرورة توفير الشروط الأمنية قبل الشروع في تطبيق هذا الإجراء، لإبعاد أي تحرك محتمل ضدها, لذلك أجلت إلى حين توفر كل الشروط المناسبة لذلك:

"...أما فيما يخص التنظيم الإداري الجديد الذي فكرت في تنفيذه بعبدة واحمر، فأظن أنني سأتخلى عنه في الوقت الراهن من أجل المصلحة العليا، حتى لا ينزعج قواد الجنوب الآخرون ويسكنهم الشك... السي عيسى بن عمر الذي أجريت معه محادثات، وعد عمليا بالتأثير على خلفائه للحد من الشطط الذي يمارسونه باسمه، وواعد أيضا بالتعاون والعمل بما يرضى الضباط العسكريين، لكن في الحقيقة، أشك في صدق قوله، وفي رغبته في تنفيذ وعوده، وسوف ألاحقه بصفة حذرة..."[591].

إن مواقف الشك من القائد. وتزايد الحذر منه، كانت تطبع دائما التقارير الفرنسية، ولعل السبب في ذلك راجع إلى الأسلوب الذي كان يتعامل به القائد مع سلطات الحماية، فقد رفض أن يكون مجردا من سلطاته المطلقة غير مسموح له بحق المبادرة، كما رفض أن يكون مجرد أداة تنفيذ بيد المراقب المدني أو ضابط الشؤون الأهلية، أو تحت سلطة قائد المنطقة وفي خدمته. إنه في الأخير رفض أن يكن ظلا أو شبحا للسلطات الفرنسية، لأنه لم يستسغ وضع التدجين، وذلك لتشبعه بالتقاليد المخزنية القديمة. لذلك فهو لم يرضخ للأساليب الفرنسية[592] لذلك قررت السلطات الفرنسية في الأخير، أن تتخلص من هذا النموذج المزعج عن طريق قيادته أولا، ثم التخلص منه نهائيا في مرحلة لاحقة. وفي هذا السياق أرسل قائد المنطقة برقية، أبرز فيها الدور المزمع القيام به بصفة استعجالية ويقول : "...ضرورة الإشراف على تنصيب القواد الجدد والاستعجال بذلك ضروري، لأن السي عيسى بن عمر سيستغل قوته ويستعملها، خاصة وأنه يعلم أن سلطاته معرضة للتقلص، إضافة إلى أن مغادرة الحامية رهين بوصول ظهائر تعيين القواد الجدد... وأنني مقتنع أن وجود الجيوش وحده يؤخر حركات العصيان، لكن أرى أن الانتظار يزيد من احتمال وقوع الاضطرابات..."[593]

ورغم الإلحاح على ضرورة الاستعجال باستصدار ظهائر التعيين، فإن ظروف زيارة السلطان المولى يوسف لأسفي وعبدة قد أجلت صدور هذا القرار إلى حين انتهاء الزيارة.

وأثناء حلول السلطان المولى يوسف بعبدة وأسفي، كان القائد عيسى بن عمر في استقباله بمعية قائد المنطقة، وذلك بتاريخ 28 سبتمبر 1913م[594]. وتذكر الرواية الشفوية أن

---

[590] - رسالة من قائد منطقة دكالة عبدة بتاريخ 5 شتنبر 1913.
[591] - نفس الرسالة أعلاه.
[592] - أنطونا، ص 52.
[593] - وثائق وزارة الدفاع كارطون رقم (580.3H)
[594] - وثائق وزارة الدفاع كارطون رقم (154H.3) تقرير.

القائد خصص له استقبالا رائعا، وأعاد ترميم وإصلاح إحدى بيوته بالقصبة حيث زخرفها بكل أنواع الزليج والنقش وغيره، وصرف على ذلك مبلغا يفوق المائة ألف ريال, وأطلق على قبتها إسم" قبة البساط" وكان يعتزم ضيافة السلطان بها، وإهدائه إحدى بناته[595]. وقد عمدت سلطات الحماية إلى إضفاء شرعية على إجرائها بتقليص قيادة عيسى بن عمر ونسبت إلى السلطان المولى يوسف انتقاده لشكل القيادات الكبرى وذكرت: "...بأن السلطان المولى يوسف انتقد صيغة القيادات الكبرى، وبإيعاز من "الدكالي" اقترح الرجوع إلى القيادات الصغرى كما كان الحال أيام السلطان المولى الحسن"[596].

2- إجراءا لتقسيم قيادة عبدة وعزل القائد عيسى بن عمر.

كان الإجراء الأولى، لتجريد القائد من كل مسؤولياته القيادية، قد اتخذ بتاريخ أكتوبر 1913م. وينص هذا الإجراء على عزل قيادة عبدة عن احمر، وتقسيم قيادة عبدة إلى خمس قيادات كان نصيب عيسى بن عمر منها، قيادة شكلية لا تتجاوز حدود فخدة الثمرة، التي لم تكن سابقا سوى مشيخة من بين مشيخات البحاترة، كما قسمت قيادة قبيلة البحاترة بدورها إلى شمالية وجنوبية.

وأسندت قيادة الجزء الجنوبي من البحاترة بالإضافة إلى قبيلة العامر إلى محمد ولد القائد عيسى بن عمر العبدي، والجزء الشمالي من البحاترة إلى الزرهوني ابن الحاج محمد بن ملوك الخصم القديم للقائد من فخدة أولاد زيد. ولعل هذا الإجراء التأديبي الذي أقدمت عليه سلطات الحماية، كان في اعتقادها كافيا لتركيع القائد، والدفع به لقبول الانصياع للتوجيهات الفرنسية، إلا أن همته كانت تأبى التنازل عن النخوة المخزنية، لذلك فبعد شهور قليلة قدم القائد تنازله بتاريخ يوليوز 1914م، معلنا بذلك رفضه أن يبقى مدجنا من طرف السلطات الفرنسية وعاد مواطنا عاديا داخل قبيلته. وانضافت قيادته (الثمرة) إلى قيادة ابنه محمد ولد عيسى بن عمر.

هذا الموقف العنيد من القائد عيسى بن عمر، جعل سلطات الحماية الفرنسية تنظر بعين الحيطة والحذر إلى كل تصرفاته، رغم كبر سنة (72سنة) واتهمته بتحويل قصبته إلى مقر للدسائس والمؤامرات، خصوصا وأن الظروف السياسية العامة كانت متأزمة بسبب الحرب العلمية الأولى، لذلك تقرر إبعاده بشكل نهائي عن عبدة. حيث لم يبق هناك أي مجال للتفاهم، وأصبح التعارض والاختلاف قويا، والاصطدامات متعددة[597].

وحصل القبطان" شولتز SCHULTZ: "على قرار نفي القائد ووضعه تحت الإقامة الجبرية بمدينة سلا"[598].

إن الإقدام على هذا القرار الخطير، له عدة دلالات. فلعل العزل عن القيادة وإبعاد القائد عن ممارسة كل سلطة سياسية، كان كافيا لتجميد دور القائد، خصوصا وأن فرنسا كانت تتوفر على قوة عسكرية لردع أي تحرك محتمل، ولها أعوان محليون داخل قبيلة عبدة. لكن الحرص على نفيه وإبعاده نهائيا عن عبدة، يحمل عدة دلالات. فمما لا شك فيه أن

[595] - رواية شفورية أفادنا بها السيد عبد الرحيم ولد القائد عيسى بن عمر العبدي.
[596] - ريفي دانيل، ص 215.
[597] - خريزنو، ص 23.
[598] - أنطونا، ص 52.

القائد كان له نفوذ قوي وإشعاع أساسي داخل القبيلة، وقد شعرت سلطات الحماية الفرنسية بهذا الخطر لذلك لم تكتف بعزله بل فضلت أسلوب نفيه وإبعاده.

وكان مقررا أن يتم النفي على الطريق البحري من مدينة أسفي، إلا أن القائد المعزول تخوف من أن يكون النفي خارج المغرب، لذلك صمم الذهاب عن طريق دكالة، مما أحدث تخوفا لدى سلطات الحماية الفرنسية من إثارة القبائل لهذا المشهد المأساوي، لكن القائد طمأنهم وأعطاهم وعدا والتزاما بهدوء القبائل وانتقل على الطريق البري إلى سلا[599].

لعل هذا القرار القاسي والمجحف في حق القائد عيسى بن عمر، كان بالنسبة لسلطات الحماية الفرنسية، الوسلية الوحيدة للارتياح من الشبح المخيف للقائد المعزول، وقد علق أحد الفرنسيين على هذا القرار بقوله: "...سوف لن يفهم السي عيسى أبدا شرعية إزالة حظوته، وسيبقى معتقدا أننا نحن الذين خرقنا شروط اللعبة"[600].

3-إبعاد القائد عيسى بن عمر ونفيه إلى سلا (1914- 1924).

ظل عيسى بن عمر في حالة إبعاد ونفي إلى سلا، وسمح له بالعودة إلى مراكش والإقامة بها سنة 1920[601]. لكن حصل له نفور من باشا المدينة الحاج التهامي الكلاوي، ففضل العودة إلى سلا، حيث قضى بقية عمره.

وظل أبناؤه يقيمون بعبدة، حيث استمر ابنه محمد قائدا على البحاترة الجنوبية والعامر والثمرة، لكن تحركات محلية في فخدة الثمرة بسبب سلوكه أدت إلى فتح تحقيق ضده. ثم عزل نهائيا عن القيادة في مارس 1918[602]. وتولى مكانه أخوه الحاج ادريس بن عيسى بن عمر العبدي الذي كان سابقا باشا مدينة أسفي، واستمر بدوره في القيادة إلى تاريخ يناير 1920، لكنه أبعد بمقتضى إجراء إداري، وكان الحاج ادريس آخر عضو من أسرة السي عيسى بن عمر تقلد مهمة مخزنية[603].

بعد عزل الحاج ادريس، تولى القائد الزرهوني على فخدة الثمرة، ونظرا للعداء القديم الذي كان لأولاد زيد مع القائد عيسى بن عمر فقد صار القائد الزرهوني يتحرش بأسرة القائد المعزول ولولاده، وقام باعتقال بعض أبنائه، وأثار المشاكل بين الحاكم لوكلي LE GLAY وبين بقية أفراد أسرة القائد المعزول عيسى بن عمر. كما تطاول أصحاب الحاج التهامي الكلاوي على ما تبقى من ممتلكات عيسى بن عمر، فادعى علي لو صالح صاحب الحاج التهامي الكلاوي أن عيسى بن عمر باع له بعض أملاكه، وقدم لذلك رسوما مزورة، وسانده القائد في ذلك، وحاول بالقوة أن يفرغ عزيبا للقائد من أسرة القائد المقيمة به مما أدى إلى صراع انتهى بتدخل الحاكم لوكلي وعرض القضية على الجهات المعنية. فكتب عيسى ابن عمر شكاية إلى المقيم العام الجنرال ليوطي، يلتمس منه التدخل لحماية أسرته وباقي ممتلكاته[604]

599 - الصبيحي محمد بن احمد السلاوي: عيسى بن عمر وفظائعه م.خ.ص رقم 463/ص1.
600 - تقارير وزارة الدفاع الفرنسي كارطون رقم 154. H3 تقرير ص 17.
601 - نفس التقرير أعلاه.
602 - شكاية عيسى بن عمر إلى المقيم ليوطي بتاريخ ذي القعدة 1338ه/1920م.
603 - السوسي، حول مائدة الغذاء، ص 85.
604 - أنطونا: مذكور، ص 49.

إن عيسى بن عمر عانى كثيرا في منفاه، لأن معظم أملاكه صودرت بطريقة غير رسمية من طرف سلطات الحماية، أو وقع تفويتها بطرق ملتوية. أو قام بعض أبنائه ببيعها، فلم يبق للقائد المعزول لتأمين حاجاته وحاجات أبنائه الذين كانوا معه في المنفى بسلا، ويشير المختار السوسي، إلى أن القاضي ابن العربي الدكالي ذكر له، بأن السي عيسى قد"... أداه الحال، وقد خرج كل شيء من يده حتى احتاج 'إلى شمعة صغيرة... فذهب ذلك القائد الكبير كأنه لم يكن قط مذكورا..."

وفي هذه الظروف القاسية، وافته المنية بعد مرض قصير ومات يوم الأحد 7 صفر 1343 ه موافق 6 سبتمبر 1924م. عن سن تناهز اثنتين وثمانين سنة.

ودفن بضريح الولي الصالح سيدي احمد الطالب بمدينة سلا، وبعد أيام نبش أولاده قبره ووضعوه في صندون ونقلوه إلى عبدة، حيث تلقاه سكانها بكثير من الحزن والأسى، وكأنهم يتأسفون على ماض مفقود مما أدهش المراقب المدني آنذاك لوكلي Le Glay وتساءل أمام هذا المنظر المحزن بقوله :

"أليس هذا دليلا على أن هؤلاء السكان يسخرون منا؟ وماذا سيفعلون لو غادرناهم إذا إلى الأبد؟".

وترك القائد عدد من الأبناء منهم تسعة وعشرون ولدا، وثمانية عشرة بنتا، ولم يبق منهم الآن على قيد الحياة سوى ابنين هما: السيد عبد السلام بمراكش والسيد عبد القادر بأسفي وبنت واحدة هي السيدة حبيبة ما تزال على قيد الحياة بمول البركي بعبدة.

خـــــاتمـــــــة

حددنا في بداية هذا البحث، جوانب من الإشكالية العامة التي إلتزمنا بدراستها، ونعتقد أننا حاولنا -قدر المستطاع -الكشف عن بعض جوانبها، وخلصنا من ذلك إلى الاستنتاجات التالية:

1-إن قيادة عبدة لم تكن تتخذ شكلا ثابتا فهي تتسع وتتقلص حسب ظروف ومعطيات محلية ومركزية، فخلال مرحلة الصراع مع السلطة المركزية وضعف قوتها، فهي قوتها، وانشغالها بقضايا الشمال، توسعت قيادة عبدة، مع توسع نفوذ قائدها عبد الرحمان بن ناصر العبدي، وأصبحت تشكل إمارة شبه مستقلة.

- ولما استرجعت السلطة المركزية قوتها وسلطتها، تجزأت قيادة عبدة إلى ثلاث قيادات، في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، ومنذئذ، استأثرت أسرة عيسى بن عمر بقيادة البحاترة، إحدى قبائل عبدة.

- تمكن القائد عيسى بن عمر، من تجميع قيادات عبدة تحت سلطته، بتدعيم من المخزن المركزي، وذلك في فترة حكم السلطان المولى عبد العزيز.

2- إن القائد عيسى بن عمر العبدي، كان يمثل نموذج قائد مخزني، استمرت قيادته وسلطته على عبدة مدة تزيد عن ربع قرن (1879-1914) وعاصر خلال هذه الفترة مرحلتين:

- مرحلة استقرار وثبات البنية المخزنية المغربية وتشبع القائد بروح المؤسسة المخزنية، وتقاليدها في التسيير وممارسة السلطة القيادية.

- مرحلة الدخول الاستعماري، وما صاحب ذلك من تقلبات أدت إلى خلخلة البنية المخزنية، وتهميش دور مؤسساتها وتدجين أطرها من طرف السلطات الاستعمارية.

القائد عيسى بن عمر العبدي لم يستطع أن يتكيف مع المعطيات الجديدة – كباقي القواد الكبار – لكي يضمن استمرار سلطته وصيانة مصالحة بل كان يمثل نموذجا لقائد مشبع بتقاليد وممارسة السلطة القيادية بشكلها المطلق، وحافظ على نخوته المخزنية، لذلك اصطدم بالقوات الاستعمارية التي حاولت تدجين الجهاز المخزني بكل مؤسساته.

3-إن مرحلة ارتقاء عيسى بن عمر إلى مستوى وزير في الهيئة الحفيظية، مثلت تحولا على مستوى القوى الإجتماعية الفاعلة في توجيه القرار السياسي. لكن هذه القوى لم تكن تمتلك الشروط الموضوعية لقيادة البلاد، في مواجهة التحدي الخارجي، لذلك سرعان ما أصيبت بالخذلان.

4- إن ظاهرة القواد الكبار " ليست وليدة الفترة المعاصرة، بل هي "ظاهرة" متجذرة في بنية المخزن المغربي، وإن التعامل الاستعماري مع هذه الظاهرة، كان في فترة تفسخها وانحلالها، فحاول الإستعمار إحيائها والنفخ فيها، لتوجيهها وفق مخططاته ومصالحه. وإذا كان قد أفلح في ذلك مع قواد الأطلس الكبار، فإنه مع ذلك لم يفلح مع القائد عيسى بن عمر العبدي. لعل البحث قد أصاب بعض أهدافه، التي سطرها وربما أخطأ في بعضها، ويبقى طريق البحث متواصلا ومستمرا.

ملحق الخرائط والرسوم والصور

الخرائط المعتمدة في البحث

1. انتشار القبائل العربية خلال القرنيس 17 و 18
2. قبائل عبدة وأفخادها
3. موقع فخدة أولاد زيد ضمن البحاترة
4. تقسيم قيادات عبدة(أكتوبر 1913- يوليوز1914)

الجداول

1. جدول يتعلق بخرص قبائل عبدة لسنة 1307هـ/1889م
2. جدول يتعلق بخرص قبائل عبدة لسنة 1309هـ/1891
3. جدول يتعلق بخرص قبائل عبدة خلال سنتين متفاوتتين من حيث الإنتاج (مقارنة)
4. جدول يتعلق بمساحة الأراضي التي امتلكها الأجانب داخل عبدة

الرسوم

1. رسم تقريبي لقصبة القائد عيسى بن عمر مع توضيح مرافقها

البيبلوغرافيا

1-المصادر الأساسية

- كنانيش الخزانة الحسنية: خرص قبائل عبدة للسنوات المتراوحة ما بين (1314-1307) أرقامها (746-406-395)

❖ الأملاك والتركات.

- أملاك المخزن بقبيلة عبدة (1315 كناش رقم 230)
- أملاك المخزن بمدينة أسفي (1324) كناش رقم 274
- بيان تركة بعض القواد. كناش رقم 96.

❖ المراسلات الصادرة والواردة على المخزن

- بيان مجمل الرسائل الصادرة عن السلطان مولاي عبد الرحمان (1279-1290) رقم 47
- رسائل سلطانية وتقييدات متنوعة: مولاي عبد الرحمان (1276-1290) رقم 664
- تقييد المكاتب الواردة على الحضرة الشريفة وبعض المكاتب.
- الجواب على يد قائد المشور السعيد (1326-1390)
- خلاصة مكاتب التوقيع المجاب عنها على يد غريط (1302-1308) رقم 551.
- خلاصة الرسائل الصادرة على يد الفقيه الصنهاجي من جهات مختلفة (1306) رقم 152.
- الرسائل الصادرة عن السلطان عبد العزيز إلى العمال والقواد والأمناء في الفترة المتراوحة ما بين (1313-1322) أرقامها (229-776-422-442-429-763)
- الرسائل الواردة على السلطان مولاي عبد العزيز في الفترة المتراوحة ما بين (1311-1317) أرقامها (222-747).
- الوارد والصادر بالبوسطى السعيد باسفي ومراكش في عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1325-1326) رقم 614.
- بيان الأوسمة التي أنعم بها السلطان عبد الحفيظ على بعض خدامه(1326-1329) رقعة 646.

كنانيش الخزانة العامة بالرباط

- كنانيش لتقييد المكاتب الموجهة للحضرة الشريفة (1325-1326) رقمه 2721 ك.
- كنانيش مكاتب الطابع الشريف رقمه 1295د.
- كنانيش الداخل والخارج لبنيقة مراكش رقمه 1690 د
- كنانيش مكاتيب دار النيابة رقمه 2720د.

جائزة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات

- ميكروفيلم لوثائق سنة 1978.

- رسائل محلية ومخزنية من لدن بعض الأشخاص بأسف وغيره

2-المصادر المخطوطة:

الرموز المستعملة في الهوامش:

خ.ع.: الخزانة العامة

خ.ح.: الخزانة الحسنية

خ. ص: الخزانة الصبيحية

- ابن ابراهيم، عباس بن محمد المراكشي م.خ مخطوط خاص

- رسالة حول ثائر سوس احمد الهيبة (ضمن مجموع) م ز خ.ع 5320 ك. الحملة الفرنسية على مراكش حين دخلها أحمد الهيبة.

- ابن زيدان، عبد الرحمان: العلائق السياسية للدولة العلوية م.خ.ح. 774.11.

- ابن حمدون، الحاج احمد بن محمد: "الدرر الإبريزية في المناقب العزيزية" م.خ.ح. 4107

- بليمني بوعشرين: "التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب". مخطوط خاص.

- بناني عبد القادر: تلخيص ما عليه المعول في أخبار من بالمغرب من الدول م.خ.ح. .10273

- الحجوي محمد بن الحسن: "تقاييد تاريخية" خ.ع.128 ح.

اختصار الإبتسام (ضمن مجموع) خ.ع. 114 ح.

مراسلات مخزنية خ.ع. 177 ح.

تقرير تاريخي عن حالة المغرب والحماية خ.ع. 254 ح.

- الدكالي، محمد بن علي: كناشة خ.ع. 91 ج

- الكانوني محمد بن أحمد العبدي : "علاقة أسفي ونواحيها بملوك المغرب" مخطوط خاص مرقون على الآلة الكاتبة نسخة منه بحوزة الأستاذ الجليل حامد التريكي.

كناشة خاصة به مجموعة من الرسائل المتصلة بأسفي وعبدة. وهو بحوزة الأستاذ الجليل - سيدي محمد المنوني.

- المشرفي محمد الغربي: الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية خ.ع. 1463 د.

- المشرفي العربي بن علي العسكري: الحسام المشرفي العربي في الرد على أكنسوس المراكشي خ.ع. 2276 ك

- مؤلف مجهول: "الدرر اللفظية في المملكة الحفيظية" خ.ع. 3640

- مؤلف مجهول: التقييد المستحسن فيما رؤى وسمع في شأن مولاي الحسن خ.ح. 4250.

- الصبيحي حمد بن محمد السلاوي: باكورة الزبدة من تاريخ أسفي وعبدة خ. ص 434/خ.ع. 1503.

عيسى بن عمر وفظائعه خ.ص. 463 خ. ع. 418.

صلحاء أسفي وعبدة خ.ص. 418

- عبد الحفيظ (السلطان) بن مولاي الحسن: كتاب في تاريخ اوداء العطب خ.ح. 11/400

- الفاسي، عبد الحفيظ: رحلة تاريخية للقاضي عبد الحفيظ الفاسي (رحلات وخاطرات) خ.ع. 4401 د

- السباعي عبد الله بن محمد بن ابراهيم: البستان الجمع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولاي الحسن خ.ع. 1346د

- السوسي على الفاسي: نهاية المعقول في تنبيه همم الفحول خ.ع. 15ج.

- الشبيهي محمد الصغير بن أحمد: أعلام البشر بالسلطان المنتظر خ.ع. 2811.

<u>3- المصادر والمراجع المطبوعة :</u>

- أكنسوس محمد بن احمد السوسي المراكشي: الجيش العرمرم الخماسي (جزئين) طبعة حجرية بفاس 1336.

- ابن زيدان عبد الرحمان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. المطبعة الوطنية 1933.(5 أجزاء) (1933)

العز والصولة (جزئين) الرباط 1962.

- بروفنصال ليفي (تعريب عبد القادر الخالدي): مؤرخو الشرفاء الرباط 1977.

- بنمنصور عبد الوهاب: قبائل المغرب الجزء الأول الرباط 1968.

- بوشرب احمد: دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور قبل 28 غشت 1481/أكثر 1541 البيضاء 1984

- بن جلون عبد المجيد (ترجمة وتلخيص عن فرنسيس مكتب): جولات في مغرب أمس 1901 (مكتبة المعرف (ب.ت)

- التادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحيى (ابن أبي الزيات) تحقيق أحمد التوفيق: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، منشورات كلية الآداب 1984

- التعارجي العباس بن ابراهيم: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام المطبعة الملكية 1979.

- التوفيق أحمد: المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912) منشورات كلية الآداب الطبعة الثانية 1983.

- الخديمي علال، بحث لنيل د.د.ع: حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية (1907-1908) الرباط 1985.

- داوود محمد: تاريخ تطوان (المختصر في جزئين) تطوان 1955.
- الزياني أبو القاسم: الخبر عن أول دولة الأشراف العلويين من أولاد مولانا الشريف بن علي (1812-1637) وهو منقول من كتاب الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب المطبعة الجمهورية بباريس ط 1886/1.
- الكانوني محمد لحمد العبدي: أسفي وما إليه قديما وحديثا القسم الأول (ب.ت)
جواهر الكمال في تراجم الرجال القسم الثاني (ب.ت)
- المؤقت محمد بن عبد الله: الاستبشار في ذكر حوادث الأعصار (ضمن مجموع) مطبعة الحلبي بمصر 1346
- المنوني محمد: مظاهر يقظة المغرب الحديث (جزئين)
- المؤذن عبد الرحمان: إسهام في دراسة العلاقة بين المجتمع القروي والدولة في مغرب القرن التاسع عشر (قبائل ابيلون 1875-1902) بحث لنيل د.د.ع. الرباط 1984.
- الناصري احمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الأجزاء 7-8-9) 1956.
- الصديقي محمد بن سعيد: أيقاظ السريرة لتاريخ الصورة ج 1 البيضاء (ب.ت)
- الضعيف الرباطي (تحقيق لحمد العماري): تاريخ الضعيف دار المأثورات 1986.
- عياش جرمان: دراسات في تاريخ المغرب ش.م.ن. م. 1986.
- عياش البير: المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الاستعمارية دار الخطابي 1985
- غريط محمد: فواصل الجمان في أبناء وزراء وكتاب الزمان فاس 1947.
- فارس محمد خير: المسألة المغربية القاهرة 1961.
تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939/ القاهرة 1982.
- السوسي محمد المختار: حول مائدة الغذاء مطبعة الساحل 1983.
المعسول (ج 20)/1963.
- السليماني أبو عبد الله: اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب مطبعة الأمنية الرباط 1971.
- الوزان حسن بن محمد الفاسي (ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر: وصف إفريقيا ج 1/ دار الغرب الإسلامي –بيروت 1982.

الوثائق الفرنسية:

تقارير وزارة الدفاع الفرنسي بفانسين : A.N.G.(Vincennes)

- Fiches des tribus: *Région de Marrakech (1926-1936)-
*Activités d'EL HIBA (1916-1917) carton n° 3H439

- Fiche de Tribus: *Région de Marrakech et d'Agadir (1925-1936) carton 3H 440

- Etudes sur les tribus: (1925-1927) " " 3H 446

- Opérations dans les régions de Doukkala-Abda (1912-1913) carton n° 3H 580

- Région de la chaouia, Région de Marrakech, série incomplète 1912-1912 carton N°3H.809

Courrier expédié par le colonel Mangin 14 Août 1912 carton n° 3H. 1065. Opérations dans la région de Mogador et des Doukkala-Abda

Généralités sur la politique française au Maroc (1907-1912) 3H.90

Directives d'opération de Lyautey-Rapport d'ensemble (1911-1912) 3H.97

Etudes, opérations des régions de MRK sur la politique de pénétrations" 3H.448.

- Rapport mensuel du Protectorat. 1912/3H579

" " " " " 1912-1920 3H 154.

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'Orsay)

Mémoires et documents – Maroc (1630-1853)/7/s

- Correspondances politiques et commerciales (1897-1918) n.s
- Politique générale (1912) Dossier n°219
- " " " " Dossier n° 228
- " " "(1913) Dossier n°229
" " "(1913) Dossier n° 232

Archives Diplomatiques Maroc.Tunisie (1917-1938) A.D
- Personnalités Marocaines (1917-1922) "421
- El Glaoui (1931-1937) "421
- Affaires du sud (1917-1918) "557
- " " " (1918-1927) " "558
- Affaires indigènes (Dossier général) (1917-1929)" "775
- Protectorat indigènes-Affaires diverses (1917-1921)
- Personnel du protectorat. Dossier général (1917) "710
- Dossier général 1926-1929 "737

du résident général/ 1- Rapport Mensuel 912-1913 N.S. 262

المراجع الفرنسية:

Aubin Eugen	Le maroc d'aujourd'hui Paris 1913
Antona Armand	La région des Abda Rabat 1931
Arnaud (Dr.L)	Au temps des Mehallas Casa 1952
Allain Claude	Agadir 1911
Adam André	Bibliographie critique de socio
Brignon, Amine Boutaleb et autres.	Histoire du Maroc Hatier: 1967
Brives.A	Voyages au Maroc (1901-1908) Alger: 1909
Bellaire, Michaux-	-Un rouage du gouvernement Marocain La

E	Beniqat ech. Chikaïat de My ABD Hafid In Revue de monde musulman juin 1908 - Les Doukkala. In villes et Tribu du Maroc Tome.1.p.78.
Chenier, (M.de)	"Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'empire du Maroc", (1787), Paris, T III
Campou, Ludovic chapi, Mustapha	Un empire qui croule Paris 1888 Quelques grandes familles du Makhzen au XXé siécle d'après Ben zidane Memoire D.E.S. Rabat (F.L) 1973
Coidan, Etienne	Le Caid Marocain Rabat 1950
Caillé.J	La mission du capitaine Burel 1808 Paris 1953
De periny, St Maurice	Au Maroc Marrakech et les ports du Sud Paris 1918
Doutté, E	Marrakech Paris 1905
Deverdun, Gaston	Marrakech des origines à 1912 Rabat 1959
De faucauld,	Reconnaissance au Maroc 1883-1884
Erckmann, Jules	Le Maroc moderne Paris 1885
Fauquemot, Emile	Safi et le territoire des Abda Jany 1953
Fumey, (Eygéne)	Choix de correspondances Marocaines, Ed. maison neuve, Paris 1900
Fresneau	L'unification Makhzen ou le caid si Aissa Ben Omar C.H.E.A.M.
Grillon, Pièrre	La correspondance du consul Louis chenier 1767-1782 paris 1970
Gouvion, Met.Edmond	Kitab El Mahiriba Paris 1939
Harris, walter.B	Le Maroc disparu/ tr.orien Paris 1929
LAHBABI, M	Le gouvernement Marocain à l'aube du XXe siècle, Ed. Nord-Afric, Rabat 1958

LAROUI, Abdellah	Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912) ed. François Masspero, Paris 1977
Montagnes, R	Les berberes et le makhzen dans le sud du Maroc (essai sur les transformations politiques des berberes sedentaires (groupe chleuh) Paris 1930
Maudit, René	Le makhzen Marocain In Renseignements coloniaux et documents publiés par B.C.A.F. N° 12 P. 293-304
Mansour Mohammed	Political and social developements in Morocco during the reingn Moulay sulay-man (1792-1822) London 1981 Tome III P105-106.
Nehlil,	Lettres chérifiennes Paris 1915
Pascon, P	Le Haouz (2 tomes) Rabat 1983
Penz, Charles	Journal du consulat général de France au Maroc (1767-1785) Casa 1943
Rivet, Daniel	Lyautey et l'institution du Protectorat au Maroc 1912-1925 stencil 2 Vol
Ségonzac, (de)	Voyages au Maroc 1899-1901
Tharaud, J et Jerôme	Marrakech ou les siegneurs de l'Atlas Paris 1929
Terrasse, Henri	Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français Edit Atlantides-Casa 1949
Weisgerber Dr	Au seuil du Maroc Moderne, ed. la Porte, Rabat 1947

فهرست

المقدمة 3
الباب الأول: عبدة في الزمان والمكان 7
7
الفصل الأول : ظهور عبدة على مسرح الأحداث
I- أصول قبائل عبدة 7
تحديد عبدة في المجال 7
إعادة تعمير منطقة عبدة 9
مرحلة التحول وظهور عبدة 10
II- المؤهلات الطبيعية والبشرية لعبدة 13
تأثير عبدة بمحيطها 13
ارتباط عبدة بمرسى أسفي 16
18
الفصل الثاني: تطور الجهاز المخزني داخل عبدة
I- ظهور القيادة المحلية لعبدة 18
ارتباط عبدة بالمخزن المركزي وظهور قيادة عبدة 18
انتعاش عبدة بوجود سيدي محمد بن ع. الله خليفة لأبيه بأسفي 19
احتفاظ أسفي وعبدة بأهميتهما في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله 21
تراجع دور أسفي بعد بناء مدينة الصويرة 22
II- انفراد عبد الرحمان بن ناصر العبدي بقيادة عبدة وأسفي 23
ظروف توليه القائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي على قيادة عبدة 23
مبايعة عبد الرحمان بن ناصر العبدي للمولى هشام 24
استفادة عبد الرحمان بن ناصر العبدي من تعامله مع التجار الأجانب 25
عبد الرحمان بن ناصر العبدي استعمل المولى هشام كوسيلة للتملص من بيعة المولى سليمان 27
انحياز العبدي لطاعة السلطان المولى سليمان 28
III- إجراءات السلطان المولى سليمان بعد دخول العبدي تحت طاعته 29
تقليص دور أسفي وعبدة تجاريا وسياسيا 29
إسناد قيادة عبدة وأسفي إلى نظر عامل الصويرة محمد بن عبد الصادق المسكيني 31
موقف السلطان من قيام عبدة ضد محمد بن الصادق 32

الباب الثاني : عيسى بن عمر قائدا على قبيلة البحاترة) القيادة الصغرى 1879-1896) 34

الفصل الثالث: انفصال قبيلة البحاترة عن باقي قبائل عبدة واستئثار أسرة عيسى بن عمر بقيادتها 34
I- ظهور قبيلة البحاترة كتجمع قوى داخل عبدة 34
قيام البحاترة ضد قائدها، أدى إلى انفصالها عن باقي قبائل عبدة 34
تقسيم قبائل عبدة ودلالته 35

قيادة الربيعة والعامر 37
II- استئثار أسرة عيسى بن عمر بقيادة البحاترة (1847-1879) 39
القائد احمد بن عيسى أول قائد على قبيلة البحاترة (1847-1854) 39
القائد محمد بن عمر البحتري (1854-1879) 40

الفصل الرابع: القائد عيسى بن عمر ممثلا محليا للسلطة المركزية (1879-1896) 50
بداية تمرس عيسى بن عمر بالمهام المخزنية 50
عيسى بن عمر خليفة لأخيه القائد محمد بن عمر (1864-1879) 50
تولية عيسى بن عمر قيادة البحاترة سنة 1879 51
علاقة القائد بالجهاز المخزني المركزي والمحلي 52
علاقته بالمخزن المركزي 53
علاقته بممثلي المخزن المحلي 56
المهام المنوطة بالقائد من طرف المخزن المركزي 61
تقديم الواجبات المخزنية 61
المشاركة في الحركات المخزنية 63
تكفل القائد برعاية وتربية مواشي السلطان 64
هدايا الأعياد 65
اهتمام السلطان بتخليص رعاياه من ديون الأجانب 65

الباب الثالث: عيسى بن عمر قائدا على كل قبائل عبدة)القيادة الكبرى: (1886-1908) 67
67

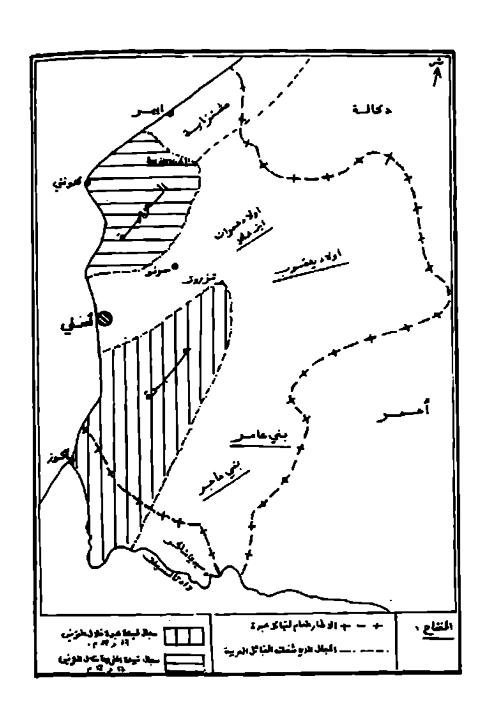
الفصل الخامس: ظروف ارتقاء عيسى بن عمر إلى مستوى قائد كبير
امتحان قدرة القائد وتأكيد جدارته 67
انتفاضة كادت أن تنال من القائد 67
الظروف العامة والخاصة 67
الأسباب الداخلية لانتفاضة أولاد زيد 68
المواجهة بين القائد وأولاد زيد 69
تأثير الانتفاضة على سكان مدينة آسفي 70
المخزن لمركزي دعم موقع القائد للقضاء على الانتفاضة 70
تدخل المخزن لوقف انتفاضة أولاد زيد 70
تأكيد جدارة القائد بقضائه على الانتفاضة 72
اعتماد المخزن على القائد لمواجهة المهام الصعبة داخل عبدة وخارجها 74
ارتباط القائد بالوزير الوصي أحمد بن موسى 74
امتداد نفوذ القائد على كل قبائل عبدة 76
علاقة القائد بالوزير المنبهي وما ترتب عنها 78
اعتماد السلطان على القائد لمواجهة التمردات 79
امتداد نفوذ القائد وتوسع سلطاته 81
83

الفصل السادس: كيف مارس القائد سلطة القيادة؟
مظاهر القيادة 83
نمط عيس القائد عيسى بن عمر العبدي 83
جهاز أعوان القائد 87
شطط القائد وعسفه وموقف المخزن منها 89
تعسفات القائد عيسى بن عمر 89
تعسفات أعوان القائد 91
موقف المخزن من التعسفات عموما 93
بعض لمبادرات الإصلاحية للحد من لتعسفات 95
موقف القائد عيسى بن عمر من الوجود الأجنبي داخل عبدة 96
بداية التسرب الأجنبي إلى عبدة 96
مضايقة القائد للمخالطين 98
معاملة القائد للتجار الأجانب 101

الفصل السابع: عيسى بن عمر وزيرا للخارجية (1908-1911) 103
I- قواد الحوز يؤطرون الهيئة لمخزنية الحفيظية 103
عيسى بن عمر وزيرا للخارجية في الهيئة الحفيظية 103
ظهور الحركة الحفيظية بتدعيم قواد الحوز 103
عيسى بن عمر وزيرا للخارجية 104
ظهور لضطرابات داخل أسفي وعبدة 106
سفارة لهاشمي ولد عيسى بن عمر إلى العواصم الأوروبية 108
عودة لوزير عيسى بن عمر إلى لحوز لضبط الأمن 109
II- ظهور التنافس والخلاف داخل الهيئة الحفيظية 110
بداية تهميش لوزير عيسى بن عمر عن لمهام لخارجية 110
تخلي عبد لحفيظ عن وزرائه قواد لجنوب 113
احتماء عيسى بن عمر بالحماية الفرنسية 114
116
الفصل الثامن: عيسى بن عمر ضمن خطة القواد الكبار (1912-1914)
I- تدعيم القائد عيسى بن عمر للمخططات الفرنسية في الجنوب 116
لخطة الفرنسية لمواجهة حركة أحمد الهيبة 116
موقع القائد عيسى بن عمر ضمن المخطط الفرنسي 118
تعديل الخطة الفرنسية بعد ندحار أحمد الهيبة 121
II- انفصال عيسى بن عمر عن المخطط الفرنسي 122
نتقادات فرنسية، ونفور من القائد 122
إجراءات لتقسيم قيادة عبدة، وعزل القائد عيسى بن عمر 126
إبعاد القائد ونفيه إلى سلا (1914-1924) 127
الخاتمة 129
لملاحق 130
البيبليوغرافيا 131
لفهرست 139

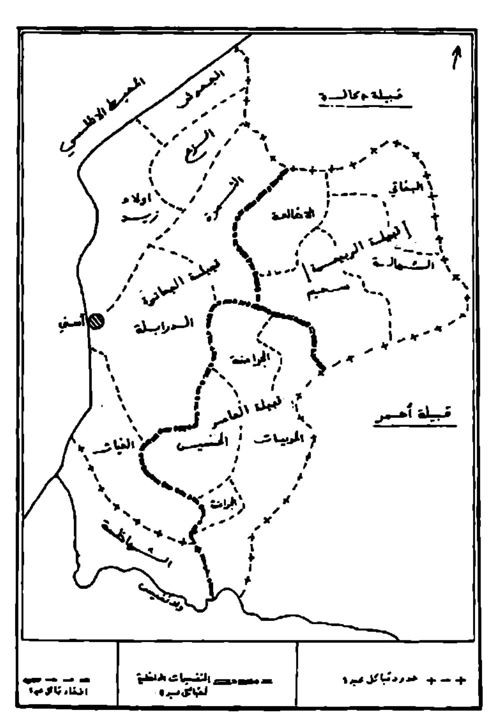
خريطة رقم 1

مجال عبدة بعد انتشار القبائل العربية خلال القرنين 17 و18.



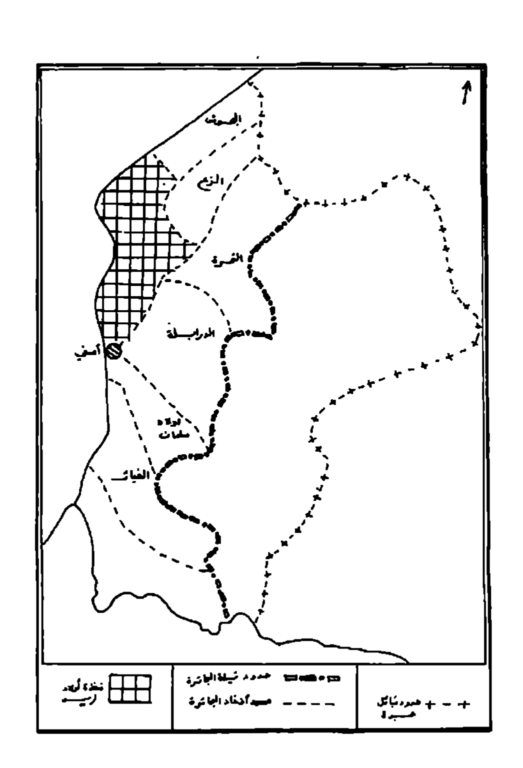
خريطة رقم 2

القبائل المكونة لعبدة وأفخاذها



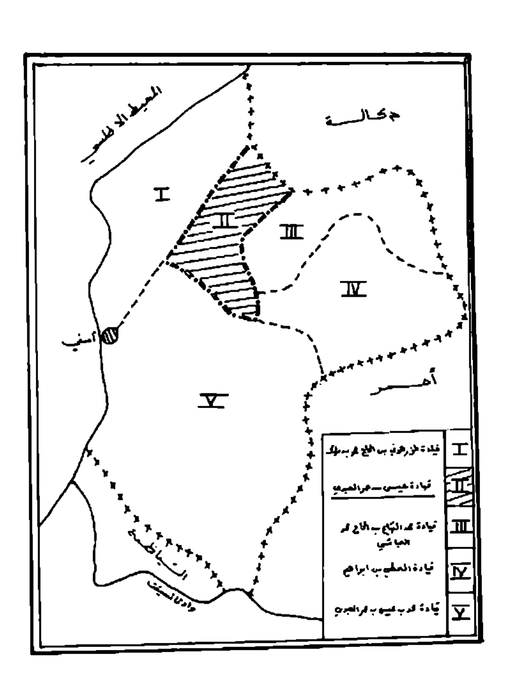
خريطة رقم 3

موقع فخدة أولاد زيد ضمن قبيلة البحاترة



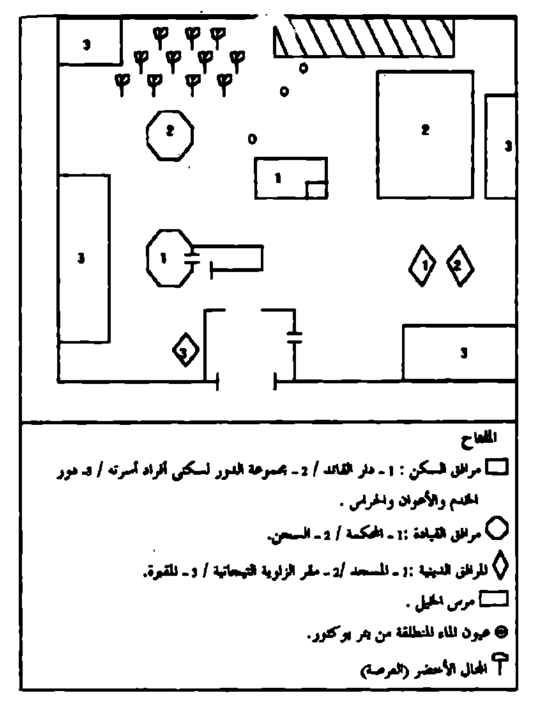
خريطة رقم 4

تقسيم قيادات عبدة أكتوبر 1913 - يوليوز 1914

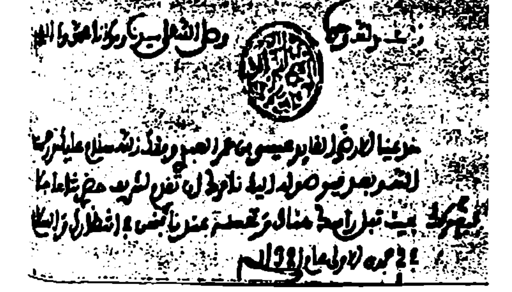


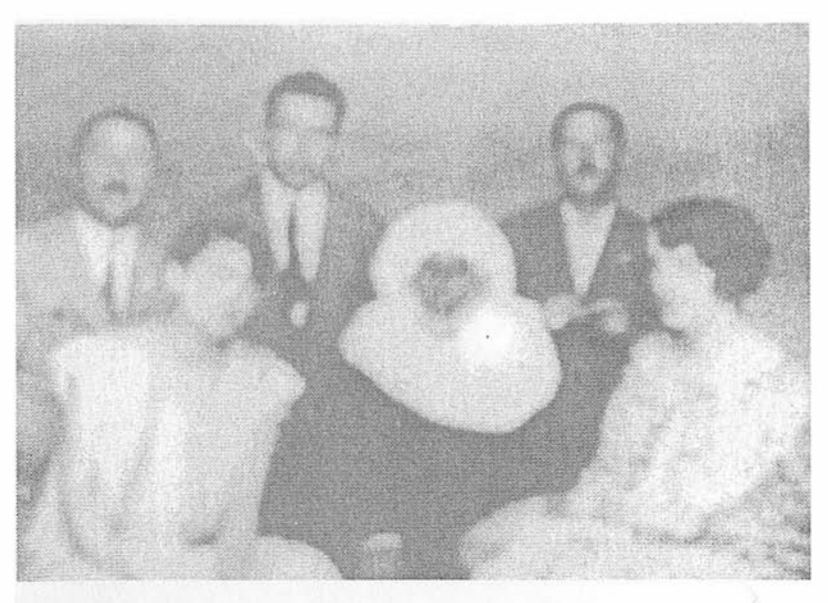
لاحظ تقلص حجم قيادة عيسى بن عمر التي أصبحت على فخدة التمرة فقط

تصميم تقريبي لتوزيع المرافق داخل قصبة القائد عيسى بن عمر



نموذج من مراسلات السلطة المركزية مع القائد عيسى بن عمر





القائد عيسى بن عمر صحبة بعض ضيوفه من الأوروبيين

إن عيسى بن عمر البحتري العبدي رجل سلطة، نشأ بين أحضان السلطة وعاش من ممارستها ومات وهو في حرمتها.

إنه وجه من وجوه النظام القيادي المخزني التقليدي، كانت تختلط في شخصه مثلما تختلط في سلطان البلاد أركان المسؤولية الكبرى. فهو المسؤول عن سلامة قبيلته وأمنها المتحكم فيها يقوّم بين فرقها وشعبها من خصومات ومنازعات، وهو المسؤول عن حدودها بالنظر إلى القبائل المجاورة وعن إبلاغ تظلماتها إلى أمير المؤمنين وتنفيذ أوامره المدنية والعسكرية نيابة عنه في سكانها.

ابراهيم بوطالب

- ولد بمراكش سنة 1946.
- تلقى دراسته الابتدائية بالمدارس المغربية الحرة ثم التحق بمدارس محمد الخامس (رياض العروس) لمتابعة دراسته الثانوية ومنها التحق بجامعة محمد الخامس. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة التاريخ. وانتسب إلى المدرسة العليا للأساتذة.
- التحق بالتدريس سنة 1972 وعمل بثانوية التعليم الأصيل للبنات، ثم بثانوية مولاي يوسف بالرباط، ثم ثانوية محمد الخامس بمراكش وبعدها التحق بجامعة القاضي عياض، كلية الآداب منذ سنة 1986 كأستاذا مساعدا للتعليم العالي، بعد أن حصل على دبلوم الدراسات العليا.
- عضو في الجمعية المغربية للبحث التاريخي، وفي جمعيات أخرى مدنية وحقوقية.


ذ. قنينير المصطفى بن محمد